

# قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

## عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية  
في عصر

بسكال وموليير وكروموك وملتن  
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا

١٦٤٨ - ١٧١٥

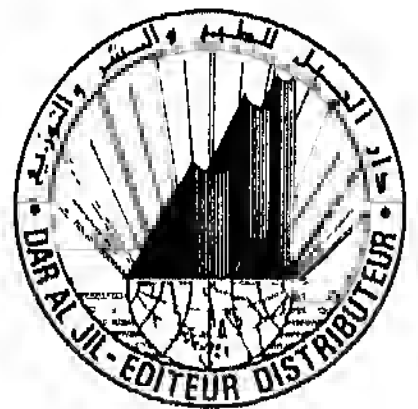
مراجعة  
علاء أدهم

ترجمة  
فؤاد أندراوس



تونس

الجزء الأول من المجلد الثامن



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

دار الجيئ : ص.ب. ٨٧٣٧ - ت. ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلاكس : ٢٣٤٣٠  
العنوان البرقي : دار ميلاد - بيروت - لبنان

## إلى القارىء العزيز

هذا المجلد هو الجزء الثامن فى تاريخ نسيث بدايته ، ولن ندرك نهايته أبدا . موضوعه الحضارة ، وتعریفنا لها أنها ذلك النظام الاجتماعى الذى يدعم الإبداع الثقافى ، فهو إذن ينظم أبواب الحكم ، والاقتصاد ( أى الزراعة والصناعة والتجارة والمالية ) ، والأخلاق ، وآداب السلوك ، والدين ، والفن ، والأدب ، والموسيقى ، والعلم ، والفلسفة . وهدفه التاريخ المتكامل - أى تغطية جميع نواحي النشاط لىب ما فى منظور واحد ورواية موحدة . وقد حققنا هذا الهدف ولكن فى قصور شديد . ومسرحة أوربا ، وزمانه یمتد من معاهدة وستفاليا ( ١٦٤٨ ) إلى وفاة لويس الرابع عشر ، الذى غلب حكمه ( ١٦٤٣ - ١٧١٥ ) على العصر وسماه باسمه .

أما الموضوع الغالب على هذا الجزء فهو « المناظرة الكبرى » بين الإيمان والعقل . لقد كان الإيمان متربعا على العرش إبان هذه الحقبة ، ولكن العقل كان یجد أصواتا جديدة تفصح عنه فى هوبز ، ولوك ، وليوتن ، وبيل ، وفونتنيل ، وسبينوزا ، و « كان هذا العصر الكلاسيكى من أوله إلى آخره ما أطلقه على ذاته فى ختامه ، أى عصر العقل » (١) وقد خصصنا ثلث الكتاب تقريبا لتلك المغامرة الفكرية التى انطلقت من انحرافه والظلامية والتعصب إلى الدرس والعلم والفلسفة . وقد بذل المؤلفان محاولة لرواية هذا النقاش فى إنصاف رغم انحيازهما الواضح إلى أحدا الجانبين ، ومن ثم كان تناوُلها المستفيض ، المتعاطف ، لنفر من المنافعين الأکفاء عن الإيمان ، أمثال بسكال ، وبوسويه ، وفنيلون ، وباركلى ، ومالبرانش ، وليبنتز . وسوف یعيش أبناءنا فصلا جديدا فى صراع المثل هذا ، وهو صراع لابد لكل انتصار فيه أن یکسب من جديد المرة بعد المرة .

وأملنا أن تقدم للقراء الجزء التاسع الذى يتناول « عصر فولتير »

في ١٩٦٥ ، والجزء العاشر « روسو والثورة » في ١٩٦٨ ، ولقد اعترضتنا عقبات ، بعضها نجم عن ضخامة المادة التي أتاحها لنا القرن الثامن عشر ، وكلها يتطلب الدرس والحيز السكافي . وإنا خلال ذلك راكسنان إلى « القوى العظمى » في ألا تدمر موضوعنا هذا قبل أن تدمرنا .

مايو ١٩٦٣      ول وايريل ديورانت

## إقرار بالفضل

لقد لقي ربه أحد الناشرين المشاركين اللذين بدأنا معها « مشروع الكلام » هذا في ١٩٢٦ ، ولن ننسى أبدا روحه النيرة المتألقة . وما زال الثاني صديقا لنا ، وهو لا يفتأ متحمسا ، سمحا ، غفورا . إنه ناشر لم يطغ عمله على شاعريته .

وعسى ألا يفسر انتهازنا هذه الفرصة — التي قد تكون الأخيرة — للإعراب عن عرفاننا بجميل النقاد الكثيرين الذين أتونا بقراء لهذه المجلدات — نقول عسى ألا يفسر هذا بأنه « إحساس قوى بأفضال قادمة » ، فما كنا بغير معونتهم إلا صوتين صارخين في البرية .

ونحن مدينان ديننا كبيرا لا نبتنا إيثلا لما بذلت من جهد مخلص في نسخ مسودتنا الثانية ، التي لم تسكن واضحة تمام الوضوح ، على الآلة السكاتبة نسخا قارب السكال ، ولما أدخلت عليها من تنقيحات صائبة ، ولاخواتنا وأخيئنا — ساره ، وفلورا ، وماري ، وهاري كاوفان — لما قاموا به من تصنيف صابر لنحو أربعين ألف جازاة تحت اثني عشر ألف عنوان ، وللسيدة آن روبرتس بمكتبة لوس أنجيليس العامة ، والآنسة داجني ولميز بمكتبة هوليوود الإقليمية ، لما قدمت من معونة قيمة في توفير الكتب النادرة لئلا من جميع أرجاء أمريكا ، فما كان لهذه المجلدات أن تكتب لولا مكتباتنا السخية العظيمة ، وللسيدة فيرا شنيدر ، عضو هيئة التحرير بمؤسسة سيمون وشوستر ، لما لقي هذا المجلد وسابقه على يدها من تحقيق علمي دقيق لم يظفر بمثله في أغلب الظن إلا القليل من المخطوطات .







الكتاب الأول  
فرنسا في أوج عظمتها  
١٦٤٣ - ١٧١٥

الفصل الأول  
الشمس تشرق

١٦٤٣ - ٨٤

١ - مازاران والفرونند : ١٦٤٣ - ٦١

ترى ما الذى أطان فرنسا على أن تفرض على أوروبا الغربية منذ ١٦٤٣ ،  
سلطانا فيه ما يشبه قوة التنويم ، اتصل فى ميدان السياسة حتى ١٧٦٣ ،  
وفى ميادين اللغة والأدب والفن حتى ١٨١٥ ؟

إن العالم لم يشهد قط منذ أيام أوغسطس ملكية إزدانت بمثل هذا  
العدد من أفذاذ الكتاب والمصورين والمثاليين والمعماريين ، أو حظيت بمثل  
الإعجاب والمحاكاة الواسعين ، سواء فى آداب المجتمع أو الأزياء أو الأفكار  
أو الفنون ، اللذين حظيت بهما حكومة لويس الرابع عشر من ١٦٤٣ إلى  
١٧١٥ لقد كان الأجانب يؤمون باريس وكأنهم يؤمون مدرسة تهذيبية  
تصقل كل ألوان الجمال فى الجسم والعقل . وكان الألوف من الايطاليين ،  
والألمان ، وحتى الإنجليز ، يؤثرون باريس على أوطانهم .

أن من أسباب هيمنة فرنسا آنئذ ضخامة قواها البشرية . فقد بلغ  
سكانها عشرين مليونا من الأنفس فى ١٦٦٠ ، فى حين لم يزد سكان كل من  
أسبانيا والمجلىترا على خمسة ملايين ، وإيطاليا على ستة ، والجمهورية الهولندية  
على مليونين . أما الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التى شملت ألمانيا ،  
والنمسا ، وبوهيميا ، والمجر ، فقد سكنها واحد وعشرون مليونا تقريبا ،  
ولكنها لم تكن إمبراطورية إلا بالاسم وقد أفقرتها قبيل هذه الحقبة حرب  
الثلاثين ، وانقسمت إلى نيف وأربعمئة دويلة ، شديدة الحرص على «سيادتها» ،

جلها صغير مستضعف ، ولكل منها حاكمها ، وجيشها ، وعملتها ، وقوانينها ، ولا يزيد سكان الواحدة منها على المليونين - وعلى نقيض هذا كانت فرنسا بعد ١٦٦٠ أمة متماسكة جغرافيا ، متحدة تحت حكومة مركزية قوية واحدة ، وهكذا تمخضت جهود ريشليو الأليمة عن مولد « القرن العظيم » .

ولقد قاز البوربون حيث أخفق الفالوا في ذلك الصراع الطويل الذي نشب بين الهابسبورج والملوك الفرنسيين ، وأخذت أجزاء من الإمبراطورية ، عقداً بعد عقد ، تقع في قبضة فرنسا ، ثم نزلت أسبانيا الهابسبورجية عن كبرياتها وزعامتها في روكروا ( ١٦٤٣ ) وصلاح البرانس ( ١٦٥٩ ) . وبعدها عقد لواء القوة للدولة الفرنسية في العالم المسيحي ، دولة مطمئنة إلى مواردها الطبيعية ، ومهارات شعبها وولائه ، وخطط قادتها العسكريين ، ومصير ملكها . كذلك كان من الأهمية بمكان ما كتب لهذا الفتى من حكم سيتصل قرابة ثلاثة أرباع القرن ، مضيفاً بذلك وحدة الحكومة والسياسة إلى وحدة العرق والأرض ، وهكذا سهرى فرنسا طوال خمسين عاما ترى وتستقدم عباقرة العلم والأدب ، تشيد القصور الشامخة ، وتجهز الجيوش الضخمة ، وترهب نصف الدنيا وتلهمها . لقد قدر لهذه الصورة أن تكون صورة عظيمة لم تسكد تضارعها من قبل عظمة ، ترسم بكل ضروب الفن وألوانه ، وبدم الرجال أيضاً .

لم تكن فرنسا قد توحدت بعد يوم ارتقى لويس الرابع عشر العرش وهو لا يجاوز الخامسة ( ١٦٤٣ ) ، وكان على كردينال ثان أن يتم العمل الذي بدأه سلفه ريشليو . ذلك هو جول مازارن الذي كان يسمى في إيطاليا جوليو مازاريني ، وقد ولد في « الأبروتزي » لأبوين صقليين فقيرين ، وتولى اليسوعيون تعليمه في روما ، وخدم البابوات موظفا دبلوماسيا ، ثم لفت أنظار أوروبا فجأة يوم أنهى الحرب المانتوية ( ١٦٣٠ ) بالمفاوضة . لحظة حرجية . فلما أوفده البابا معوثاله في باريس ، ربط مصيره بعبقريّة

ريشليو المسيطرة ، فكافأه هذا على إخلاصه بقبعة للكردينالية . وحين حضرت المنية ريشليو ، « أكد الملك أنه لا يعرف غير مازاران رجلا كفؤا لمثل مكانه » (١) . واستمع لويس الثالث عشر إلى النصيحة .

فلما مات هذا الملك المطيع (١٦٤٣) ظل مازاران متواريا بينما اضطلمت الملكة الأم ، آن النمساوية ، بالوصاية على ولدها ، واحتال لوى دكونديه وجاستون دورليان ، الأميران الملكيان ، ليصبحا القوة الفعالة وراء العرش ولم يغتفرا للملكة قط أنها تخططهما واستوزرت ذلك الإيطالي الوسيم ، الذي بلغ الآن الحادية والأربعين . وفي غداة تقلده الوزارة هشت باريس لنبا انتصار روكرو والحاسم ، وبدأ حكم مازاران بهذا الاستهلال الميمون ، ودعمته الانتصارات الكثيرة سواء في الدبلوماسية والحرب . وقد تبين ذكاؤه في حسن تخديره للسياسات ، والقواد العسكريين ، والمفاوضين . وبفضل إرشاده وقيادته وطد صلح وستفاليا ( ١٦٤٨ ) تفوق فرنسا الذي أكسبته إياها الحرب .

على أن مازاران لم يوهب وحدة الإرادة وقوتها اللتين أوتيتهما ريشليو ، ومن ثم فقد اعتمد على صبره ودهائه وسحره . وقام أصله الأجنبي عقبة في طريقه . ومع أنه أكد لفرنسا أن قلبه فرنسي وإن كان لسانه إيطاليا ، إلا أن تأكيدياته لم تحظ قط بالتصديق التام ، فلقد كان رأسه إيطاليا ، وقلبه ملكا . ولا علم لنا كم من هذا القلب اختص به الملكة ، إنه خدمها وخدم أطعماءه بغيرة ، واكتسب ودها ، وربما حبها . وكان على يقين من أن سلامته وسلامتها في مواصلة سياسة بناء قوة الملكية تدريجيا ضد أشرف الاقطاع . وفي سبيل الأثراء تحسباً للمستقبل إن سقط ، جمع المال بحرص الرجل الذي يذكر الفقر أو ينحشاه ، فحكمت عليه فرنسا ، التي بدأت تعجب بمفضيلة الاعتدال ، بأنه محدث نعمة ، وساءتها اسكنته الإيطالية ، وأقرباؤه الذين كلّفوا الدولة غاليا ، لاسيما بنات أخيه ، اللاتي تطلب حسنن جهازا مبتزقا من الخدم أو الحشم . وقد احتقره الكردينال رتن ، مع أن رتن هذا لم

يسكن ركنًا ركنًا للفضيلة ، فزعم أنه « إنسان قذر ... ومحتال أصيل ...  
 وشهير لثيم<sup>(٢)</sup> » ، على أن رتز - بعد أن هزمه مازاران - لم يكن في وضع  
 يعينه على إنصاف غريمه . وإذا كان الوزير الماكر قد جمع المال دون اكثراث  
 للكرامة ، فإنه أنفقه بذوق رفيع ، فلا حجراته بالكتب والتحف التي  
 أوصى بها بعد ذلك لفرنسا . وكان ذا أسلوب صريح مهذب يلد السيدات .  
 ويحير الرجال . وقد وصفته امرأة منصفة تدهى مدام دموتفيل ، بأنه :  
 « يفيض رقة ، بعيد كل البعد عن صرامة » ريشليو<sup>(٣)</sup> . وكان سريع العفو  
 عن معارضيه ، سريع النسيان لفضل ذوى الفضل عليه . وأجمع الكل على  
 أنه لم يدخر جهداً في حكم فرنسا ، ولكن حتى هذا التفاني كان يسيء إلى  
 بعض الناس ، لأنه كان أحياناً يترك كبار زواره ينتظرون على مضض في  
 حجرات انتظاره . وكان كل إنسان في رأيه قابلاً للرشوة ، وكان عديم  
 الإحساس بالزاهة . أما أخلاقه الشخصية فلم يكن بها بأس إذا ضرينا صفحا  
 عن الشائعات التي أرجفت بأنه جعل من ملايكة خلية له . وقد صدم الكثيرين  
 في البلاط بدعاباته الشكاكة عن الدين<sup>(٤)</sup> ، لأن مثل هذه السخرية لم تكن قد  
 فشت بعد في المجتمع الفرنسي ، ومن ثم عزوا تسامحه الديني إلى افتقاره  
 للإيمان<sup>(٥)</sup> . وكان من أول أعماله تأكيد مرسوم نانت ، فسمح للهييجونوت بأن  
 يعتقدوا بمجامعهم في سلام ، ولم يسكابد أي فرنسي الاضطهاد الديني من  
 الحكومة المركزية في عهد وزارته .

ومن عجب أنه احتفظ بسلطته كل هذا الزمن برغم كراهية الناس  
 له لقد كرهه الفلاحون لما أثقل به كواهلهم من ضرائب يستعين بها على  
 خوض غمار الحرب ، وكرهه التجار لأن المكوس التي فرضها أضرت بالتجارة ،  
 وكرهه الأشراف لأنه اختلف معهم حول مزايا الاقطاع . وكرهته البرلمانات  
 لأنه وضع نفسه والملك فوق القانون . وزادت الملكة من كره الناس له  
 بحظرها توجيه النقد لحكمه . وقد أيدته لأنها ألقت نفسها في وضع تتحداها  
 فيه جماعتان رأتا في طفولة الملك ، وفي ضعف المرأة الموهوم ، منفذاً إلى

السلطة : الأشراف الذين عللوا أنفسهم باسترجاع امتيازاتهم الإقطاعية السابقة على حساب الملكية و « البرلمانات » التي تطلعت لإحالة الحكومة إلى أوليغاركية من المحامين . إزاء هاتين القوتين - « أرستقراطية السيف » العريقة ، و « أرستقراطية الرداء » الأحدث عهدا - التمسّت الملكية درهما لها في عناد مازاران المقترن بالمرونة ولدهاء . وقد بذل أعداؤه محاولتين عنيفتين لخلعه والسيطرة عليها ، والمحاولتان تؤولان حرب الفروند .

بدأ برلمان باريس حرب الفروند الأولى ( ١٦٤٨ - ٤٩ ) محاولاً أن يكرر في فرنسا تلك الحركة التي كانت لتوها قد رفعت البرلمان الإنجليزي فوق الملك مصدراً للقانون وحكماً فيه . وكان برلمان باريس ، بعد الملك ، المحكمة العليا لفرنسا ، وقد قضت التقاليد ألا يقبل الشعب قانوناً أو ضريبة إلا إذا سجل هؤلاء الموظفون القضائيون ( وكلهم تقريباً محامون ) القانون أو الضريبة . وكان ريشليو قد اختزل هذه السلطات أو تجاهلها ، فصمم البرلمان الآن على تأكيدها . وأحس أن قد آن الأوان لجعل الملكية الفرنسية ملكية دستورية ، خاضعة للإرادة القومية . يعبر عنها مجلس نيابي . ولكن برلمانات فرنسا الاثني عشر لم تكن مجالس تشريعية انتخبها الأمة كما كانت الحال في برلمان إنجلترا ، بل هيئات قضائية وإدارية ورث أعضاؤها مقاعدهم أو وظائفهم القضائية عن آبائهم ، أو عينهم الملك فيها . ولو أن حرب الفروند الأولى كتب لها الفوز لاستعالت فرنسا إلى أرستقراطية من المحامين . وكان في الأمكان تطوير مجلس طبقات الأمة ، المؤلف من مندوبين عن الطبقات الثلاث - النبلاء ورجال الدين وباقي الشعب - إلى مجلس نيابي يكبح جراح الملكية ، ولكن مجلس الطبقات لم يكن يملك دعوته للانعقاد إلا الملك ، ولم يدعه أي ملك منذ ١٦١٤ ، وإن يدعوه حتى ١٧٨٩ ، ومن هنا اندلاع الثورة الفرنسية .

على أن برلمان باريس تحول إلى هيئة نيابية بصورة غير مباشرة ، وقتاً ، يوم اجترأ أعضاؤه على الكلام نيابة عن الأمة . فترى أومير تالون ، في

أوائل ١٦٤٨ ، يندد بالضرائب التي أفقرت الشعب على عهد ريشليو ومازاران إذ يقول :

« لقد ألحق الخراب بفرنسا طوال عشرة أعوام . فاضطر الفلاحون أن يناموا على القش بعد أن بيعت أمتعتهم وقاء للضرائب . وتمسكينا لنفر من الناس من أن يذمموا في باريس بحياة البذخ أكرهت جماهير لا حصر لها أن تعيش على الخبز القفار .. فاقده كل شيء إلا نفوسها - وهذه لم تترك لها إلا لأن أحدا لم يجد سبيلا لعرضها للبيع (٦) .

وفي ١٢ يوليو، انعقد البرلمان في قصر العدالة مع غيره من محاكم باريس ووجهوا إلى الملك وأمه مطالب عدة لا بد أنها بدت لها ثورية . فقد طالبوا بخفض ربع الضرائب الشخصية كلها ، وبألا تفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان بالتصويت الحر ، وبطرد النظار الملكيين intendants الذين حكموا الأقاليم دون أكثر من أربع وعشرين ساعة دون أن يمثل أمام القضاة المختصين . ولو أن هذه المطالب اجيبت لأصبحت حكومة فرنسا ملكية دستورية ، ولسارت فرنسا جنباً إلى جنب مع إنجلترا في تطورها السياسي .

بيد أن الملكة الأم ربطتها بالماضي جذور أقوى من النصر بالمستقبل ، إذ لم يكن لها عهد قط بأي شكل من أشكال الحكم سوى الملكية المطلقة ، وقد أحست أن التخلي عن السلطة الملكية على هذا النحو المقترح الآن مفض لا محالة إلى صدوع لا رأب لها في صرح الحكومة الوطيد ، وإلى تقويض تلك الركيزة السيكلوجية التي يستمدّها من التقاليد والعرف ، والنزول بها إن عاجلاً أو آجلاً إلى فوضى الجماهير المتسيدة . ثم يالها من سبة أن تسلم ولدها سلطة دون تلك التي تمتع بها أبوه (أوريشليو) ذلك تقاعس عن واجبها سوف يوقفها موقف الإدانة أمام محكمة التاريخ . ووافقها مازاران لما رأى من قضاء مبرم عليه في هذه المطالب الواقعة من هؤلاء القانونيين المتعطشين . ومن ثم أمر في ٢٦ أغسطس بالقبض على بيير بروسيل وغيره



من زعماء البرلمان : بيد أن بروسيل المعجوز كان قد اكتسب محبة الناس بهذا الشعار الذي أذاعه : « لا ضرائب » فاحتشد جمهور من الغوغاء أمام البالية — رويال وتعالى صياحهم بطلب الإفراج عنه . وقد أطلق عليهم اسم الرماة Frondeurs لما كان يحمل الكثيرون منهم من مقاليع أو مراجيم ، كما أطلق اسم « الفروند » على هذا التمرد . على أن جان فرانسوا بول دجورندى — الملقب درتز فيما بعد — مساعد رئيس أساقفة باريس وخليفته المنتظر ، نصيح الملكة بالإفراج عن بروسيل . فلما أبت انسحب غضبا ، وطاوع على استعناء الشعب على الحكومة ، وكان خلال ذلك يستخدم نفوذه خفية في محاولة للظفر بقبعة الكردينالية ، ويعاشر ثلاث خليلات .

وفي ٢٧ أغسطس اتخذ أعضاء البرلمان وعددهم ١٦٠ طريقةهم إلى القصر الملكي مخترقين الحشود والمتاريس ، تشد أزرهم هتافات تصيح « يحى الملك ! إلى الموت يا مازاران ! » ورأى الوزير الحذر أن اللحظة تتطلب الحكمة لا الشجاعة ، فنصح الملكة بأن تأمر بالإفراج عن بروسيل ، فوافقت ، ثم إذ أحفظها هذا النزول على رغبة الجماهير اعتسكت هي والملك الصبي في ضاحية روبل وأجاب ما زاران البرلمان إلى مطالبه مؤقتا ، ولكنه طاوله في تنفيذها . وظلت المتاريس فى الشوارع . فلما غارت الملكة بالعودة إلى باريس صاحت الجماهير بها صيحات الازدراء ، وسمعت بأذنيها تنذرها بعلاقتها بما زاران . ثم عاودت الهروب من المدينة فى ٦ يناير ١٦٤٩ ، مصطحبة فى هذه المرة الأسرة المالكة والبلاط إلى سان جرمان ، حيث توسد الحرير القش ، ورهنت الملكة جواهرها لتشتري الطعام . أما الملك الصغير فلم يغتفر قط لهذا الحشد فعلته ، ولم يحب عاصمة ملكه قط .

وفى ٨ يناير أصدر البرلمان فى أوج تمرد مرسوم طرد به ما زاران من حماية القانون واستعدي عليه كل الفرنسيين الصالحين ليطارذوه ويقبضوا عليه باعتباره مجرما . وقضى مرسوم آخر بالاستيلاء على كل الأموال

الملسكية واستعمالها في أغراض الدفاح العام . ورأى كثيرون من النبلاء في هذا التمرد فرصة لاستمالة البرلمان إلى قضيتهم — قضية استردادهم امتيازات الاقطاع ، ولعلهم أيضاً خشوا أن يفلت زمام الحركة إذا لم يتزعمها ذوو الألقاب الرفيعة . وانضم إليها كبار الاقطاعيين أمثال أدواق لونجفيل ، وبوفور ، وبويون ، وحتى أمير كوتى البوربونى الدم ، وأمدوها بالجند وللال وحرارة العاطفة . فأقبلت دوقه بويون ودوقه لونجفيل — الرائعة الحسن برغم إصابتها بالجدرى — مع أطفالهما للعيش في الأوتيل دفيل رهائن مختارة لضمان ولاء زوجيهما للبرلمان والشعب . وبينما كانت باريس تنقلب إلى معسكر مسلح ، كانت حاملات الألقاب يرقصن في قاعة المدينة ، وواصلت دوقه لونجفيل غرامها بأمر مارسياك ، الذى لم يكن قد أصبح بعد الدوق دلا روشفوكو ، ولا اعتنق بعد فلسفته السكبية . وفي ٢٨ يناير رفعت الدوقه سن معنوية المتمردين إذ ولدت ابناً لمارسياك (٧٦) ، وارتبط كثير من الفرونديين بكرائم النبيلات فرسانا تابعين لهن ، فكان يشترين دماءهم بابتسامه متلطفة من ثغورهن .

ثم حالف الحظ الملكة فأنقذ الموقف عداء بين أمير كوتى وأخيه الأكبر لويس الثانى البوربونى ، أمير كونديه — وهو كونديه العظيم ، ذاته الذى قاد الجيوش الفرنسية من قبل إلى النصر في روكروا ولنز . وإذا شمع بأنفه القوى على تمرد المحامين والغوغاء ، فإنه عرض خدماته على الملكة والملك . فوكلت إليه في ابتهاج قيادة جيش ضد باريس المتمرده — أى ضد أخيه ، وضد أخته دوقه لونجفيل — والعودة بالأسرة المالكة في أمان إلى الباليه — رويال . وجمع كونديه الجند ، وحاصر باريس ، واستولى على شارنتون ، الخفر الآمامى الحصين . أما النبلاء المتمردون فقد طلبوا المعونة من أسبانيا والإمبراطورية . وكان الطلب غلطة ، ذلك أن عاطفه الوطنية كانت عند البرلمان والشعب أقوى من الإحساس الطبقي . وأبى معظم أعضاء البرلمان أن يلغوا أعمال ريشليو وانتصاراته بأعادة تفوق الهابسبورج على فرنسا ،

وبدأوا يتبينون أنهم إنما يستعملون بيادق في محاولة لاسترجاع نظام إقطاعي من شأنه أن يقسم فرنسا ثانية إلى أقاليم مستقلة فرادى ، مستضعفة جماعة . وفي نوبة تواضع مفاجئة أرسلوا وفدا إلى الملكة المقتربة ، وعرضوا الخضوع لها ، مؤكدين أنهم كانوا على الدوام يكونون لها الحب . أما الملكة فقد منحت جميع المتمردين عفوا تاما ، شريطة أن يضعوا السلاح . وسرح البرلمان جنوده ، وأبلغ الشعب أن طاعة الملك هي واجب الساعة . وأزيلت المتاريس . وعادت آن ، ولويس ، ومازاران إلى قصبة الملك ( ٢٨ أغسطس ١٦٤٩ ) ، والتأم شمل البلاط من جديد ، وانضم إليه النبلاء المتمردون كأن شيئا لم يقع ، اللهم إلا سحابة قد انقضت . واغتفر كل شيء ، ولم ينس شيء . ووضعت حرب الفروند الأولى أوزارها .

ولكن حربا ثانية مالمبت أن نشبت . ذلك أن كوندية أحس أن خدماته تحول له التروس على مازاران . فتشاجر الاثنان ، واتصل كوندية بالنبلاء المتذمرين بحبس نبضهم ، أما مازاران ففي أجراً لحظات حياته أمر بحبس كوندية وكونتي ولونجفيل في فانسين ( ١٨ يناير ١٦٥٠ ) . وهرولت مدام لونجفيل إلى نورمنديا ، وأثارت حركة تمرد فيها ، ثم مضت منها إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية ، وفتنت تورين حتى ارتضى خيانة العرش . خوفاق القائد العظيم على أن يقود جيشا أسبانيا ضد مازاران . يقول فولتير : « واصطدمت كل الأطراف بعضها ببعض ، وأبرموا المعاهدات ، ثم خان كل منهم الآخر واحدا إثر واحد ... ومامن رجل لم يغير ولاه غير مرة » (٨) وقال ريتز ذا كرا تلك الفترة « كنا على استعداد لقطع رقاب بعضنا البعض عشر مرات كل صباح » (٩) . وكان هو نفسه على وشك أن يقتل بيد لاروشفوكو . على أن الكل أعلنوا ولاءهم للملك ، الذي لا بد قد ساهل نفسه : أي نوع من الملكية ذاك الذي استحال هشيا بين يديه ؟

وقامت قوة ملكية بمنورة في بوردو انتهت باستسلامها ، وقاد مازاران جيشا إلى فلاندر وهو يلعب دور إله الحرب مارس ، وهناك هزم تورين

الذي لا يقهر . أما ريتز ، التواق إلى الحلول محل وزير الملكة وعشيقتها ، فقد أقنع البرلمان بأن يجدد مطلبه بنفى مازاران . وفقد الكاردينال جرأته ، فأمر بالإفراج عن الأمراء المسجونين ( ١٣ فبراير ١٦٥١ ) ، ودفعه الخوف على حياته إلى الهرب إلى برول القريبة من كولونيا . أما كوندية المتعرق للثأر من الوزير والملكة جميعا فقد ربط بين أخيه كوتى ، وأخته لونغفيل ، ودوق نامور ولاروشفوكو ، في حلف جديد . وفي سبتمبر أعلنوا الحرب ، واستولوا على بوردو ، وأحالوها معقلا للثورة من جديد . ووقع كوندية تحالفا مع أسبانيا ، وتفاوض مع كرومويل ، ووعد بأن يقيم جمهورية في فرنسا .

وفي ٨ سبتمبر أعلن لويس الرابع عشر أنه منه وصاية أمه عليه وأخذ مقاليد الحكم في يده . وكان يومها قد بلغ الثالثة عشرة . ورغبة في تهدئة البرلمان أيدى نى مازاران ، ولكنه استجمع شجاعته في نوفمبر ، فاستدعى الوزير ثاوية ، وطاد هذا إلى فرنسا على رأس جيش . أما جاستون أورليان فقد لعب الآن دور الحياد ، ولكن تورين انحاز إلى صف الملك . وفي مارس ١٦٥٢ أوفد لويس حامل أختامه موليه ليطلب بولاء مدينة أورليان . فبعث قضاتها برسالة عاجلة إلى جاستون هددوه فيها بتسليم المدينة إلى الملك ما لم يمد هو أو ابنته ليستنقرا أهلها .

هنا ظهرت على مسرح الأحداث امرأة من أشهر نساء فرنسا الشهيرات ، وما أكثرهن ، وكأني بها « جان دارك » ثانية أقبلت لتنقذ أورليان . هذه المرأة — آن ماري لويز دورليان — كانت قد رفعت راية العصيان في طفولتها حين بنى ريشليو أباهما . وكان جاستون يلقب رسميا بـ « المسيو » باعتباره شقيق لويس الثالث عشر ، أما زوجته ماري بوربون ، دوقة مونايسيه ، فهي « مدام » ذلك العهد ، وابنتهما إذن هي « المده وازيل » ، ولما كانت هذه الفتاة قوية البنية فارغة القوام فقد سميت « الجرااند مده وازيل » ، ومونايسيه . وإذا كانت ذات ثراء عريض فقد شبت على كبرياء للال

والنسب، وكانت تقول « اننى أتنسئ إلى بيت لا يفعل إلا ما هو جليل نبيل » (١٠). وقد تطلعت إلى الزواج من لويس الرابع عشر رغم أنه ابن عمها، فلما لم تلق تشجيعاً احتضنت التمرد. وحين سمعت استغاثة مدينتها ورأت، أباهما يسكره أن يخوض المعركة، حصلت على رضاه بأن تنوب عنه. ولقد طالما غاظتها القيود التي فرضها العرف على بنات جنسها، ولشد ما أنكرت حرمان النساء من الانخراط في سلك الجندية. ومن ثم فقد لبست الآن درطاً وخوذة، وجمعت من حولها لفيفا من كرائم النساء المسترجلات وقوة صغيرة من الجند زحفت بها في مرجح وابتهاج على أورليان. وأبى القضاة أن يدخلوها المدينة خشية إغضب الملك، فأمرت بعض رجالها أن ينقبوا ثغرة في الأسوار، ومنها تسلت وبرفتها كونتيستان بينما الحراس يغفون أو يغضون. وما إن أفلحت في دخول المدينة حتى استطاعت أن تلهب مشاعر أهلها بسحر خطبتها النارية. وهكذا رد موليه عن المدينة خاوي الوفاض، وأقسمت أورليان بيمين الولاء لـ « عذارى » الجديدة.

وبلغت حرب الفروند الثانية ذروتها على أبواب باريس. فقد زحف كونديه عليها من الجنوب، وهزم جيشاً ملكياً، وأوشك أن يأسر الملك، والملكة، والكردينال، ولو فعل لـ « مات الشاه » حقيقة لا مجازاً. وبينما كان جيشه يدنو من باريس، حملت الجماهير — وهم « الفرونديون » هنا أيضاً، رفات القديسة جنيفيف راعية المدينة وطافت الشوارع في موكب ضاربة إلى الله أن ينصر كونديه ويسقط مازاران أما الجراند مدموازيل فقد هرعت من أورليان إلى قصر الكسمبورج حيث كان أبوها لا يزال على تذبذبه، وطلبت إليه أن يؤيد كونديه، ولكنه أبى. واقترب الآن تورين وجيش الملك، والتقيا بقوات كونديه خارج الأسوار قرب بوابة سانت انطوان (ميدان الياستيل الآن). وكاد تورين يكسب المعركة، لولا أن المدموازيل اندفعت إلى الباستيل وحرضت

٢ — قصة الحضارة

مأموره على تصويب مدافعه على جنود الملك . ثم أمرت القوم داخل الأسوار ، باسم أيها الغائب ، أن يفتحوا الأبواب برهة ريثما يدخل جيش كوندية ، ثم يغلّقوها في وجه جيش الملك ( ٢ يوليو ١٦٥٢ ) . وهكذا كانت المدموازيل بطلا الساعة .

وغدا كوندية سيد باريس ، ولكن الروس المتزنة أخذت تنقلب عليه . ولم يستطع أن يدفع رواتب جنده ، فبدأوا يهجرونه ، وأفلت زمام الجماهير . وفي ٤ يوليو هاجم الغوغاء قاعة المدينة مطالبين بأن يسلم إليهم جميع مؤيدي مازاران ، وإظهارا لسخطهم اشعلوا النار في المبنى ، وقتلوا ثلاثين من المواطنين . وتعطلت العمليات الاقتصادية ، وصمت الفوضى إمداد المدينة بالطعام ، وخشى نصف أسرات باريس الموت جوعا ، وتساءلت الطبقات المالكة : أليست الأوتقراطية الملكية . بل أليس حكم مازاران ، أهون من حكم الرعاع . وأعان مازاران الموقف حين ارتضى لنفسه النفي طوعا ، تاركا الفرونيين بغير قضية توحد بين صفوفهم . أما ريتز فقد رأى أن الوقت قد حان لدعم مكاسبه بعد أن تم له الظفر بقبضة الكردينالية الحمراء التي طالما اشتهاها ، فاستخدم الآن نفوذه ليشجع الولاء للملك .

وفي ٢١ أكتوبر عادت الأسرة المالكة إلى باريس دون أن يحسها سوء . وافتتن الباريسيون بمنظر الملك الصغير ، البالغ من العمر آنئذ أربعة عشر ربيعا ، وسحرهم حسنه وشجاعته ، ورددت الشوارع هتاف الجماهير « يحمى الملك » وما لبث هياج الشعب أن هدا بين عشية وضحاها ، وأعيد النظام لا بفضل القوة ، بل بهالة الملكية ، وهيبة الشرعية ، وإيمان الشعب بالإيمان نصف اللاشعوري — بحق الملوك الإلهي . وماوا في ٦ فبراير ١٦٥٣ حتى استشعر لويس في نفسه من القوة ما شجعه على دعوة مازاران للعودة . وتثبيتته مرة أخرى في جميع سلطاته السابقة . ووضعت حرب الفروند الثانية أوزارها .

وفر كوندية إلى بوردو ، وخضع البرلمان في بطة ووقار ، واعتكف

النبلاء المتمردون في قصورهم الريفية . والفست مدام لونيغفيل العزاء بين راهبات البور - رويال بعد أن ذهب رواء حسنهما . ونفيت الجرائد مدموازيل إلى إحدى ضياعها ، حيث راحت تأكل قلبها حسرة وهي تذكر ملاحظة نسبت إلى مازاران ، قال فيها إن إطلاقها المدافع من الباستيل قتل زوجها - أي قضى على أملها في الزواج من الملك . وفي عامها الأربعين أحببت أنطوان كومون ، كونت لوزان ، وكان أصغر وأقصر منها كثيرا ، ولكن الملك رفض أن يأذن لهذا الزواج ، فلما عزم عليه برغم هذا الحظر سجنه لويس عشر سنوات ( ١٦٧٠ - ٨٠ ) . وظلت المدموازيل وفية له في شجاعة طوال سجنه ، ولما أفرج عنه تزوجته ، وعاشت معه عيشة مضطربة صاخبة حتى ماتت ( ١٦٩٣ ) . وأماريتز فقد قبض عليه ، ولكنه فر ، ثم زال العفو ، وخدم الملك مبعوثا دبلوماسيا في روما ، واعتكف في ركن باللورين ، وألف مذكرات تمتاز بتحليلها الموضوعي للخاق ، بما في ذلك خلقه هو يقول فيها :

« لم أَلعب دور الناظر نفسه للدين ، لأنني لم استطع أن أعرف على وجه اليقين كم من الزمن سأستطيع لعب دور للزيف ، وحين أعجزني العيش دون صلة غرامية محرمة ، اتصلت بـ مدام بومرو ، وكانت شابة لعوبا ، لها العدد الكبير من العشاق ، لا في بيتها فحسب ، بل في مكان عبادتها أيضا ، بحيث كانت صلوات غيري للكشوفة معها ستارا لصلاتي بها . . . واستقر رأيي على التماهي في خطاياي . . . ولكني كنت مصمما كل التصميم على القيام بواجبات مهنتي ( الدينية ) بأمانة ، وعلى بذل قصاراى في تخليص نفوس غيري وإن لم أكثر خلاص نفسي » ( ١١ ) .

أما مازاران فقد هبط على قدميه دون أن يضار ، وماد سيداً على للملكة ، وخادما لملك ما زال راغبا في التعلم . وقد روع فرنسا أن يبرم الوزير معاهدة مع إنجلترا البروتستنتية وكرومويل قاتل ملكها ( ١٦٥٧ ) ، الذي أمان على محاربة كوندبه والأسبان بـ رسالة ستة آلاف جندي ،

وأحرز الفرنسيون والإنجليز معا النصر في « معركة الكشبان » ( ١٣ يونيو ١٦٥٨ ) . وبعد عشرة أيام سلم الأسبان دنكرك ، فدخلها لويس في احتفال رسمي مهيب ، ثم نزل عنها لانتجزة طبقا للمعاهدة . وأبرمت أسبانيا مع فرنسا صلح البرانس ( ٧ نوفمبر ١٦٥٩ ) بعد أن استنزف القتال مالها ورجالها ، فأنتهت بذلك ثلاثة وعشرين عاما من حرب واحدة ، وأرست أساس حرب أخرى . ونزلت أسبانيا عن روسيون ، وأرتوا ، وجرافلين ، وتيونفيل ، لفرنسا ، وتخلت عن جميع مطالبها في الالزاس ، وزوج فيليب الرابع ابنته ماريا تريزا للويس الرابع عشر ، بشروط ورطت فيما بعد غرب أوروبا كله في حرب الوراثة الأسبانية . ذلك أنه تعهد بأن يبعث إليها ، خلال ثمانية عشر شهرا ، بصداد قدره ٥٠٠.٠٠٠ كراون ، ولكنه انتزع منها ومن لويس تنازلا عن حقوقها في ولاية العرش الأسباني . وأصر ملك أسبانيا على أن يكون العفو عن كوندية شرطا من شروط الصلح ، فلم يكتف لويس بالصفح عن الأمير العنيف ، بل رد إليه كل ألقابه وأملاكه ، ورحب به في بلاطه .

كان صلح البرانس الدليل على إنجاز برنامج ريشليو — وخلاصته كسر شوكة الهابسبورج ، وحلول فرنسا محل أسبانيا أمة متسلطة في أوروبا . واعترف الفرنسيون بفضل مازاران في الوصول بهذه السياسة إلى ختامها الظاهر ، ومع أنه لم يظفر إلا بحب القليلين منهم ، فإنهم رأوا فيه رجلا من أكفأ الوزراء في تاريخ فرنسا . ولكن فرنسا التي سرعان ما نسيت خيانة كوندية ، لم تغتفر قط لما زاران جشعه وحرصه : ففي وسط الدفاعة التي كابدها الشعب جمع ثروة طائلة قدرها فولتير بمائتي مليون من الفرنكات ( ١٢ ) . وكان يحول المخصصات الحربية إلى خزائنه الشخصية ، ويبيع وظائف التاج لمنفعته الخاصة ، ويقرض الملك بالربا ، وقد أهدى إحدى بنات أخيه قلادة مازالت تعد من أغلى الخلى في العالم ( ١٣ ) .

ولما حضرته الوفاة أشار على لويس بأن يكون وزير نفسه الأول ، وألا يتدخل مسائل السياسة العليا لأى من مساعديه إطلاقا ( ١٤ ) وبعد موته ( ٩ مارس



( ١٦٦١ ) كشف كولبير للملك عن الخبأ الذي أخفى فيه ثروته . فصادرهما لويس ، وأتلعج بذلك صدر شعبه ، وغدا أغني ملوك زمانه . وهتف ظرفاء باريس لجينو ، طبيب مازاران ، لأنه رجل أحسن إلى الشعب كله ، وقالوا « أفسحو الطريق لنبالته . إنه الطبيب الطيب الذي قتل السكردينال » ( ٢٥ ) .

## ٢ - الملك

لم يكن أشهر ملوك فرنسا فرنسياً إلا برع دمه . فقد كان نصف أسباني من ناحية أمه آن الخمساوية ، ورابع إيطالي من ناحية جدته ماري مديتشي . وقد أولع بالفن والحب الإيطاليين دون تردد وبعد ذلك بالتدين والكبرياء الأسبانيين ، وفي أخريات عمره كان أكثر شبهاً بجده لأمه ، فيليب الثالث ملك أسبانيا ، منه بجده لأبيه ، هنري الرابع ملك فرنسا .

سمى عند ولادته ( ٥ سبتمبر ١٦٣٨ ) ديودونيه Diudonné أي « عطية الله » ، ولعل الفرنسيين لم يستطيعوا أن يصدقوا أن لويس الثالث عشر قد حقق أبوته فعلاً دون عون من الله . وقد أضر بنمو الصبي وتطوره ما كان بين أبويه من تنافر ، وموت أبيه الباكر ، واضطرابات الفروند الطويلة الأمد . وكثيراً ما لقي الإهمال وسط نضال آن ومازاران المرة بعد المرة للاحتفاظ بالسلطة . وفي تلك الأيام التي لم تكن ظروفها مواتية لأي ملك ، ذاق مرارة الفقر أحياناً في الملابس الرث والطعام القليل . ويبدو أن أحداً لم يهتم بتعليمه ، وحين تولاه المدرسون الخصوصيون كان همهم الأكبر أن يقنعوه بأن فرنسا بأسرها ميراثه الذي سيحكمه بالحق الإلهي ، ولا يسأل عنه إلا أمام الله . ووجدت أمه الوقت لتدريبه على العقيدة والعبادة الكاثوليكييتين ، اللتين سترتدان إليه في قوة بعد أن أنهكت فيه الشهوات وتضائل سناء المجد . ويؤكد لنا سان - سيمون أن لويس « لم يكده يعلمه أحد القراءة أو الكتابة » وأنه ظل جاهلاً كل

الجهل حتى أنه لم يلم بأشهر حقائق التاريخ وغيرها من الحقائق . ولكن لعل هذه إحدى مبالغات الدوق المفرطة . وما من شك في أن لويس لم يظهر ميلا يذكر للكتب ، وإن كانت رعايته للمؤلفين وصداقته لموليير وبوالووراسين تشير إلى تقدير صادق للأدب . وقد أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يصل إلى دراسة التاريخ إلا متأخراً جداً ، وكتب يقول « إن الإلمام بالأحداث العظيمة التي وقعت في العالم على مدى القرون الكثيرة ، والتي هضمتها العقول القوية الشبيطة ، هذا الإلمام يفيد في دعم الحجة في جميع المداولات الهامة » (١٧) وقد جهدت أمه لترى فيه الإحساس بالشرف والشهامة لا مجرد آداب السلوك ، وبقي الكثير من هذا فيه وإن لوثته إرادة طائشة للقوة . كان فتي جادا ممتثلا ، يبدو أطيّب من أن يصلح للحكم ، ولكن مازاران صرح بأن في لويس « من الأصالة والكفاءة ما يصنع أربعة ملوك ورجلا شريفا » (١٨) .

في ٧ سبتمبر ١٦٥١ أطل جون إيفلين من مسكن توماس هوبز في باريس على الموكب الذي رافق الملك الصبي ، البالغ الثالثة عشرة ، متجها إلى الحفل المقام بمناسبة إنهاء سن قصوره . وقال هذا الإنجليزى في وصفه « مضى أبولو الصغير هذا أكثر الطريق وقبعته في يده يحى السيدات والمعجبات اللاتي ازدانت النوافذ بهائن وملاّ الجو هتافهن « يحى الملك » (١٩) وكان في إمكان لويس يومئذ أن يتسلم زمام الأمر كله من مازاران ، لولا أنه كان يحترم ذلك الدهاء المذهب الذي طبع عليه وزيره ، نسمح له بأن يحتفظ بالزمام تسع سنوات أخرى . ومع ذلك فقد اعترف بعد موت الكردينال قائلا « لست أدري ماذا كنت صانعا لو عمر طويلا » (٢٠) فلما مات مازاران أقبل رؤساء الإدارات على لويس سائلين إلى من يأتون ليتلقوا تعليماتهم ، فأجاب ببساطة قاطعة « إلى » (٢١) ومنذ ذلك التاريخ (٩ مارس ١٦٦١) حتى أول سبتمبر ١٧١٥ تولى حكم فرنسا بنفسه . وبكى الشعب فرحا إذ أصبح له ملك فعال لأول مرة في نصف قرن .

ولقد تهللوا فرحاً وتبها بحسنه . قال جان دلافونتين حين رآه في ١٦٦٠ ، ولم يكن بالرجل الذى يخدع بسهولة ، « أتظنون أن فى الدنيا ملوكاً كثيرين وهبوا هذا الوجه المليح وهذا السميت الرائع ؟ لا أظن ، ويخيل إلى حين أراه أننى أرى العظمة مجسمة » (٢٢) لم تكن قامته تزيد على خمسة أقدام وخمس بوصات ، ولكن السلطة جعلته يبدو أطول . وإذا كان قوى البدن ، متين البنية ، فارساً وراقصاً ماهراً ، ومثاقفاً بارعاً وراويّة خلاب العبارة . فقد ملك جماع الصفات التى تفتن المرأة وافتتح مغاليق قلبها . كتب سان - سيمون وكان يكرهه ، « لو أنه كان فرداً عادياً لا أكثر لجلب نفس الدمار بغرامياته » (٢٣) . على أن هذا الدوق ( الذى لم يستطع قط أن يغفر للويس حرمانه الأدواق من سلطة الحكم ) اعترف بكياسته وآدابه الملوكية التى أصبحت الآن مدرسة للبلاط ، وفرنسا عن طريق البلاط ، ولأوروبا عن طريق فرنسا . قال :

« لم يعط أحد قط بأرق وألطف مما أعطى لويس الرابع عشر ، ولا ضاعف أحد بهذه الطريقة من قيمة عطائه كما ضاعف لويس . . . لم تكن الألفاظ الجافية لتند عنه قط ، فإذا اضطر أن يلوم ، أو يوبخ ، أو يهين ، وهو أمر نادر ، فى لطف دائماً تقريباً ، لا فى غضب أو صرامة قط . . . إلا فى مناسبة واحدة . وما عرف الناس رجلاً طبع على مثل هذا الأدب الجم . . . أما مع النساء فلم يكن لتأدبه نظير . ما مر بامرأة مهما قل شأنها إلا رفع لها قبعته ، حتى الخادومات اللاتى يعرف أنهن خادومات . فإذا خاطب سيدات المجتمع لم يغط رأسه إلا بعد أن يفارقهن » (٢٤) .

على أن ذهنه لم يرق إلى مستوى سلوكه . لقد كاد يضارع نابليون فى حكمه الثاقب على الرجال ، ولكنه قصر كثيراً دون ذكاء فيهر الفلسفى ، أو سياسة أو غسطنس الإنسانية البعيدة النظر . وفى هذا يقول سانت - بوف « لم يؤت أكثر من الإدراك السليم ، ولكن حفظه منه كان موفوراً » (٢٥) ولعله خير من الذكاء . ولنستمع إلى سان - سيمون ثانية « كان بطبعه حصيفاً ،

معتدلاً ، حذراً ، سيداً على حركاته ولسانه » (٢٦). ويقول مونتسكيو « كانت نفسه أعظم من ذهنه » (٢٧) وقد وهب قوة انتباه وإرادة عواضت إبان عزه عن قصور أفكاره . أما علما بعيوبه فيأتينا من فترة حكمه الثانية على الأخص ( ١٦٨٣ — ١٧١٥ ) ، حين ضيق التعصب أفقه ، وأفسده النجاح والخلق . هنا نجد مغروراً غرور الممثلين متكبرا كبرياء الآثار الضخمة . وإن كان بعض كبريائه ربما أضناه عليه الرسامون ممن صوروه ، وبعضه راجعاً إلى فكرته عن منصبه . فإذا كان قد مثل دور « الملك العظيم » ليعجل عذره أنه خال هذا ضرورة لا يستغني عنها أسلوب الحكم ودعم النظام ، إذ لا بد من وجود مركز للسلطة ، ولا بد من أن تدعم الأبهة والمراسم هذه السلطة . قال لولده مرة « يبدو لي أن من واجبنا أن نكون متواضعين من أجل ذواتنا ، متكبرين من أجل المركز الذي نشغله » (٢٨) ولكنه قل أن تواضع — ربما مرة واحدة ، حين لم يجد غضاضة في أن يصحح بوالوله غلطه في أمر يتصل بالذوق الأدبي . وتقرأ مذكراته فتراه يتأمل فضائله في اتزان كثير . وعنده أن خير سجايه حبه للمجد . قال إنه « يؤثر الصيت البعيد على كل الأشياء ، بل على الحياة نفسها » (٢٩) ولكن ولعه هذا بالمجد خدم أعداءه لأنه غالى فيه . كتب يقول « أن تهمسنا للمجد la gloire ليس شهوة من هذه الشهوات الهزيلة التي تنطفيء بمجرد تملك النفس لما تشتهي ، فإن عطايه التي لا تنال إلا بالجهد لا تورث السأم أبداً ، ومن كف عن اشتهاؤ المزبد منها لا يستحق كل ما ناله من عطاء » (٣٠) .

يبد أنه أوتي حظاً من الفضائل الجميلة ، إلى أن جر ولعه بالعظمة والمجد الدمار على خلقه وعلى بلده . فلقد أعجب بلاطه بعداته ، وتسامحه ، وكرمه ، وضبطه لنفسه . قالت مدام مونتفيل التي كانت تراه كل يوم تقريباً خلال هذه الفترة « في هذا يجب أن تعترف كل اليهود الملكية السابقة . . لهذا العهد بتقدمه عليها في استهلاله السعيد » (٣١) وقد لاحظ القريبون منه ذلك الوفاء الذي كان يحمله على زيارة جناح أمه مراراً كل يوم على كثرة

شواغله ، ثم شهدوا بعد ذلك حنانه على أبنائه ، وحرصه على صحتهم وتربيتهم — أياً كانت أمهم . كان أكثر عطفاً على الأفراد منه على الأمم ، في وسعه أن يشن الحرب على الهولنديين الذين لم يؤذوه ، وأن يأمر بتدمير البالاتينات ، ولكنه يحزن لموت رويتر أمير البحر الهولندي ، الذي أوقع الهزائم بالبحرية الفرنسية ، وقد كلفته الشفقة على الملكة المخلوعة ، زوج بيمس الثاني ، وعلى ولده ، حرباً كانت أسوأ حروبه .

ويلوح أنه آمن حقيقة بأنه مبعوث العناية لحكم فرنسا ، ولحكمها بسلطان مطلق . وكان في استطاعته بالطبع أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس سنداً لهدفه هذا ، وأسعد بوسويه أن يريه أن العهدين القديم والجديد يدعمان حق الملوك الإلهي . وقد أخبر ولده في مذكراته (\*) التي أعدها لإرشاده أن « الله يجعل من الملوك الحفاظ الوحيدين للصالح العام » وأنهم « خلفاء الله على هذه الأرض » . ولا بد لهم ، لكي يمارسوا وظائفهم المقدسة على الوجه الصحيح ، من سلطة لا حدود لها ، ومن ثم وجب أن يكون لهم « الحرية الكاملة المطلقة في التصرف في جميع الممتلكات سواء ممتلكات رجال الدين أو العلمانيين » (٣٢) . أنه لم يقل ( أنا الدولة ) *L'état, c'est moi* ولكنه آمن بهذا القول ببساطة مطلقة . أما الشعب فيلوح أنه لم تسوّه هذه الدعاوى ، التي حببها هنري الرابع إليه انتقاضاً على الفوضى الاجتماعية ، لا بل إن أفرادهم تطلعوا إلى هذا الملك الفتى في ولاء ديني ، واستشعروا عزة الجماعة في أجهته وجبروته ، فما من بديل عرفوه لهما غير ما رافق الاقطاع من تفتت وخطرة . وبعد طغيان ريشليو ، وفوضى الفروند ، واختلاسات

(\*) واصل لويس على فترات كتابة « ملاحظات يستعان بها في المذكرات » التي بدأها في ١٦٦١ و حتى ١٦٧٩ حين أضاف إليها « تأملات في حرفة الملك » وفيها الكثير مما يتسم بسلامة الإدراك على الرغم من إيمانها بنظرية الحكم المطلق ، وقد تبدو أمامها بحوث الفلاسفة في هذا الموضوع قاصرة . والظاهر أنه أملاها على سكرتيرين كسوها ثوباً أدبياً قشيباً . وهي لا تمل ببداية بالقراءة عن أي أدب في العصر الذي نحن بصددده .

مازاران ، رحبت الطبقتان الوسطى والدنيا بالسلطة والزعامة المركزيتين في حاكم « شرعى » بدا لهم واعدأ بالنظام ، والأمن ، والسلام .

وقد أفصح عن مذهبه في الحكم المطلق حين أراد برلمان باريس عام ١٦٦٥ أن يناقش بعض مراسيمه . ركب من فالنسين في ثياب الصيد ، ودخل قاعة البرلمان في حدائه العالى وسوطه بيده ، ثم قال : « إن الكوارث التى جرتها مجالسكم معروفة مشهورة . لذلك آمركم بأن تفضوا هذا المجلس الذى اجتمع ليناقش مراسيمى . سيدى الرئيس الأول ، إني أمنعك من السماح بهذه الاجتماعات ، وأمنع أى فرد منكم بالمطالبة بها . (٣٣) » ثم نقات وظيفة البرلمان بوصفه محكمة عليا إلى « مجلس خاص » ملكى ، خاضع للملك على الدوام .

وأدخل لويس على مركز النبلاء فى الحكومة تغييرا جذريا . لقد زودوا البلاط والجيش بأبهة المظهر وبريقه ، ولكن ندر أن شغلوا الوظائف الإدارية . ذلك أن كبار النبلاء دعوا إلى مغادرة ضياعهم ، معظم العام والإقامة فى البلاط - أكثرهم فى « أوتيلاتهم » أو قصورهم الباريسية ، وعظماؤهم فى القصور الملكية ضيوفا على الملك ، ومن هنا هذه الأجنحة الشاسعة التى خصصت لهم فى فرساي . فإذا رفضوا قبول الدعوة فإيس لهم أن يتوقعوا أى فضل يؤثرهم به الملك . وأعنى النبلاء من الضرائب ، ولكن فرض عليهم فى الأزمات أن يهرعوا إلى قصورهم الريفية ، وينظموا ويجهزوا أتباعهم ، ويقودوهم للاضمام إلى الجيش . وقد استطابوا الحرب تخففاً من سأم الحياة فى البلاط . حقا كانوا طاملين كثيرى النفقة ، ولكن بسالتهم فى ساحة القتال أصبحت فرضا ملزما لطبقتهم . ومنعهم العرف والإتياسكيت من الاشتغال بالتجارة أو بشئون المال - وأن جبوا الرسوم على التجارة المارة بأملأكمهم ، واقترضوا فى غير تخرج من أصحاب المصارف . وكانت ضياعهم يزرعها محاصصون ( métayers ) يدفعون لهم جزءا من المحصول ويؤدون لهم مختلف الخدمات والمسكوس الإقطاعية . ويفترض

في السيد الاقطاعي أن يحافظ في اقليمه على النظام والعدالة ويرعى أعمال البر . وكان في بعض الأقاليم يؤدي هذه المهمة أداء لا بأس به ، فيكون محل احترام الفلاحين ، وفي بعضها الآخر لا يبذل لقاء امتيازاته إلا عطاء تافها ، فضلا عن أن فترات غيابه الطويلة في البلاط كانت تقوض تلك الألفة للمهذبة بين السيد وتابعه . وقد حظر لويس الحروب الخاصة التي كانت تنشب بين الأحزاب الإقطاعية ، وأنهى — إلى أجل — عادة المبارزة التي انتemشت خلال حرب الفروند ، وتفاقم خطرها لأن شهود المبارزين ، لا المبارزين الأصليين فحسب ، كانوا يقتتلون ، ويقتسلون ، ويحرمون مارس إله الحرب من فرائسه . وقد أحصى جرامون عدد من أودت للمبارزات بهم في تسع سنوات ( ١٦٤٣-٥٢ ) فكانوا تسعمائة (٣٤) . ولعل احد أسباب الحروب المتكررة تلك الرغبة في إيجاد منفذ لولع الفرنسيين بالقتال ، ولكبرياتهم داخل وطنهم ، على حساب الأجانب .

أما الإدارة الفعلية لشئون الحكومة فقد آثر لويس لها كبار رجال الطبقة الوسطى ممن أثبتوا كفايتهم بالارتقاء إلى مراكمهم ومن كان في وسعه أن يركن إليهم في دعم سلطة الملك المطلقة (٣٥) . واختصت ثلاثة مجالس كبرى بتصرف شئون الحكم ، يجتمع كل منها برئاسة الملك ، ويعمل في إعداد المعلومات والتوصيات التي يبني عليها الملك قراراته . فكان « مجلس الدولة » المؤلف من أربعة رجال أو خمسة يجتمع ثلاث مرات في الأسبوع ليعالج أهم مسائل العمل أو السياسة ، وكان « مجلس الرسائل » يصرف شئون الأقاليم ، و « مجلس المالية » ينظر في الضرائب والإيراد والمصرف . واضطلعت مجالس اضافية أخرى بشئون الحرب ، والتجارة ، والدين ، وانتزع الحكم المحلي من أيدي النبلاء المستهترين ونيط به النظار الملكيون ، وسخرت الانتخابات البلدية اتأني بعمد يرضى عنهم الملك . ولو أننا سئلنا اليوم رأينا في حكومة شديدة التركيز كهذه لقلنا إنها ظالمة ، وكذلك كانت ، ولكن أغلب الظن أنها أقل ظلما مما سبقها من حكم الأوليغاركيات البلدية أو النبلاء

الإقطاعيين . وآية ذلك أنه حين دخلت لجنة ملكية إقليم أوفرن ( ١٦٦٥ )  
للتحقيق في استغلال السادة لسلطتهم الإقطاعية في الإقليم ، رحب الناس  
بهذا الاستجواب العظيم Lesgrands Jours d, Auvergne محرراً لهم من  
الظلم ، وأثلج صدورهم أن يروا « إقطاعيا كبيرا » يضرب عنقه لأنه قتل  
فلاحا ، وأشرافا ، أقل منه شأنًا يلقون جزاءهم على ما اقترفوا من أفعال  
محظورة أو قاسية (٣٦) . وبمثل هذه الاجراءات حل القانون الملكي محل  
القانون الإقطاعي .

ثم نقحت القوانين لتبلغ من النظام والمطلق قصارى ما يتفق  
والارستقراطية ، فحكم « قانون لويس » الذي تكون على هذا النحو  
( ١٦٦٧ — ١٦٧٣ ) فرنسا إلى أن جاء « قانون نابليون » ( ١٨٠٤ — ١٨١٠ )  
وكان القانون الجديد أرقى من كل قانون سبقه منذ عهد جستنيان ،  
وقد « أسهم بقوة في تقدم الحضارة الفرنسية (٣٧) » وأنشئ جهاز شرطة  
ليكبح إجرام باريس وقذارتها . فترى مارك رينيه ، مركز فوابيه  
دارجنسون ، الذي خدم الدولة إحدى وعشرين سنة قائدا طامعا للشرطة ،  
يترك سجلا مشرفا من الأداء العادل الدؤوب لوظيفة عسيرة . وبإشرافه  
رصفت شوارع باريس ، ونظفت تنظيفا معتدلا ، وأضيفت بخمسة آلاف مصباح ،  
وأمنت تأمينا لأبأس به للمواطنين ، وأصبحت باريس الآن في هذا كله  
متقدمة جدا على أى مدينة أخرى في أوربا . ولكن القانون أباح الكثير  
من أعمال الحمجية والطغيان . ونشرت شبكة من المخابرين في أرجاء فرنسا ،  
يتجسسون على الكلام كما يتجسسون على الأفعال . وأبيع اعتقال الأشخاص  
اعتقالا تعسفيا بمقتضى الأوامر السرية Lettres de cachet التى يصدرها  
الملك أو وزراؤه ، وسجنهم سنين دون محاكمة ، ودون أن يحاطوا علما  
بجريرتهم . وحظر القانون الاتهامات بالسحر ، وأبطل حكم الإعدام عقابا  
للتجديف ، ولكنه احتفظ باستخدام التعذيب أداة لاتزاع الاعترافات  
من المتهمين . وأجاز القانون عقاب عدد كبير من الذنوب بالحكم



على مرتكبها بتشغيلهم في سفن أسرى الحرب - وكانت سفنا كبيرة وطبيئة يسيرها بالمجاذيف المذنبون موثقين بالسلاسل إلى المقاعد . وخصص ستة رجال لكل مجذاف طوله خمسة عشر قدما . وكانت صفارة المشرف تلزمهم الاحتفاظ بالسرعة التي يحددها ، وأجسادهم عارية إلا من وزرة ، وشعورهم ولحاهم وحواجبهم مخلوقة ، وأحكامهم طويلة الأمد ، ومن الجائز مدها تعسفا إذا لم يذعنوا للأوامر إذعانا تاما ، فيفرض عليهم رقهم أعواما بعد أن يقضوا مدة عقوبتهم . ولم يخف عنهم عذابهم إلا ما سمح لهم به إذا بلغوا الميناء من بيع التوافه أو استجداء الصدقات وهم يسرون أزواجاً في أغلالهم .

أما لويس نفسه فوضع فوق القانون ، حراً في أن يأمر بأي عقوبة لأي ذنب . ففي ١٦٧٤ قضى بأن تجتمع أنوف جميع البغايا وتصلم آذانهن إذا ضبطن مع الجنود في نطاق خمسة أميال من فرساي . وكثيراً ما كان رحيما ولكنه كثيراً ما كان صارماً قال لولده : « إن مقدار محدوداً من الصرامة كان أعظم ما استطعته من ترفق بشعبي ؛ ولو أنني اتبعت سياسة عكس هذه السياسة لجرت شروراً متعاقبة لا نهاية لها . ذلك أنه ما إن يضعف الملك في إنفاذ ما أمر به ، حتى ينهار السلطان وينهار معه السلام العام . . . فيقع كل العبء على كواهل الطبقات الدنيا ، التي يظلمها عندئذ ألوف من صغار الطغاة بدلا من الملك الشرعي (٣٩) .

وكان دائم العكوف على ما سماه « حرفة الملك » le métier de roi . يطلب إلى وزرائه أن يوافقوه بالتقارير الكثيرة المفصلة ، ولا يدانيه رجل في مملكته اطلاعا على أحوالها . ولم يسؤه أن يشير عليه وزراؤه بما يناقض آراءه ، وقد نزل أحيانا على رأي مستشاريه . ثم أنه احتفظ بأوثق العلاقات الودية مع مساعديه ، شريطة ألا يغيب عنهم أنه الملك - قال مرة لفوبان : « ثابر على أن تكتب إلى بكل ما يعين لك ولا تفتر لك همة ولو لم أفعل دائما ما تشير به » (٤٠) . وكانت عينه على كل شيء - الجيش والبحرية ، والمحاكم ، وبيته ، والمالية ، والكنيسة ، والدراما ، والأدب ، والفنون ، ومع أنه في

النصف الأول من حكمه كان يسنده وزراء أكفاء مخلصون ، فإن السياسات والقرارات الخطيرة ، والجمع بين شتى نواحي الحكم المعقد في وحدة متسقة — كل هذا كان من صنعه هو . لقد كان ملكا كل ساعة من ساعات يومه .

ولقد كلفه هذا من أمره عنتاً . كان هناك من يقوم على خدمته في كل خطوة يخطوها ، ولكنه دفع ثمن هذا برقابة الغسيرة في كل حركة وسكينة فكانت مبارحته لفراشه وذهابه إليه ( إذا كان منفردا ) بعض وظائف الدولة . فإذا تم هذا الاستيقاظ الرسمي ( lever ) استمع إلى القداس ثم أفطر ، ثم مضى إلى قاعة المداولة ، وخرج منها حوالى الواحدة ، فتناول وجبة كبيرة ، يأكلها عادة على مائدة صغيرة لشخص واحد ، تحيط به بطائنه وخدمته . فإذا فرغ من طعامه تمشى عادة في الحديقة ، أو خرج للصيد ، يرافقه أترأؤه في ذلك اليوم . فإذا أنفق ثلاث ساعات أو أربعاً في اجتماعات مجلسه ، ثم لحق بمحاشيته في ملاهيهم من الساعة إلى العاشرة — حيث الموسيقى ، ولعب الورق ، والبليارد ، والغزل ، والرقص ، والاستقبالات ، وحفلات الرقص ، وفي فترات من هذا الروتين اليومي « يتحدث إليه من شاء » (٤١) وإن لم يجرؤ على هذا إلا القليلون . « لقد أعطيت رعاياي كلهم ، دون تفرقة ، حرية مخاطبتي في جميع الساعات ، سواء بأشخاصهم أو بملتمساتهم » (٤٢) وحوالى الساعة العاشرة مساء ، كان الملك يتناول العشاء رسمياً مع أبنائه وحفدته ، وأحياناً مع الملكة .

ولقد كان من أسباب التهذيب والثقيف لفرنسا أن نلاحظ كيف يفرغ ملكها لمهام الحكم مواظباً عليها ساعات سبعاً أو ثمانى طوال ستة أيام في الأسبوع . كتب السفير الهولندي يقول : ( لا يصدق المرء أى سرعة ، وأى وضوح ، أى قدرة على التمييز ، وأى ذكاء يصرّف به هذا الملك الشاب أعماله ويفرغ منها ، وذلك في تلطف كثير مع جميع من يتعامل معهم ، وفي طول أناة وهو يستمع إلى ما يريد مخاطبه أن يقول ، الأمر الذى حجب فيه كل القلوب ) (٤٣) ولقد ثابر على هذا التفانى في تصريف شئون

الحكم طوال أربعة وخمسين عاما ، لا يكف عنه حتى وهو يلزم فراش المرض . وكان يحضر المجالس والمؤتمرات وقد أعد نفسه لها إعدادا وافيا . « فإذا كان ليحسم في أمر عفو الساعة ، ولا دون مشورة » (٤٥) تم أنه يختار مساعديه بفطنة عجيبة ، ولقد ورث بعضهم - ككولبير - من مازاران ، ولكنه كان له من سلامة الذوق ما جعله يحتفظ بهم ، حتى موتهم عادة . وكان يبذل لهم كل لطف ومجاملة ، وكل ثقة معقولة ، ثم لا تغفل عينه عن مراقبتهم . كنت بعد أن اختاروزرائي لا يفوتني أن أدخل مكاتبهم على غير توقع منهم . . وهكذا أحطت بالآلاف الأشياء التي أفادتني في تحديد طريقتي (٤٦) »

وحكمت فرنسا ، في أيام شمسها الصاعدة تلك ، خيرا مما حكمت في أي عهد مضى للميرغم تركيز السلطة والإدارة ، أو بفضل هذا التركيز ، وبرغم تحكم يد واحدة في شحيط الحكم كلها ، أو بفضل هذا التحكم .

### ٣ - نيقولا فوكيه : ١٦١٥ - ٨٠

كان هم الملك الأول أن يعيد تنظيم مالية الدولة بعد أن استنزفتها الاختلاسات في عهد مازاران . وكان نيقولا فوكيه ، الذي شغل منصب « ناظر المالية » منذ ١٦٥٣ ، يدير شئون الضرائب والمصروفات بأصابع حريصة ويد قديرة . فقد قلل من عوائق التجارة الداخلية ، وتشطت عمو التجارة الفرنسية فيما وراء البحار ، واقتسم في احساس بالواجب غنائم منصبه مع ملتزمي الضرائب ومع مازاران . وكان هؤلاء الملتزمون العموميون من كبار الرأسماليين الذين أقرضوا الدولة مبالغ كبيرة لقاء تخويلهم حق جباية الضرائب نظير أدائهم مبلغا محددًا . وقد جبوها بكثير من الجشع الفعّال الذي جعلهم أبغض الأشخاص إلى الناس في المملكة ، وقد أعدم من أمثالهم أربعة وعشرون ملتزما خلال الثورة الفرنسية . وجمع فوكيه بالتواطؤ مع الملتزمين العموميين أضخم ثروة اقتناها فرد في جيله .

وفي سنة ١٦٥٧ كلف المماري لوى لفر ، والمصور شارل لبرون ،

ورسام المناظر الطبيعية أندريه لوتز ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الربى الفخم المتراعى الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتمائيل . وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل (٤٠) ، وكلف ثمانية عشر مليون من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتمائيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلويح والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القامات الأنيقة كانت تتسلل إليها نساء من أنبل الأسر ليؤنسهن بثمرن غال (٤١) . وبمثل هذا الذوق ، ولكن بثمرن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورنيلي ، ومولير ، ولافونتين ، ليجعل بهم صالونه .

ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته القانون في مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه في فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف في ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب . ومثل مولير في حدائق القصر ملهاته ( Los Fâcheux ) ( الثقلاء ) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٠٠٠ جنيهه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فرق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار ( Quo non ascendam ? ) ( إلام لا يجوز لي أن أرقى ؟ ) — الذي شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التي رسمها لبرون تشتمل صورة للأنسة دلافالير ، وكانت إذ ذاك محظية للملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنعتة أمته بأن في ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تسكثرت الأدلة على اختلاساته . وفي سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه ( وهذا القائد

ورسام المناظر الطبيعية « اندريه لنوتر » ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويزخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الربى الفخم للتراعى الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتمائيل . وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل ، وكلف ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتمائيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلمود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القاعات الأنيقة « كانت تتسلل إليها نساء من أبيل الأسر ليؤنسهن بثمرن غال » . ويمثل هذا الذوق ، ولكن بثمرن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كوربي ، ومولير ، ولا فونتين ، ليجعل بهم صالونه . ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الظنون في مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه في فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف في ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب ، ومثل مولير في حدائق القصر ملهاته « Les Facheux » ( الثقلاء ) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٠٠٠ جنيهه وكلفته إلى ذلك حرите . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار « Quo non ascendam ? » ( إلام لا يجوز لي أن أرقى ؟ ) — الذي شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التي رسمها لبرون تشمل صورة للأنسة دلا فالير ، وكانت إذ ذاك محظية للملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنعت أمه بأن في ذلك إفساداً لسهرة رائعة .

وتربص للملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفي ١٠ سبتمبر أمر قائد مهماته حملة البنادق بالقبض عليه ( وهذا القائد « mousquetaire » هو شارل دباتز ، السيد دارقنيان ، بطل قصة ديماس الأب ) . وأصبحت

٣ — قصة المحاربة

المحاكمة التي اتصلت ثلاث سنين أشهر القضايا في تاريخ العهد . وكأخت مدام  
دسفينيه ، ولافونتين ، وغيرهما من أصدقاء فوكيه ، وتوسلوا إلى الملك  
ليبري ساحت ، غير أن الأوراق التي عثر عليها في قصره الرئفي أدانته .  
فحكمت عليه المحكمة بالنفي ومصادرة أملاكه ، وعُبدل الملك الحكم إلى  
السجن مدى الحياة . وظل الوزير الذي كان من قبل رجلا مرحا ، ستة عشر  
عاما ، يذوى في سجنه بقلعة بنيرول بييدمونت ، ولا يسرى عنه إلا صحبة  
زوجه الوفية . لقد كان حكما قاسيا ، ولكنه قلم أظفار الفساد السياسي ،  
وأبذر الناس بأن الاستيلاء على الأموال العامة للمتعة الخاصة امتياز  
لا يختص به غير الملك .

#### ٤ - كولبير يعيد بناء فرنسا

كتب لويس يقول : « لقد أشركت كولبير .. مفتشا مع فوكيه لكي  
أراقبه .. وهو رجل منحه ما استطعت من ثقة ، لأنني كنت عليما بذكائه  
وجده وأمانته (٥٠) » ، وظن أصحاب فوكيه أن كولبير تعقبه مدفوعا بالرغبة  
في الانتقام منه ، ولعل كولبير استشعر شيئا من الحسد للرجل ، ولكن  
فرنسا ذلك العهد لم تنجب ضربا لكولبير في تفانيه الدؤوب في خدمة  
الصالح العام . روى أن مازاران قال للملك وهو على فراش الموت « مولاي ،  
إنى مدين لك بكل شيء ، ولكنى أدفع ديني .. باعطائك كولبير (٥١) » .

كان جان بائيست كولبير ابن قماش في رامس ، وابن أخى تاجر غنى ،  
وإذ كان بورجوازيا بدمه ، اقتصاديا بمحيطة ، فقد درب على كراهية الفوضى  
والعجز ، وأعد بفطرته وبطول المرانة لتغيير اقتصاد فرنسا من جمود الفلاحة  
والتفتت الاقطاعى إلى نظام موحد قوميا ، يشتمل الزراعة والصناعة  
والتجارة والمال ، يواكب ملكية مرمزة ، ويهيء لها الأساس المادى  
لعظمتها وسطوتها

دخل كولبير ديوان الحرية سكرتيراً صغيراً في العشرين ( ١٦٣٩ ) وما لبث أن شق طريقه بمجده إلى حيث استرعى نظر رؤسائه ، فنقل إلى خدمة مازاران ، وأصبح المدير الناجح لثروة الكردينال . فلما سقط فوكيه ، وكل إلى كولبير مهمة خطيرة هي إعادة تنظيم مالية الأمة . وفي ١٦٦٤ أضيفت إليه مهمة الإشراف على المباني ، والمصانع الملكية ، والتجارة ، والفنون الجميلة ؛ وفي ١٦٦٥ عين مراقباً عاماً للمالية ، وفي ١٦٦٩ عين وزيراً للبحرية ، ثم وزيراً للأخوة الملكية . ولم يرق رجل آخر في عهد لويس الرابع عشر بمثل هذه السرعة ، ولا اشتغل بمثل هذه المهمة ، ولا حقق مثل ما حققه من أعمال . بيد أنه لو ثارت قاع بمحباته أقرباءه ، إذ أغدق الوظائف والأموال على الكثيرين من آل كولبير ، وغالى في مكافأة نفسه مكافأة كادت تعدل ثروته . وكان نهبا للغرور ، يتشبث بانحداره المزعوم من ملوك اسكتلنده ، وقد يعبث عبثاً منكرأ بالقوانين القائمة تعجلاً لقضاء المصالح ، ويتغلب على المعارضة بالرشا يبذلها في الجهات العليا . فلما استفحل سلطانه غدا مستبدأ ، وأحفظ عليه النبلاء إذ داس على أقدام تنزف الدم الأزرق . وقد استخدم في إعادة تشكيل الاقتصاد الفرنسى نفس الأساليب الدكتاتورية التى استخدمها ريشليو من قبل في إعادة تشكيل الدولة الفرنسية . وهكذا لم يكن خيراً من هؤلاء الكرادلة .

بدأ بفحص أساليب المالىين الذين يجبون الضرائب ، ويزودون الجيش بالسلاح ، والملابس ، والطعام ، ويقدمون القروض للاقطاعيين أو لخزانة الدولة . وكان بعض هؤلاء المصرفيين يعدلون الملك ثراء . فبلغت ثروة صموئيل برنار متلا ٣٣٠٠٠٠٠ ر. ٣٣٠٠٠٠ ر. جنيه ( ٥٢ ) . وقد أثار الكثيرون منهم حنق النبلاء بالزواج من طبقتهم ، وبشراء ألقاب الشرف أو اكتسابها ، وبالعيش فىترف لا يقوى عليه من لا يملكون غير عراقة النسب . وكانوا يتقاضون فائدة على قروضهم تصل إلى ١٨ ٪ حسب درجة الشك فى الوفاء بالقروض . وبناء على طلب كولبير شكل الملك « غرفة عدالة » للتحقيق

في جميع المخالفات المالية التي ارتكبت منذ ١٦٣٥، والتي اقترفها «أى شخص أيا كانت صفته أو حالته» (٥٣) « وطلب إلى جميع موظفي الخزانة ، وجباة الضرائب ، وأصحاب الدخول أن يقدموا سجلاتهم ويدينوا شرعية مكاسبهم ، وفرض على كل منهم أن يثبت نظافة يده وإلا كان جزاؤه المصادرة وغيرها من العقوبات . وبثت الغرفة موظفيها في طول فرنسا وعرضها وشجعت المخبرين . وأودع السجن عدة رجال أغنياء ، وأرسل البعض إلى مراكز تشغيل الأسرى ، وشنق البعض الآخر . وصعدت الطبقات العليا لهذا « الأرهاب الكولبيرى » ، أما الطبقات الدنيا فصنفت له استحقاقا . ونظم رجال المال في برجنديا حركة تمرد على الوزير ، ولكن جماهير الشعب شهروا السلاح في وجوههم ، ولقيت الحكومة عمثا في إنقاذهم من غضب الشعب . ورد للخزانة نحو ١٥٠.٠٠٠.٠٠٠ من الفرنكات ، وخفف خوف العقاب فساد المالية جيلا كاملا (٥٤) .

ومضى كولبير يعمل منجلا الوفير في خزانة الدولة . فرفت نصف الموظفين في وزارة المالية وأغلب الظن أنه هو الذى اقترح على لويس ما قام به من إلغاء جميع مناصب الخاصة الملكية التى تدفع عنها الرواتب دون أن يؤدي أصحابها واجبات . فطرد عشرون من « سكرتيرى الملك » ليكسبوا قوتهم بطريق آخر . وخفف تخفيضاً قاسياً عدد المحامين العامين ، وضباط النظام ، والمستقبلين ، وغيرهم من صغار الموظفين فى البلاط الملكى ، وأمر كل موظفى الخزانة بأن يمسكوا حسابات دقيقة واضحة ويقدموها للفحص . وحول كولبير جميع الديون الحكومية القديمة إلى ديون جديدة بسعر فائدة أقل . ثم بسط جباية الضرائب . ولما تبين صعوبة جمع المتأخرات أقنع الملك بإلغاء كل الضرائب التى لم تسدد عن المدة ١٦٤٧ — ٥٨ . ثم خفض معدل الضريبة فى ١٦٦١ ، وحزن حين اضطر إلى رفعه ثانية فى ١٦٦٧ لى يمول « حرب الأبلولة » واسراف فرساي .

يد أن أسوأ مامنى به من إخفاق كان فى احتفاظه بنظام الضرائب



القديم . وامله لوقلبه من أساسه لأحدث من الاخلال بالنظام ما يهدد تدفق إيراد الدولة . ذلك أن الدولة كانت تموّلها أساساً ضريبتان - التاي (الرهوس) والجابيل (الملح) . وكانت ضريبة التاي تقدر في أقاليم من واقع الأملاك الحقيقية ، وفي غيرها على أساس الدخل . وقد أهدى منها الأشراف والسكينة ، فوقعت كلها على كواهل « الطبقة الثالثة » - التي تنتظم باقي السكان وكان يطالب إلى كل إقليم أن يجي مبلغاً محدداً ، ويسأل كبار المواطنين عن جباية المبلغ المقرر . أما الجابيل فضريبة على الملح . فقد احتسرت الدولة بيعه ، وألزمت جميع الرعايا أن يشتروا دورياً كمية مقررة بأسعار تحددها الحكومة . وإلى هاتين الضريبتين الأساسيتين أضيفت مختلف الرسوم الصغيرة ، وعشر محصول الفلاح الذي يجب أدائه للكنيسة . على أن هذه الضريبة كانت عادة دون العشر بكثير (٥٥) ، وكانت تراعى الرأفة في جبايتها .

وكانت الزراعة أقل المرافق تأثراً باصلاحات كولبير . إذ بقيت طرق الفلاحة بدائية جداً بحيث عجزت عن إطاشة عشرين مليوناً من الأنفس يتسكثرون بغير حساب . وكان لكثير من الأزواج عشرون ولداً . ولولا الحرب ، والمجاعة ، والمرض ، وارتفاع نسبة الوفيات في الأطفال ، لتضاعف السكان مرة كل عشرين سنة (٥٦) . ومع ذلك منح كولبير الاعفاءات الضريبية للأزواج المبكر ، والمكافآت للأسر الكبيرة ( ألف جنيه فرنسي للاباء إذا كان لهم أبناء عشرة ، وألفين إذا كانوا اثني عشر ولداً (٥٧) ) . وذلك بدلا من أن يعمل على زيادة خصوبة التربة . وقد احتج على تسكثر الأديان لأنه يهدد القوى البشرية لفرنسا (٥٨) . على أن نسبة المواليد في فرنسا انخفضت رغم ذلك خلال حكم لويس ، لأن الحرب زادت الضرائب وعمقت الفقر . ولم يكن حتى في هذه الحال لم تقتل الحرب ما يكفي لحفظ التوازن بين المواليد والطعام ، وكان على الطاعون أن يتعاون مع الحرب . وكان نقص المحصول سنتين متتاليتين كفيلاً بإحداث المجاعة ، لأن وسائل النقل لم ترق بحيث تستطيع بكفاية سد العجز في إقليم من الإقليم في آخر . ولم تحمل سنة من مجاعة في

مكان ما بفرنسا (٥٩) وكانت السنوات ١٦٤٨ - ١٦٦٠ ، ٥١ - ١٦٦٠ ، ٦٢ - ١٦٩٣ ، ٩٤ - ١٧٠٩ و ١٠ ) فترات انتشر فيها الرعب من الموت جوعا ، حين بلغت نسبة الموتى من السكان في بعض الأقاليم ثلاثين في المائة . وفي ١٦٦٢ استورد الملك القمح وباعه للفقراء بثمن بخس أو وهبه لهم وأعفاهم من ثلاثة ملايين فرنك من الضرائب المستحقة (٦٠) .

وخفف التشريع بعض مآسى الريف ، إذ حظر الاستيلاء على بهائم الفلاح أو عرباته أو أدواته وفاء للدين ولو كان ديننا للتاج . وأنشئت مزارع للاستيلاء تتمهد أنراس الفلاح مجافا ، ومنع الصيادون من اختراق الحقول للبذورة بالحب ، وقدمت الإعفاءات الضريبية لمن يصلحون الأراضي المهجورة ويزرعونها . ولكن هذه الملطقات ما كانت لتنفذ إلى صميم المشكلة — مشكلة اختلال التوازن بين خصوبة الإنسان وخصوبة اترية ، والافتقار إلى الاختراعات الآلية . على أن فلاحى أوروبا على بكرة أبيهم كانوا يلقون مثل هذا العنت ، ولعل الفلاحين الفرنسيين كانوا أيسر حالا من نظرائهم فى انجلترا أو ألمانيا (٦١) .

لقد ضعى كولبير بالزراعة قربانا للصناعة ولكى يطعم سكان المدن المنكائرين ، وجيوش الملك المتعاطمة ، حظر رفع سعر الغلال بما يقتاسب وغيرها من الخامات . وكان من الأوليات عنده أن على الحكومة التى تبتغى التوة أن تملك موارد كافية وجيشا من الجند الأشداء المجهزين تجهيزا حسنا ، فطبة الفلاحين المتمرسه بالمهاق تزود البلاد بمشاة أقوياء ، والصناعة والتجارة التاميتان لا بد أن توفرأ الثروة والأدوات . ومن هنا كان هدف كولبير الذى لم ينتن دونه هو أن يشجع الصناعة ، لا بل إن التجارة يجب إخضاعها لهذا الهدف ، فلا بد أن تحمى الصناعات الوطنية بالرسوم الجمركية التى تبعد المنافسة الخطرة من خارج البلاد . وجريا على السياسات الاقتصادية التى انتهجها صلى وريشليو ، أخضع كولبير جميع الصناعات الفرنسية — إلا أقلها شأنا — لسيطرة الدولة النقاية : فكانت كل صناعة ، بطوائفها ، ومالياتها

ومعلميها ، وصبيتها ، وعملها اليوميين ، تؤلف نقابة تنظمها الحكومة من حيث المعاملات ، والأسعار ، والأجور والبيوع . وأرسي المعايير الرفيعة لكل صناعة أملا في كسب الأسواق الأجنبيةه بمجودة التصميم والصقل في المنتجات الفرنسية . وقد آمن هو ولويس بأن التذوق الأرستقراطي للاناقة يدعم الحرف السكالية ويحسنها ، ومن ثم وجد الصاغة ، والنقاشون ، وتجارو الأثاث ، ونساجو الأقمشة المرسومة ، كلهم وجدوا العمل والحافز والصيت البعيد .

وأهم كولبير مصنع جوبلان في باريس تأميا تاما ، وجعله نموذجا في الأسلوب والتنظيم . وشجع المشروعات الجديدة بالاعفاء الضريبية ، والقروض التي تمنحها الدولة ، وخفض سعر الفائدة إلى ٠.٥٪ ، وسمح باحتكار الصناعات الجديدة إلى أن ترسخ أقدامها . وقدم الحوافز لمهرة الصناع الأجانب حتى يجلبوا مهاراتهم إلى فرنسا ، فاستوطن صناع الزجاج البنادقة في سان - جوبان ، وجلب صناع المشغولات الحديدية من السويد ، وأنشأ بروتستانت هولندي في أفيل صناعة القماش الرفيع بعد أن كفل له حرية العبادة ورأس المال الذي اقترضته إياه الدولة . فما وافى عام ١٦٦٩ حتى بلغ عدد الأنوال في فرنسا ٤٤٠٠٠ ، وكان في تور وحدها ٢٠٠٠ نساج . وقد زرعت فرنسا أشجار توتها ، وكانت آشد مشهورة بأقمشتها الحريرية . وتضاعفت مصانع النسيج لتلبي حاجة جيوش لويس الرابع عشر المتزايدة . وهكذا اتسعت الصناعات الفرنسية سريعا بفضل هذه الحوافز . وأنتج الكثير منها لسوق قومية أو دولية ، وبلغ بعضها مرحلة رأسمالية في الاستثمار ، والتجهيز ، والإدارة . ومصادفت رسالة التصنيع التي آمن بها كولبير هوى في نفس الملك ، فتفقد الورش ، وسمح بأن تختم المنتجات الفاخرة بخاتم السلاح الملكي ، ورفع من قدر رجال الأعمال الاجتماعى ، وخلع ألقاب الشرف على كبار المقاولين .

وشجعت الدولة التعليم العلمى والتقنى أو وفرتة للشعب . وغدت الورش

في اللوفر ، والتويلري ، ومصانع الجوبلان ، وأحواض سفن البحرية ، مدارس  
يقتلح فيها الصبغة من الصانع . وسبق كولبير موسوعة ديدرو ، إذا احتضن  
موسوعة للفنون والحرف ، ووصفها مصور الكل الآلات المعروفة (٦٢) . ونشرت  
أكاديمية العلوم بحوثا عن الآلات والفنون الميكانيكية ، وسجلت « صحيفة  
العلماء » تقنيات صناعية جديدة . وقد أخذ العجب بيرو - وهو يبنى الواجهة  
الشرقية للوفر - حين رأى آلة ترفع كتلة من الحجر وزن ١٠٠٠٠ كيلو  
( ١٠٠ رطل ) (٦٣) . على أن كولبير طارح إدخال الآلات التي ينجم عنها  
تعطل العمال (٦٤) .

وإذ كان شديد الولع بالنظام والكفاية ، فقد أتم تنظيم الصناعة بواسطة  
الكومونات أو الطوائف الصناعية . وتوسع في هذا التنظيم توسعا أوشك  
أن يكون خاتما . وراحت مئات من الأوامر تصف أساليب الصناعة ، وحجم  
المنتجات ولونها ونوعها ، وساعات العمل وظروفه ، وأنشئت اللجان في جميع  
قاعات المدن لفحص العيوب في إنتاج الحرف والمصانع المحلية . وعرضت علانية  
عينات من الصنعة المعيبة وإلى جوارها اسم الصانع أو المدير . فإذا عاذا المخالف  
إلى مخالفته وبخ في اجتماع للطائفة فإن عاد ثالثة شد إلى عمود تشهيرا به  
وتسكيلا (٦٥) . وشغل كل ذكر قادر على العمل ، وجند الإيتام من ملاحظتهم  
ليخدموا في المصانع ، وأخذ المتسولون من الشوارع إلى المصانع ، وقال  
كولبير للملك في اغتباط إنه حتى الأطفال يستطيعون الآن كسب بعض  
المال في المصانع .

وأخضع العمال لنظام يقرب من النظام العسكري . فالكسل وعدم  
الكفاية ، والشم ، والأحاديث المايية ، والمعيان ، والسكر ، والاختلاف إلى  
الحانات ، ومعاشرة الخليلات ، وعدم الخشوع في الكنيسة - كل أولئك  
يجب أن يعاقبه رب العمل ، وبالجلد أحيانا . أما ساعات العمل فطويلة -  
وقد تبلغ اثنتي عشرة أو أكثر تتخللها فترات من ثلاثين أو أربعين دقيقة  
لتناول الطعام . وأما الأجور فضئيلة ، يدفع جزء منها أحيانا سلميا يحدد

رب العمل أسماها . وقد حسب فوبان متوسط الأجر اليومي الذي يتقاضاه مهرة الصناع في المدن الكبيرة فكان اثني عشر سوا ( ثلاثين سنتا ) في اليوم ، ولكن السو الواحد كان يشتري رطلا من الخبز (٦٦) . واختزلت الحكومة عدد أيام الأعياد الدينية التي تعني العمال من العمل ، وبقي من هذه العطلات ثمانية وثلاثون يوما ، فكان مجموع أيام الراحة في السنة تسعين (٦٧) . وحرمت الاضرابات ، وحظرت اجتماعات العمال لتحسين أحوالهم ، وقد سجن بعض العمال في روشفور لأنهم شكوا ضالة أجورهم . ونمت ثروة طبقة رجال الأعمال ، وارتفعت موارد الدولة ، ولكن لعل حال العمال كانت على عهد لويس الرابع عشر أسوأ منها في العصور الوسطى (٦٨) . لقد أخضعت فرنسا للنظام الصارم في الصناعة كما أخضعت في الحرب .

أما في مجال التجارة ، فقد آمن كولبير كما آمن معظم رجال الدولة في جيله بأن اقتصاد الأمة ينبغي أن ينتج أقصى ما يمكن من ثروة واكتفاء ذاتي داخل الأمة ، وأنه ما دام الذهب والفضة عظيمي القيمة بوصفهما وسيطين في المبادلة ، فلا بد من تنظيم التجارة بحيث تكفل للأمة « توازنا تجاريا في صالحها » أي زيادة في الصادرات على الواردات ، ومن ثم تدفقا للفضة والذهب إلى البلاد . وبهذه الطريقة وحدها استطاعت فرنسا ، وإنجلترا ، والأقاليم المتحدة - وكلها لم تكن تربتها تحوى ذهبا ، أن تحصل على حاجاتها ، وأن تمون جيوشها من الحرب . وهذه هي « المركنتلية » mercantilism . ومع أن بعض الاقتصاديين سخروا منها ، فقد كان وسوف يكون هناك الكثير من المبررات لها في عصر كثير الحروب . ولقد طبقت على الأمة نظام التعريفات والترتيبات الحامية التي كانت في العصور الوسطى تطبق على السكوميون . ونمت وحدة الحماية حين حلت الدولة محل السكوميون وحدة الإنتاج والحكم . إذن فبمقتضى نظرية كولبير يجب أن تكون أجور العمال منخفضة تمكننا لمنتجاتهم من أن تنافس نظيرها في الأسواق الأجنبية . وبذلك تجلب الذهب إلى البلاد ، ويجب أن يكون جزاء أرباب العمل وفيرا

حفزاً لهم على الاضطلاع بالمشروعات الصناعية لصنع السلع ، لاسيما السكاليات ،  
التي لا نفع لها في الحرب ولكن يمكن تصديرها بتكلفة قليلة لقاء عائد  
كبير ، ثم يجب أن تكون أسعار الفائدة منخفضة إغراء للمقاولين باقتراض  
رأس المال . وهكذا ترى طبيعة التنافس التي قطر عليها الإنسان ، في تلك  
الغابة التي لا تخضع لقانون والتي تصطرع فيها الدول ، قد كيفت اقتصادها  
الوطني وفق فرص الحرب وحاجاتها . فالسلام ليس إلا حرباً بوسائل أخرى .  
إذن فوظيفة التجارة في رأى كولبير ( بل في رأى صلي ورشليو  
وكر وموبل أيضاً ) تصدير السلع المصنوعة نظير المعدن النفيس أو الخيامات .  
ومن ثم نراه في ١٦٦٤ ، ثم في ١٦٦٧ ، يرفع الرسوم على الواردات التي  
هددت بأن تنافس في فرنسا منتجات الصناعات الوطنية المعتبرة ضرورية  
في الحرب ، فلما استمر جلب هذه الواردات حظرها بتاتاً . وفرض رسوم  
تصدير باهظة على المواد الضرورية ، ولكنه خفض الضريبة على تصدير  
السكاليات .

ثم حاول تحرير التجارة الوطنية من المكوس الداخلية . وقد وجد أن  
التجارة الفرنسية تعترض سيرها المعوقات من الحواجز والتعريفات الإقليمية  
والبلدية والعزبية . من ذلك أن السلع المنقولة من باريس إلى المانش ، أو من  
سويسرة إلى باريس ، كانت تدفع عنها مكوس عند ست عشرة نقطة ، ومن  
أورليان إلى نانت عند ثمان وعشرين . وربما كان هناك مبرر لهذه المكوس .  
يوم كان كل إقليم بطبع إلى الاكتفاء الذاتي ويمجاهد في حماية صناعاته ،  
وذلك بسبب صعوبات النقل واحتمالات الصراع الإقطاعي أو تنازع  
الكومونات . أما وقد توحدت فرنسا سياسياً الآن ، فقد غدت هذه  
المكوس الداخلية عقبة كئودا في طريق الاقتصاد القومي وحاول كولبير  
بمرسوم أصدره في ١٦٦٤ أن يلغى جميع المكوس الداخلية . ولكن المقاومة  
كانت عنيدة ، ففي نصف فرنسا استمرت المكوس ، وظل بعضها إلى عهد  
الثورة الفرنسية وكان أحد أسبابها الصغيرة . وكاد كولبير أن يقضى على

الجهد الذى بذله لتوسع التجارى بإصداره اللوائح المعقدة التى استهدفت اصلاح مافسد ولكنها عرقلت التجارة إلى حد تعطيلها أحيانا . قال ( هو أو أحد نقاده ) « أن الحرية روح التجارة ، فعلينا أن نترك الناس ليختاروا أنسب الطرق لهم » .

( Il faut Laisser faire les hommes ) (٦٩) ، هنا عبارة قدر لها أن

تصنع التاريخ .

وقد جاهد ليفتح مسالك جديدة للنقل الداخلى . فبدأ مجموعة من الطرق الرئيسية الملكية ، وكانت حربية فى هدفها الأول ، ولكنها كانت إلى ذلك نعمة على التجارة عامة . كان السفر بالبر لا يزال شاقا بطيئا . مثال ذلك أن مدام دسفينيه استغرقت ثمانية أيام فى رحلة بالمركبة من باريس إلى ضيعتها فى فيتره بربتانى . وبناء على اقتراح من بيربول دريكيه ، استخدم كولبير اثني عشر ألف رجل فى حفر قناة لا مجدوك الكبرى ، التى بلغ طولها ١٦٢ ميلا ، وارتفعت أحيانا إلى ٨٣٠ قدما فوق سطح البحر ، ولم يحل عام ١٦٨١ إلا وقد اتصل البحر المتوسط بخليج بسكاي عن طريق الرون والقناة والجارون ، واستطاعت تجارة فرنسا أن تتجنب المرور بالبرتغال وأسبانيا . وكان كولبير ينظر بين الحسد إلى الهولنديين الذين ملكوا خمسة عشر ألف سفينة تجارية من بين الآلاف العشرين التى تمخر العباب ، على حين لم تملك فرنسا منها سوى ستائة . ومن ثم بنى شيئا فشيئا البحرية الفرنسية حتى بلغت سفنها ٢٧٠ بعد أن كانت لا تتجاوز العشرين ، وأصلح للرافى وأحواض السفن ، وألوم الرجال فى غير هواة بالأنحراط فى سلك البحرية ، ونظم أو أصلح الشركات التجارية بحجز الهند الغربية ، والشرقية ، وبحر المشرق ، والبحار الشمالية . ومنح هذه الشركات امتيازات الحماية ، ولكن هنا أيضا عطلتها اللوائح التى فرضها عليها تعطيل مدمرا . ومع ذلك نمت التجارة الخارجية ، ونافست البضائع الفرنسية للنتجات الهولندية أو الإنجليزية فى البحر الكاريبي ، والمشرق الأدنى ، والأوسط ، والأقصى . وغدت مرسليه

أكبر ثغور البحر المتوسط بعد ما أصابها من اضطحلال لقلة السفن الفرنسية . وبعد عشر سنين من الخبرة والتشاور والعمل الشاق أصدر كولبير ( ١٦٨١ ) قانونا بحريا للسفن والتجارة الفرنسيتين ، ما لبثت الأمم الأخرى أن طبقتة . ثم نظم التأمين على الرحلات التجارية الخطرة وراء البحار . وبارك اشتراك فرنسا في تجارة الرقيق ، ولكنه جاهد ليلاطف من قسوتها باللوائح الرحيمة ( ٧٠ ) .

وقد شجع الارتياح الجغرافي وإنشاء المستعمرات ، أملا في أن يبيعها السلع المصنوعة نظير خاماتها ، ويستخدمها روافد لبحرية تجارية قد تكون ذات نفع في الحرب . وكان المستعمرون الفرنسيون منتشرين فعلا في كندا ، وغرب أفريقيا ، وجزر الهند الغربية ، وفي طريقهم إلى داخل مدغشقر ، والهند ، وسيلان . وارتاد كورسيل وفونتناك البحيرات العظمى ( ١٦٧١ — ٧٣ ) . وأسس كاديك مستعمرة فرنسية كبيرة فيما هو الآن ديترويت . واستكشف لاسال المسبى في ١٦٧٢ ( بعد أن منح احتكار تجارة الرقيق في الأقاليم التي يفتحها ) ، وهبط فيه في مركب هزيل ، فوصل إلى خليج المكسيك بعد شهرين من رحلة حافلة بالمغامرات . واستولى على الدلتا وأطلق عليها اسم الملك . فسيطرت فرنسا على وادي السانت لورنس والمسبى في قلب أمريكا الشمالية .

جملة العقول — ونحن لم نسجل غير جزء من نشاط كولبير ، وقد أغفلنا الحديث عن جهوده في سبيل العلم والأدب والفن — أن حياة هذا الرجل كانت من أعظم ماسجله التاريخ تقانيا في العمل وسعة في الانتشار . فلم يعرف الناس منذ شارلمان ذهبا واحدا مثل ذهنه صنع من جديد على هذا النحو دولة بهذه العظيمة في نواح بهذه الكثرة . صحيح أن هذه الأوامر والنظم كانت مزعجة ، وقد نفرت الناس من كولبير ، وليكنها شكات القالب الاقتصادي لفرنسا الحديثة ، ولم يقل نابليون أكثر من مواصلة جهود



كولبير ومهراجمتها سواء في الحكم أو القانون . وعرفت فرنسا طوال عشر سنوات من الثراء ما لم تعرفه من قبل . ثم انحسر هذا الثراء لعيوب النظام وأخطاء الملك . وقد احتج كولبير على أسراف الملك والبلاط ، وعلى آفة الحرب التي كانت تنجر في جسد فرنسا في شيخوخته ، ولكن التعاريف العالية التي فرضها ، شأنها في هذا شأن ولع لويس بالسطوة والمجد — هي التي أفضت إلى بعض هذه الحروب . وندد غرماء فرنسا البحريون بإفقال موانئها في وجه بضائهم . ووقع على كواهل الفلاحين ومهرة الصناع عبء إصلاحات كولبير ، بل أن رجال الأعمال الذين أثرتهم هذه الإصلاحات اتهموه بأن لوأثمهم عوقت التطور . قال أحدهم للوزير « لقد وجدت العربة مقلوبة على أحد جنبها ، فقلبتها على الآخر » (٧١) فلما مات ( في سبتمبر ١٦٨٣ ) رجلا محطما مهزوما ، اضطر ذووه إلى دفن جثمانه ليلا مخافة أن يسبه الناس في الشوارع (٧٢) .

## هـ - الآداب والأخلاق

كان العهد عهد الآداب الصارمة والأخلاق المنحلة . وكان اللباس شعيرة للمركز الاجتماعي . فهو في أوساط القوم غاية في البساطة — سترة سوداء تغطي في تواضع القميص والسراويل والسيقان . أما في الصفوة فهو بهي فاخر ، وهو في الرجال أبهى وأفخر منه في النساء . فكانت القبعات كبيرة لينة ، لها حاشية عريضة مزركشة بمجديلة من ذهب ، تمال إلى أعلى في جانب أو ثلاثة جوانب ، وتختال بحزمة من الريش يضمها مشبك معدني . وحين ارتقى لويس العرش نبذ — ونبذ من بعده البلاط — تلك الباروكات التي أشاع زيتها أبوه الأصيل ، فقد كانت تلافيف شعر الملك الشاب السكستاني أروع وأبهى من أن تخبأ ، ولكن حين بدأ شعره ينجل بعد ١٦٧٠ ، اتخذ الشعر للمستعار ، وما لبث أن توج كل رأس — أيا كان طموح حامله — وسواء في فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا ، بعقوص مستعارة مبدرة تنسدل

إلى السكتفين أو ما تحتهما، وتجعل كل الرجال يبدون سواسية إلا لضعفائهم.  
 أما المصى فحلفت ، وأما الجوارب فاحتفل بها ، ومدت القفازات إلى مافوق  
 الرسغ وزينت ، وارتدى الجنسان فراء اليدى فى الجو البارد . واستعيض  
 عن طوق الرقبة المكشكش العالى بلفافح حربرى يعقد هينا حول العنق .  
 وأخذ يحمل محل الصدر ثوب طويل مزخرف ، وزين الفخذان بسر اويل  
 : كيلوت ، تمتد إلى الركبتين وتقفل بمشابك أو تمعد بأشرطة عندهما ،  
 ثم تغطى هذه الثياب — إلا من أمام — بسترة ملتفة تنتهى أكامها  
 بأساور واسعة تحف بها حاشية من الدتلا . واختص القانون النبلاء  
 بتغطية ثيابهم بوشى من الذهب أو بالأحجار الكريمة ، ولكن ذوى  
 اليسار من أى طبقة نجاهلوا هذا القانون . أما الجوارب الطويلة فكانت عادة  
 من الحرير ، وكان الذكور يلبسون الأحذية الطويلة الرقبة حتى  
 لحفلات الرقص .

أما النساء المهدبات فكانت ثيابهن فضفاضة منسدلة تتفق وفضائلهن .  
 وكانت صدارتهن ذات أربطة ولكن من أمام كما ناشدهن بانورج فى  
 كتاب رابليه ، فكانت النهود البارزة تثب للعيون البصاصة . وأما التنورة  
 للمطوقة والأكام المنفوخة فولت مع ريشليو . وحفلى الأرواب بالتطريز  
 والألوان المشرقة ، وكست الأحذية العالية المبهجة الأقدام المتعبة ، وربط  
 الشعر بالأشرطة ، ورصع ، وعطر ، وجعد ، فى تألق . . وظهرت أولى  
 مجلات الأزياء فى ١٦٧٢ .

أما آداب السلوك فكان طابعها الجلال والنفخامة ، وأن بقيت جلالات  
 كثيرة تحت أبهة القبعة المرفوعة للتحية والثوب الجرار . فكان الرجال  
 يبصقون على أرض الحجرة ، ويبولون على سلم الوفرة<sup>(٧٣)</sup> وقد ينقلب للأزاح  
 وحشيا أو بذيثا . ولكن الحديث كان زشيقا مهذبا ، ولو دار حول  
 الفسيولوجيا والجنس . وكان الرجال يأخذون عن النساء آداب السلوك

والحديث ، قيتكلمون في عبارة واضحة سليمة ، ويتنكبون الحشو والخذلة ، ويتناولون جميع الموضوعات مهما اشد عمقها بمرح خفيف روحا وعبارة . وكان الاحتداد في الجدل من سوء الأدب . وأما آدب المائدة فأخذت تتحسن . كان الملك يأكل بأصابعه طوال حياته ، ولكن استعمال الشوك كان قد راج . وشاع استعمال نحو ١٦٦٠ فوطاة للمائدة . ولم يعد من المستساغ أن يمسح الضيوف أصابعهم في غطاء المائدة .

أما الفضائل الاجتماعية فلم تكن ممتازة في هذا العصر — عصر الاتيكيث والبروتوكول . وتضاءل الإحسان بازدياد ثراء الطبقات العليا . وكانت الأخلاق أسلم ما تكون في الطبقات الوسطى حيث يسر الشعور بالأمن حسن السلوك ، وحفزته الرغبة في الارتقاء . وكان المثل الأعلى عند جميع الطبقات هو *L'honnête homme* وليس المقصود بالعبارة الرجل الأمين ، بل الرجل الشريف ، الذي يجمع بين كرم النشأة والعادات وبين حسن السلوك . أما الأمانة فقلما كان يتوقعها القوم من إنسان . فقد استشرت الرشوة في المناصب على الرغم من لوائح كولبير ونظام الجاسوسيه الملكى ، وشجع عليها بيع الوظائف الحكومية مصدرا من مصادر إيراد الدولة . وانبعثت الجريمة من جشع الأغنياء ، وفقر الفقراء ، والتفجرات الغاضبة في جميع الطبقات . وآية ذلك أن من السيدات العريقات النسب من أفدن من خدمات كاترين مونفوازان أو المركيزة برانفلييه ، وكاتماهما حذفت تحضير السموم الطويلة المفعول ، وشاع القتل بالسم شيوعا اقتضى إنشاء محاكم خاصة لتفصل في قضاياها (٧٤) . أما كاترين مونفوازان فقد مارست الطب ، والتوليد ، والسحر ، وساعدت كاهنا مرتدا في ترتيب « القداس الأسود » القاسا لمعونة الشيطان ، وكانت تدبر اجهاض النساء وتبيع السموم وأشرطة الغرام . ومن زبائن أوليب مانتشيني ، ابنة أخت مازاران ، والكونتيسة جراهون ، ومدام دمونتيسبان خليعة الملك وفي ١٦٧٩ غصت لجنة نشاط « لافوازان » ووجدت الأدلة على اشتراك العدد العديد من كبار أفراد الحاشية ، الأمر

الذى حدا بلويس إلى حظر إذاعة التحقيق (٧٥) . وأحرقت لانوازان حية (١٦٨٠) .

ويدخل في أخلاق الأفراد انحرافاتهم العادية . وقد نص القانون على عقاب الوراط بالإعدام ، وما كانت أمة تتخذ أهبتها للحرب ، وتدفع الإعانات على الأطفال ، فتسمح بانحراف الغرائز الجنسية عن جادة الإنسال ، ولكن مطاردة أمثال هؤلاء المنحرفين كانت عسيرة في وقت كان فيه شقيق الملك لوطيا يشار إليه بالبنان ، يأنف القوم من ازدرائه ولكنهم يرونه فوق القانون . أما الحب بين الجنسين فقد تقبلوه على أنه تخفف رومانسى من أعباء الزواج ، لا مبرر يدعو الزواج . وقد رأوا أن اقتناء الثروة ، أو حمايتها ، أو نقلها ، أهم في الزواج من محاولة الإبقاء على عواطف الساعة العابرة طوال العمر . ولما كانت معظم زيجات الطبقة الارستقراطية لا تمتدو أن تكون ترقيبات لتنظيم الملكية ، فان المجتمع الفرنسى أغضى عن التمسرى ، فكان لكل قادر تقريبا خليصة ، وكاد الرجال يفاخرون بغرامياتهم مفاخرتهم بمعاركهم الحربية . أما المرأة فتشعر أنها مهجورة منبوذة إذا لم يلاحقها من الرجال سوى زوجها ، وكان بعض الخائنين من الأزواج يفضون عن خيانات زوجاتهم . يقول شخص في مسرحية لمولير : « أفى الدنيا كلها بلد آخر يبلغ فيه صبر الأزواج مبلغه في هذا البلد (١٧٦) ؟ » في هذا المناخ السكبي نشأت أمثال لاروشفوكو وكان القوم يحتقرون البغاء إذا تجرد من الكياسة ، ولكن امرأة كنينون دلاسلكو ، جملة بالأدب والظرف ، استطاعت أن تحظى بشهرة تدانى شهرة الملك .

كان أبوها نبيلًا حار الفكر ، ومبارزا بارعا . وكانت أمها شديدة الحرص على الفضيلة ، ولكنها (إذا صدقنا ابنها) « مجردة من مشاعر الحبس . . . » وقد ولدت ثلاثة أطفال وهي لا تسكاد تلحظ الأمر (٧٧) . ومع أن نينون لم يتبع لها التعليم المنهجى ، فإنها التقطت من المصارف قدرًا

لا يستهان به ، فتعلمت الكلام بالإيطالية والأسبانية ، ربما لتستعين بهما في هذه التجارة الدولية ، وقرأت مونتيني وشاروني ، بل قرأت ديكرت ، وأخذت عن أبيها تشككه . وقد جعلت مناقشتها حول الدين في فترة لاحقة مدام دسفينيه ترتعد (٧٨) . قالت نينون « إذا احتاج إنسان إلى دين ليسلك في هذه الدنيا كما ينبغي ، فتلك علامة إما على ضيق عقله ، أو على فساد قلبه » (٧٩) . وكان من الجائز أن تخلص من ذلك إلى ضرورة الدين لجميع الناس تقريباً ، ولكنها بدلاً من هذا انزلت إلى البغاء وهي لا تتجاوز الخامسة عشرة (١٦٣٥) . وقالت في استهتار « إن الحب عاطفة لا تنطوي على أي التزام خلقى » (٨٠) ، فلما خلعت العذار وجهرت بفوضاها الجنسية ، أمرت آن المساوية بحبسها في دير للنساء . وروى أنها فتنت راهبات الدير بظرفها وحيويتها ، واستمتعت بحبسها كأنها فرصة للاستحمام . وفي ١٦٥٧ أفرج عنها بأمر الملك .

لقد كان فيها ما هو أكثر كثيراً من مجرد المحظية ، حتى إنها سرعان ما ضمت إلى لفيف المعجبين بها عدداً كبيراً من أبرز الرجال في فرنسا ، ومنهم نفر من الحاشية (٨١) ، من الملحن لولي إلى كوندية العظيم ذاته . وكانت تجيد العزف على الهاربسيكورد ، وتحسن الغناء ، يقصدها لولي ليحرب ألحانه الجديدة . وقد حوت قائمتها ثلاثة أجيال من آل سفينيه — زوج كاتبة الرسائل اللطيفة ، وابنها ، وحفيدها (٨٢) . وأقبل الرجال من خارج فرنسا يلتهمسون ودها . قالت « لم يتشاجر على عشاق قط ، فقد كانوا يثقون في قلبي ، وكان كل منهم ينتظر دوره » (٨٣) .

وفي ١٦٥٧ افتتحت صالونها ، ودعت إليه رجال الأدب والموسيقى والفن والسياسة والحرب ، وأحياناً زوجاتهم ، وأذهلت باريس بما أبدت من ذكاء لا يقل عن ذكاء أي امرأة في جيلها أو ذكاء أكثر الرجال ، فلقد طالهم فيها عقل مينيرفا من خلف وجه فينوس . يقول فيها قاض صارم هو سيان — سيخون :

٤ — قصة الحضارة

« كان من المفيد لإنسان أن تستقبله في صالونها نظراً إلى الاتصالات التي يكونها عن هذا الطريق . ولم يدر في صالونها أى لعب للقمار ، ولا ضحك عال ، ولا مجادلات ، ولا حديث في الدين أو السياسة ، بل دار الكثير من الحديث الذكي الرشيق .. وأنباء الغرام ، ولكن دون فضح أو تشهير . كان كله حديثاً مذهباً خفيفاً محسوباً ، وكانت هي نفسها تغزو الحديث بذكاؤها وعلوها الغزير (٨٤) » .

وأخيراً أثارت فضول الملك نفسه ، فطلب إلى مدام دمانتينون أن تدعوها إلى القصر ، واستمع إليها من وراء ستار ، فافتتن بها ، وكشف لها عن وجوده وقدم نفسه إليها . وكانت في هذه الفترة ( ١٦٧٧ ؟ ) قد كسبت ما يشبه الاحترام ، وخلعت عليها أمانتها البسيطة وأياديها الكثيرة سمحة أشرف ، فكان الرجال يودعون لديها المبالغ الكبيرة مطمئنين ، واثقين دائماً من إمكان استردادها حين يشاءون ، ولاحظت باريس كيف كانت يننون تزور الشاعر سكارون كل يوم تقريباً حين أقعده الشلل ، وكيف كانت تأتبه بأطياب الطعام التي يعجز عن دفع ثمنها .

ولقد عمرت بعد أصدقائها كلهم تقريباً ، حتى سات إفريمون التسعيني ، الذي كانت رسائله التي يبعث بها من إنجلترا عزاء لهيخوختها . كتبت له تقول : أحياناً أضيق بعمل نفس الأشياء دائماً ، ويمعجني السويسريون الذين يلقون بأنفسهم في النهر لهذا السبب (٨٥) . « وكانت تضيق بالتجاعيد . « إذا كان لزاماً أن يبتلى الله المرأة بالعضون ، فأولى به على الأقل أن يضعها على باطن قدمها (٨٦) » . فلما دنت منيتها ، تنافس اليسوعيون والجانسون على شرف هدايتها للإيمان ، فاستسلمت لهم في لطف ، وماتت في أحضان الكنيسة ( ١٧٠٥ ) (٨٧) . ولم تترك في وصيتها سوى عشرة إيكوات لجنازتها ، حتى تكون أبسط ما يستطاع ، ولكن « أطلب في تواضع إلى المسيو آرويه » — وهو وكيلها — « أن يسمح لي بأن أترك لابنه ، الذي

يتلقى العلم عند اليسوعيين ، ألف فرنك ليشتري بها كتباً (٨٨) . واشترى  
الابن الكتب ، وقرأها ، وأصبح فولتير .

إن أروع السحر الذي توج هامة المجتمع الفرنسي هو أن حافظ الجنس امتد  
إلى الدهن ، وأن النساء تنهين ليضفن الذكاء إلى الجمال . وأن الرجال يروضهن  
النساء على السلوك المؤدب ، والدوق السليم ، والحديث المهذب ، وفي هذا  
كان القرن ( الممتد من ١٦٦٠ إلى ١٧٦٠ ) في فرنسا أوج الحضارة . في ذلك  
المجتمع كثرت النساء الذكيات كثيرة لم تعهد من قبل ، فإذا جعن إلى الذكاء  
فتنة الوجه أو الجسد ، أو سحر الاهتمام الناشئ عن الرقة واللفظ ، أصبحن  
قوة تهذيب عارمة . وكانت الصالونات تدرب الرجال على الحساسية لرقة  
الأنثى ، والنساء على التجاوب مع عقل الذكر . وفي هذه اللقاءات طور فن  
الحديث حتى بلغ شأوا لم يبلغه من قبل ولا من بعد — فن تبادل الأفكار  
دون مغالاة أو خصومة ، بل في مجاملة ، وتسامح ، ووضوح ، وخفة ،  
ورشاقة . ولعل هذا الفن كان أقرب إلى الكمال في عهد لويس الرابع عشر  
منه في أيام فولتير — أقل ألمعية وظرفا ، ولكن أكثر مادة ومودة .  
كتبت مدام دسفينيه إلى ابنتها تقول « بعد الغداء مضيئنا إلى السمر في ألطف  
غابات الدنيا ، وظللنا هناك إلى السادسة ، مشغلين بمختلف ألوان الحديث ،  
البالغ العطف ، والرقة ، واللفظ ، والكرم ، مما مس شغاف قلبي (٨٩) »  
وقد عزا كثير من الرجال الفضل في تسعة أعشار تعليمهم إلى مثل هذا  
التبادل والاتصال الاجتماعي بين الجنسين (٩٠) .

وفي الغرفة الزرقاء بالأوتيل درامبويه كان أول الصالونات يسطع بهائه  
الآخر . أمه كونديه وإن لم يلعب فيه ، وأمه كورنجر ، ولاروشفوكو ،  
والسيدتان لافاييت ودسفينيه ، ودوقة لونجفيل ، والجراند مدموازيل .  
هناك أرست النساء للتحذلقات *les femmes précieuses* قواعد السلوك  
الدقيق والحديث المصقول . ولكن حرب الفروند قطعت هذه الإقامات ،  
ورحلت مدام درامبويه إلى الريف ، ومع أن «أوتيلها» ( قصرها ) فتح بعد

ذلك أبوابه ثاية لمبقرى فرنسا ( مولير ) ، فإن باكورة تمثيلياته  
Les Précieuses ridicules ( للمتحدثات المضحكات ) ( ١٦٥٩ ) كانت ضربة  
قاضية عليه . وطوى أول الصالونات المشهورة يموت مؤسسته في ١٦٦٥ .

وواصلت هذا التقليد صالونات أخرى ، في بيوت السيدات دلا  
سابيير ، ودلامبير ، ودسكوديرى — وآخرهن أشهر كتاب الرواية في  
هذا العصر ، وأولاهن امرأة جذبت الرجال بحسنها رغم حبها للفيزياء ،  
والفلك ، والرياضة ، والفلسفة . في صالونات كهذه زكت النساء العالمات  
femmes savantes اللاتي أثرن سخرية مولير في ١٦٧٢ . ولكن كل  
هجاء ليس إلا نصف الحقيقة ، ولعل مولير في لحظاته الفلسفية كان يقرب بحق  
النساء في أن يشاركن في حياة جيلهن الفكرية . فنساء فرنسا ، أكثر حتى  
من كتابها وفنانيها ، هن تاج حضارتها ، والمفخرة العظمى لتاريخها .

## ٦ - بلاط الملك

لقد عاون الملك وبلاطه على تحضير فرنسا . وفي ١٦٦٤ كان البلاط يضم  
نحو ستمائة شخص : الأسرة المالكة ، وكبار النبلاء ، والمبعوثين الأجانب ،  
والخدم والحشم . وقد زاد العدد في أوج اكتمال فرساي إلى عشرة آلاف  
من الأنفس ( ٩١ ) ، ولكن هذا العدد شمل الأعيان الذين اختلفوا إلى القصر  
بين الحين والحين ، وجميع المرفهين والأتباع ، والفنانين والمؤلفين الذين وقع  
عليهم اختيار الملك ليكافئهم . وأصبحت الدعوة إلى البلاط شهوة لا تفوقها  
غير شهوة الطعام والجنس ، لا بل إن قضاء يوم واحد فيه كان نشوة  
لا تنسى ، جديرة بأن يبذل في سبيلها نصف مدخرات العمر .

وبعض السر في بهاء البلاط كان في الأثاث المترف التي ازدادت به الغرف ،  
وبعضه في لباس الحاشية ، وبعضه في حفلات الترفيه البالغة الفخامة ، وبعضه  
في جمال النساء وصيت الرجال الذين اجتذبهم يريق المال ، والشهرة ، والسلطان .  
ومن النساء الشهيرات — كالسيدتين دسفينيه ودلافايت — من لم يختلفن



إلى البلاط إلا نادرا لانحيازهن إلى قضية الفروند ، ولكن بقي منهن عند  
يكفى لإبهاج ملك بالغ الحساسية لمفاتن المرأة . وتبدو المرأة في اللوحات التي  
وصلت إلينا من هذا العصر على شيء من البدانة ، يبرز لحمها من صدرها ،  
ولكن من الواضح أن الرجال كان يعجبهم دفء الشحم واللحم فيمن  
يعشقون من النساء .

أما أخلاقيات البلاط فكانت الزنا المحتشم ، والإسراف في اللباس  
والقمار ، والدسائس العنيفة جريا وراء الصيت والمنصب ، وهذا كله يخطو  
على إيقاع من السلوك الخارجي الدمث ، والآداب الرشيقة ، والمرح الإلزامي .  
وضرب الملك المثل في بدعة اللباس الغالي ، لا سيما في استقبالات السفراء ،  
فتراه وهو يستقبل مبعوثي سيام يرتدى عباءة موشاة بالذهب ومرصعة  
الأطراف بالماس ، بلغت تكاليفها ١٢٥٠٠٠٠٠ ر ١٢ جنيه فرنسي (٩٢) ،  
ومثل هذا المظهر كان جزءا من سيكولوجية الحكم . وأفنى الأشراف  
ونسائهم نصف دخل ضياعهم في الثياب والخدم والآثاث ، وكان على أقلهم  
شأن أن يستخدم أحد عشر خادما ومركبتين ، أما الأثرياء فكان لهم من  
الاتباع خمسة وسبعون في بيوتهم ، ومن الخليل أربعون في مراتبهم (٩٣) .  
وفقد الزنا سحره بعد أن لم يعد محظورا ، فغدا لعب الورق للمقامرة أم  
خروب الترفيه في البلاط . وهنا أيضا كان لويس القدوة لحاشيته ، فقامر بمبالغ  
كبيرة ، تستعته إلى ذلك خليلته مونتسبان ، التي خسرت وكسبت أربعة  
ملايين من الفرنكات في لعب ليلة واحدة (٩٤) . وسرى هذا الهوس  
من البلاط إلى الشعب . كتب لا برويير يقول : « إن الألوف يخربون بيوتهم  
بالقمار ، وهو لعبة رهيبية ... ينوي لاعبيها القضاء المبرم على غريمه ،  
وينتشئ بشهوة الكسب (٩٥) » .

وقد أفضى التنافس على الخطوة عند الملك ، أو على وظيفة مجزية ،  
أو على مكان في الفراش الملكي ، إلى جسو من الشبهات ، والافتراءات ،  
وتبادل الخصومات الجادة . قال لويس : « في كل مرة أعين إنسانا في وظيفة

شاعرة ، أسخط مائة شخص ، وأجعل شخصاً ما كرا للجميل (٩٦) . وكان القوم يتشاحنون على أمكنة الصدارة في المائدة ، أو على القيام على خدمة الملك ، وحتى سنان — سيمون أقلقه الخوف من أن يتقدمه دوق لكسمبور خمس خطوات في أحد اللواكب ، وقد اضطر لويس إلى نفي ثلاثة أدواق من البلاط لأنهم أبوا أن يقدموا على أنفسهم أمراء أجانب . وكان الملك شديد الاحتفال بالبروتوكول ، وقد عبس مرة حين وجد على مائدة الغداء سيدة ماطلا من اللقب تتقدم دوقة في مجلسها (٩٧) . ولا ريب في أن ضرباً من الترتيب المقرر كان ضرورياً لمنع ستمائة من الأنفس المغرورة المزهوة بأسباب التشريف من أن يدوس بعضها على أقدام بعض ، وقد أثني الزوار على ذلك المظهر المتسق الذي بدت فيه الحاشية الضخمة . ومن قصور الملك ، واستقبالاته ، وحفلات ترفيهه ، سرى دستور الإتيكيت ، ومعايير السلوك والدوق ، إلى الطبقتين العليا والوسطى ، وأصبحت هذه كلها جزءاً من التراث الأوربي .

وأراد الملك أن يمنع الملل من أن يتطرق إلى نفوس هؤلاء النبلاء والنبيلات ، ذلك الملل الذي قد يحمل البعض على قتل الملك ، غناط القنايين على مختلف أنواعهم بإعداد ألوان الترفيه — من مباريات بين الفرسان ، ورحلات صيد ، ومباريات تنس وبلياردو ، وجماعات سباحة أو نزهة في الزوارق ، وحفلات غداء أو عشاء ، ورقص وحفلات راقصة ، وحفلات تشكرية ، ومراقص باليه ، وأوبرات ، وحفلات موسيقية ، وتمثيليات . وبدت فرساي وكأنها جنة الله في أرضه حين كان الملك يتقدم حاشيته إلى الزوارق الراسية في القناة ، والأصوات والآلات تشدو بالموسيقى ، والمشاعل تعين القمر والنجوم على إضاءة المشهد . وهل في الدنيا أفخم ولا أكرم للأنفاس من حفلات الرقص الرسمية ، حين تمكس قاعة المرايا في مراياها الهائلة رشاقة الرجال والنساء وخفتهم وهم يخطرون في رقصات فخمة تحت آلاف الأضواء ؟ لقد أرام الملك أن يحتفل بمولد ابنه البكر ، الدوق ،

( ١٦٦٢ ) فأقام حفلة باليه في الميدان المنبسط أمام التويلري ، حضرها خمسة عشر ألف شخص . وقد دمر كومون ١٨٧١ القصر ، ولكن موقع هذا المهرجان الأشهر ما زال يسمى قصر كاروزل Carrousel ( أى ساحة الرقص الدائرى السريع ) .

لقد أحب لويس الرقص ، وأشاد به « واحداً من أفضل وأهم الرياضات لتدريب الجسم » ( ٩٨ ) ، وأسس في باريس ( ١٦٦١ ) الأكاديمية الملكية للرقص . وكان يشارك بشخصه في رقصات الباليه ويحذو النبلاء حذوه . وشغل الملحنون في بلاطه بإعداد الموسيقى لحفلات الرقص والباليه ، وهناك تطورت المتتالية التى حذق استخدامها بيرسيل في إنجلتره وآل باخ في ألمانيا . ولم يبلغ الرقص صوراً رشيقة متسقة كهذه منذ أيام روما الإمبراطورية .

وفي ١٦٤٥ استقدم مازاران المغنين الإيطاليين ليرسوا أساس الأوبرا في باريس . وقطع موت الكردينال هذا الاستهلال ، ولكن حين شب الملك أنشأ أكاديمية الأوبرا ( ١٦٦٩ ) ، وكلف بيير بيران بتقديم أوبرات في عدة مدن فرنسية ، ابتداء من باريس في ١٦٧١ . فلما أفلس بيران من جراء إنفاقه المسرف على المناظر والآلات ، نقل لويس « امتياز أكاديميات الموسيقى » إلى جان باتيست لولى Lully ، فالبث هذا الرجل أن رقص البلاط بأسره على أنغامه .

وكان هو أيضاً هبة من هبات إيطاليا . فقد أتى به الشغالييه جيز صبيا فلاحاً في السابعة من فلورنسة إلى فرنسا في ١٦٤٦ ، « هدية » لابنة أخته ، الجراند مدموازيل ، التى استخدمته في مطبخها مساعداً صغيراً ( Soumarmon ) . وهناك ضايق زملاءه الخدم بالتحريش على المكان ، ولكن المدموازيل تبينت موهبته وأتته بمعلم . وما لبث أن عزف في فرقة الموسيقى الملكية ذات الأربع والعشرين كماناً . واستلطفه لويس ، فأعطاه

مجموعة صغيرة من الموسيقيين يقودها . وبفضل هذا الأوركسترا الوترى الصغير تعلم القيادة والتلحين — لموسيقى الرقص ، والأغاني ، والسمكان المنفرد والكنتاتات ، والموسيقى الكنسية ، ولثلاثين لحنا أوركستريا للباليه ، وعشرين أوبرا . وقد صادق مولير ، وتعاون معه في عدة باليات ، ولحن فواصل موسيقية قصيرة لبعض تمثيليات مولير .

وكان نجاحه رجل بلاط يضارع انتصاراته موسيقيا . ففي ١٦٧٢ ، وفق بنفوذ مدام دمونتسبان في الحصول على احتكار الأوبرا في باريس . وقد وجد في فيليب كينو Ournault مؤلفا لكلمات الأوبرا وشاعرا أيضا . فأخرجها معا سلسلة من الأوبرات كانت ثورة في الموسيقى الفرنسية . ولم يقتصر نجاح هذه الحفلات على الترفيه على البلاط في فرساي ، بل إنها اجتذبت صفوة الباريسيين إلى المسرح الذي بنى من قبل اللولى في شارع سانت — أونوريه ، واجتذبتهم في كثرة جعلت الشوارع تمتلئ بالمركبات ، فاضطر الرواد في كثير من الأحيان إلى الخروج منها والسير على الأقدام ، وفي الوحل غالباً ، خشية أن يفوتهم الفصل الأول ، وقد استهجن بوالو الأوبرا زاعماً أنها ضرب من التخنث المضعف (٩٩) ، ولكن الملك منحه أكاديمية الموسيقى مرسوماً (١٦٧٢) ، وأذن له « سادة والسيدات بالغناء في عروض الأكاديمية المذكورة دون أن يكون في ذلك غض » من أقدارهم (١٠٠) . ورفع لويس لولى إلى مقام النبالة سكرتيراً للملك ، وشكاً سكرتيرون آخرون من أن الوظيفة أرفع من أن تخلع على موسيقى ، ولكن لويس قال للولى ، « لقد شرفتهم لم لا أنت بوضعي عبقرياً بين زمريهم (١٠١) » . وحالف التوفيق لولى في كل شيء حتى ١٦٨٧ ، حين ضرب قدمه صدقة — وهو يقود فرقته — بعصا القيادة ، وأساء طبيب دجال علاج جرحه ، فتمفن ، ومات المؤلف الفوار في الثامنة والأربعين . ومازالت الأوبرا الفرنسية تهمر بتأثيره إلى اليوم .

بقى اسم آخر خلفته موسيقى ذلك العهد الفخم ، وهو اسم أسرة كوبران ، التي كانت مثلاً آخر على الوراثة في الفن ، والتي أنجبت مؤلفين لفرنسا طوال قرنين من الزمان ، واحتسرت من ١٦٥٠ إلى ١٨٢٦ الأرغن العظيم في كنيسة سان جرفيه ، وقد شغل فرنسوا كوبران « الكبير » ذلك المنصب ثمانية وعشرين عاماً ، كذلك كان « عازف أرغن الملك » في كنيسة الملك الصغيرة بفرساي ، وكان أشهر طازفي الهاربسيكورد في ذلك « القرن العظيم » . وقد درس يوهان سبستيان باخ ألحانه التي وضعها لهذه الآلة دراسة دقيقة ، وأثر البحث الذي وضعه باسم *L'art de toucher le clavecin* ( وهو الاسم الفرنسي لمقابله الانجليزي Clavichord ) في بحث ذلك الألماني العظيم المسمى « السكلافير المعتدل » ... ترى ؛ أكانت للموسيقى في دم آل كوبران ، أم في بيتهم فقط ، لعل الوراثة الاجتماعية ، لا البيولوجية ، هي التي تصنع الحضارة .

## ٧ — نساء الملك

لم يكن لويس بالرجل الخليع الفاجر ، وعلينا أن نذكر دائماً ونحن في معرض الحديث عن الملوك حتى إلى قرننا هذا ، أن العرف اقتضاهم أن يضحوا بحيولهم الشخصية ليعقدوا زيجات تجلب منفعة سياسية للدولة ، ومن ثم كان المجتمع — والكنيسة أحياناً كثيرة — يفضيان إذا التمس الملك متعة الجنس وشاعرية الغرام بعيداً عن الرباط الزوجي . ولو كان الأمر بيد لويس لبدأ حياته بزواج حب ، فقد استهواه جمال ماري مانشيني ابنة أخت مازاران ، وظرفها ، فرجأ أمه والسكردينال أن يسمح له بالزواج منها ( ١٦٥٨ ) ، ولكن آن النسائية وبخته لأنه سمح للعاطفة بأن تتدخل في شئون السياسة ، أما مازاران فقد أبعد ماري آسفا لتزوج رجلاً من آل كولونا ، ثم راح الوزير الداهية يستخدم نفوذه الخفي ليحصل على

عروس لويس هي ماريا تريزا ، ابنة فيليب الرابع . أفليس من الجائز ، إذ أنه انقطع نسل الذكور في الملوك الأسبان ، أن تأتي هذه الأميرة بأسبانيا كلها مهراً لملك فرنسا ؟ وهكذا زف لويس إلى ماريا في ١٦٦٠ ، وكلاهما في الثانية والعشرين ، في كل البهاء والبذخ الذي سحر دافعي الضرائب .

أما ماريا تريزا فكانت امرأة متسكبة ، ورعة فاضلة ، وقد أمّنت قدوتها ونفوذها على إصلاح أخلاقيات البلاط ، على الأقل بين حاشيتها ، ولكن النظام الصارم الذي نشأت عليه جعلها مكتئبة متبلدة ، وكانت شهيتها القوية تزيدها حجماً في الوقت الذي ترمق فيه حسناوات باريس زوجها الوسيم بنظرات الغرام وقد أحجبت له ستة أطفال ، لم يتجاوز الطفولة منهم غير واحد هو الدوفن ، وكان من سوء طالعها أن يكتشف لويس ، في نفس سنة زواجهما ، في زوجة أخيه هنرييتا آن ، جميع المفاتيح التي تجمل الأنوثة الغضة .

أما هنرييتا هذه فهي ابنة تشارلز الأول ملك إنجلترا ، وكانت أمها هنريتا ماريا « ابنة هنري الرابع ملك فرنسا » قد قاسمت زوجها مأساة الحرب الأهلية ، فلما دنا جيش البرلمان من مقر قيادة تشارلز في أكسفورد ، فرت ملكة إنجلترا إلى أكستر ، وهناك ، حين اشتد بها المرض حتى أشرفت على الموت ، ولدت ( ١٦٤٤ ) « أميرة صغيرة جميلة » . وراح أعوان البرلمان يتمقبون الأم المريضة ، ففرت ثانية ، وتسالت إلى ساحل البحر ، حيث استقلت سفينة هولندية إلى فرنسا بعد أن أفلتت بالجهد من المدافع الإنجليزية . أما الطفلة التي تركتها أمها في رعاية الليدي آن دولسكيت ، فقد عاشت عامين في مخبئها بإنجلترا قبل أن تهرب هي أيضاً عبر المانش في

(١) روت مدام ديمونتيان . التي لم تخل من تحيز في مذكراتها ، كيف أهدى أمير أفريقي قزماً زنجياً لماري ، وكيف ولدت ماري « بنتاً جميلة صحيحة الجسم ، سوداء من قبة رأسها إلى أخمص قدمها » وهزت الملكة هذا اللون إلى خوفها من القزم خلال حملها ، وأذاعت « هازيته » باريس أن الفتاة ماتت عقب ولادتها ، ولكن يبدو أنها عاشت ، وربتها أسرة ملونه ، وأصبحت راهبة ، ( ١٠٧ ) .

أمان ، وما لبثت أن أكرهتها الظروف على معاناة التقلبات التي جاءت بها حرب القرون . ففي يناير ١٦٤٠ شاركت أمها وأخي النمساوية في هروبهما من باريس المملوءة بالمتاريس إلى سان — جرمان ، وفي ذلك الشهر جاء نبأ — أخفى عنها ولا ريب حيناً — بأن أباهما ضرب عنقه أنصار كرومويل « ذوو الرؤوس المستديرة » المنتصرون فلما خفت خدة القرون ، قامت أم الأميرة هنرييتا على تربيتهما في جو من الدعاء والتقوى ، وعاشت كلتاهما حتى رأتا تشارل الثاني يرد إلى العرش الإنجليزي ( ١٦٦٠ ) ، وبعد عام حين بلغت السادسة عشرة ، تزوجت شقيق لويس الرابع عشر ، « مسيو » فيليب دوق أورليان ، وأصبحت تلقب بالـ « مدام » .

أما « المسيو » فكان رجلاً قصيراً مكور البطن ، يلبس حذاءً طالياً ، ولوعاً بحلى الآثاث ، وأجساد الذكور ، شجاعاً كما أي فارس في ساحة الوغى ، ولكنه مزوق ، معطر ، موشع ، مرصع بالجواهر كأشد النساء غوراً ، في هذا البلد الذي كان أكثر بلاد الله غوراً . وقد أحزن هنرييتا وأخجلها أن ترى زوجها يؤثر على صحبتها صحبة شفالبيه اللورين ، وشفالبيه شاتيون . ووقع في غرامها كل إنسان تقريباً ، لا لجمالها الهش خصب — مع أنها عدت أجمل مخلوق في البلاط (١٠٣) — بل لما هو أكثر من ذلك ، لروحها الرقيقة اللطيفة ، وحيويتها ومرحها الشبيهين بحيوية الأطفال ومرحهم . وللنسيم النضر المنعش الذي حملته أينما ذهبت ، وقد وصفها راسين بـ « الحكيم في كل جميل (١٠٤) » — وكان واحداً من كثيرين ممن ألهمتهم ومدت لهم يد المعونة .

ووجدها لويس الرابع عشر لأول وهلة أضعف وأنحف من أن تسيغها فتوته وذوقه ، ولكنه حين أحس آخر الأمر بما في خلقها من « حلاوة وضياء » (١٠٥) استشعر المتعة المتزايدة في وجودها ، وأبهجه أن يراقصها ، ويمارحها ، ويدبر الألعاب معها ، ويصاحبها في العشى في البستان في فونتنبلو.

أورسكوب الزورق في القناة ، حتى زعمت باريس كلها أنها غدت خليلته ، ورأت في هذا انتقاماً عادلاً من « ملك سدوم » (١٠٦) ولكن أغلب الظن أن باريس أخطأت الحكم . فلقد أحبها لويس واشتهاها من جانبها ، أما هي ، التي بذلت إخلاصها في الحب لأخويها تشارلز وجيمس ، فقد قبلت الملك أخاً آخر ، واتخذت من ربط الثلاثة جميعاً برباط التحالف أو المودة رسالة لها في الحياة .

ففي سنة ١٦٧٠ ، وبنداء على طلب لويس ، عبرت المانش إلى إنجلترا لتقنع تشارلز بالانضمام إلى فرنسا ضد هولندية ، لا بل لتحضه على الجهر بكتلكته . وقد وعد بهذا في معاهدة دوفر السرية ( ١ يونيو ١٦٧٠ ) ، وعادت هنرييتا إلى فرنسا محملة بالهدايا مكللة بالنصر ، ولكن ماضت أيام على وصولها إلى قصرها في سان — كلو حتى أصابها مرض شديد ، فظنت أنها سممت ، وكذلك اعتقدت باريس كلها ، وهرع الملك والملكة إلى فراشها . وكذلك فعل « المسيو » النادم ، وكونديه ، وتورين ، ومدام دي لا فاييت ، ومدموازيل دموبانسييه ، وأتى بوسويه ليصلي معها ، وأخيراً في ٣٠ يونيو ، انتهى عذابها ، وكشف فخص جثتها عن أن موتها لم يكن بالدم بل بالالتهاب البريتوني<sup>(١٠٧)</sup> ، وشيعها لويس بمشهد لا يشيع بمثله غير أصحاب الروس المتوجة ، وألقي بوسويه فوق جثمانها في كنيسة سان — دني عظة جنازية رجعت أصداءها القرون .

وهنرييتا هي التي أعطت للملك أولى خليلاته الأكثر علانية . وقد ولدت هذه المرأة ، واسمها لويز دي لا فالير ، في مدينة تور عام ١٦٤٤ ، وتلقت في إيمان مستسلم ذلك التعليم الديني الذي قامت عليه أمها وخالها الكاهن ، الذي أصبح فيما بعد أسقفاً لنان ، وما أن بلغت سن التناول الأول حتى مات أبوها ، فتزوجت أمها من جديد ، وكان الزوج رئيساً لخدم جاستون دوق أورليان ، فحصل للويز على وظيفته وصيفة لبنات الدوق ، فلما



مات جاستون ، وتزوج ابن أخيه وخليفته فيليب ، أخذ لويز معه وصيفة شرف هنرييتا ( ١٦٦١ ) . وبهذا الوصف كانت ترى الملك مراراً كثيرة . وبهرها بهاؤه وسلطانه وسحر شخصيته ، فوقعت في غرامه كما وقعت عشرات النساء ، ولكنها لم تحلم بالتحدث إليه يوماً .

كان جمالها جمال الخلق أكثر منه جمال الجسد ، كانت رقيقة الصلابة وبها عرج خفيف ، « وليس لها صدر يؤثر به » على حد قول أحد ناقدتها ، وكانت نحيفة إلى حد مخيف ، ولكن ضعفها هذا كان في ذاته فتنة ، لأنه أورتها تواضعاً ودمائة في الطبع أسر الجميع حتى النساء ، ولفتت هنرييتا نظر الملك إلى لويز لتصرف الناس عن الشائعات التي أرجفت بأنها هي ذاتها خليلته ، وأفلحت الخطة فوق ما أرادت ، فقد جذبت لويس هذه الفتاة الخجول ذات السبعة عشر ربيعاً ، التي كان البون شاسعاً بينها وبين النبيلات المتعطرسات العدوانييات اللاتي يحطن به في بلاطه . وذات يوم وجدها وحيدة في حدائق فونتنبلو ، فقدم نفسه إليها ، مضمراً نيات ليست بالشريفة جداً . وفاجأته بالاعتراف بأنها تحبه ، ولكنها قاومت إلحافه طويلاً ، وناشدته ألا يحملها على خيانة هنرييتا والملكة ، ولكن ما وافى شهر أغسطس ١٦٦١ حتى كانت قد غدت خليلته ، لقد كان كل شيء يبدو حسناً مادام يرضى مشيئة الملك .

ثم وقع الملك بدوره في غرامها ، فما كان يستشعر السعادة كما يستشعرها مع هذا الفرخ الخجول ، وخرجها في نزعات خلوية كالأطفال ، ورقصا في المراقص ، وطفرا مرحا في حفلات الباليه ، وكانت إذا خرجت إلى جواره في الصيد تنسى ما في طبعها من إحجام وتردد ، وتركب في تهور واندفاع « فيعجز حتى الرجال عن اللحاق بها » ( ١٠٨ ) على حد قول الدوق د'انجيان . على أنها لم تستغل انتصارها ، فأبت قبول الهدايا أو الاشتراك في الدسائس ، وظلت متواضعة رغم زناها ، وكانت تمجّل من وضعها ، وقد تمذبت حين

قدمها الملك إلى الملكة ، وولدت له عدة أطفال ، مات اثنان منهم في تاريخ مبكر ، أما الطفلان الثالث والرابع ، اللذان تقررت شرعيتهما بمرسوم ملكي ، فقد أصبحا الكونت دفيرماندوا ، والمدموازيل دبلوا الرائعة الجمال . وخلال أزمات الولادة هذه كانت ترى وجوهاً أجمل من وجهها تجتذب الملك ، ولم تحل سنة ١٦٦٧ حتى تعلق قلبه بدمونتسبان ، وبدأت لويز تفكر في التكفير عن آثامها بقضاء ما بقي من عمرها في دير للراهبات .

وآنس لويس هذا الميل فيها ، فبذل لها الكثير من علامات حبه الباقي ، وفكر في الحفاظ عليها في دنياه بخلع لقب الدوقية عليها ، ولكنه بين اشتغاله بحب مونتسبان ، واستغراقه في الحرب ، قل شيئاً فشيئاً ما منحها من وقته ، أما هي فلم تأبه في البلاط بإنسان غيره . وفي ١٦٧١ تخلت عن ثروتها ، وارتدت أبسط ما وجدت من ثياب ، وتسلمت من القصر صباح يوم من أيام الشتاء ، وهربت إلى دير القديسة ماري — د — شاو ، وأرسل لويس من يبحث عنها مؤكداً حبه وعذابه ، وإذ كانت لا تزال عذراء غريبة بعقلها ، فقد ارتضت أن تعود إلى البلاط . وظلت هناك ثلاث سنين أخرى ، ممزقة بين حبه للملك وشوقها للتطهر والسلام الدينيين ، وكانت تمارس في القصر تقشف الحياة الديرية ، وأخيراً أقنعت الملك بأن يفرج عنها ، ودخلت ديراً للراهبات الكرمليات الخافيات في شارع دانفير ( ١٦٧٤ ) ، وتسلمت الأخت لويز دلا ميزيريكورد ، وعاشت هناك في توبة الزهاد ما بقي لها من عمر طوال ستة وثلاثين عاماً ، قالت : « إن نفسي شديدة القناعة ، بالغة السكينة ، لأنني أعبد جود الإله » ( ١٠٩ ) .

أما خليفتها في الخطوة لدى الملك فلا تظهر من الناس بمثل هذا الغفران العام . فقد قدمت فرانسواز أتيناييس روتشوار البلاط في ١٦٦١ ، وخدمت للملكة وصيفة شرف ، وتزوجت المركز ديمونتسبان ( ١٦٦٣ ) . ويزعم

فولتير أنها إحدى ثلاث كن أجمل نساء فرنسا ، أما الآخرين فاختاها (١١٠) .  
وكان لها غداثر مجمدة شقراء مرصعة بالآلآء ، وعينان أبيتان ناعستان ،  
وشفتان شهوانيتان ، وثغر ضاحك ، ويدان ملاطفتان ، وبشرة في لون  
الزئبق ونسيجه — كذلك وصفها معاصروها وهم مبهورون ، وكذلك  
صورها هنري جاسكار في لوحة مشهورة . وكانت تقيّة ، تحفظ أيام الصوم  
دون تهاون ، وتختلف إلى الكنيسة في تعبد وتكرار ، لها طبع حاد وذكاء  
بثار ، ولكن هذا كان أول الأمر من قبيل التحدى .

روى عنها ميشليه قولها إنها قدمت باريس مصممة على اقتناص  
للملك (١١١) . ولكن سان - سيمون يذكر أنها حين رأت أنها أخذت تزيد  
من سرعة نبض الملك رجّت زوجها في أن يعود بها فوراً إلى بواتو (١١٢) .  
ولكنه أبى ، واثقاً من سلطانه عليها ، متعلقاً بعبير البلاط . وذات ليلة في  
كومبيين ، ذهبت لتنام في حجرة مخصصة عادة للملك . وحاول برهة أن ينام  
في حجرة مجاورة ، ولكنه وجد في هذا مشقة ، وأخيراً استولى على حجرته  
وعليها (١٦٦٧) . أما المركز فحين بلغه الأمر لبس ثوب الترميل ، وجلل  
مركبته بالسواد ، وزين أركانها بالقرون . وكتب لويس بيده وثيقة الطلاق  
بين المركز والمركزة ، وأرسل إليه ١٠٠.٠٠٠ ايكو ، وأمره بالرحيل عن  
باريس ، وابتسم البلاط الذي تجرد تماماً من الخلق الكريم .

وظلت مدام دمونتسبان محظية للملك سبعة عشر طاماً . وقد أعطت  
لويس مالم تستطعه لافالير - أعطته الحديث الذكي والحيوية اللثيرة . وكانت  
تفاخر بأنها هي وتبلد الحس لا يمكن أن يجتمعا في مكان واحد وزمان  
واحد ، وهو قول صحيح . وقد أنجبت للملك ستة أطفال - أحبهم  
وشكر لها صنيعها ، ولكنه لم يستطع أن يقاوم إفراء النوم من حين إلى حين  
مع مدام دسوينز أو مع الأنسة الشابة دسكوراى دروسيل ، التي خلع عليها  
لقب دوقة فونتانج . وقد حدثت هذه الانحرافات بـ مدام دمونتسبان إلى

التماس نصيحة للشموذات في أمر الأشربة السحريه أو غيرها من الوسائل للاحتفاظ بحب الملك ، ولكن القصة التي زعمت أنها دبرت تسميمه أو تسميم غريماتها هي في أغلب الظن أسطورة روجها أهداؤها (١١٣) .

وقد جني عليها أطفالها . ذلك أنها احتاجت إلى شخص يرعاهم ، وزكى لها بعضهم مدام سكارون ، فاستخدمتها ، ولاحظ لويس حسن المربية وهو يختلف لرؤيه أطفاله . أما مدام سكارون هذه ، واسمها قبل الزواج فرنسواز دوبينيه ، فكانت حفيذة تيودور أجريبا دوبينيه ، المساعد الهيجونوتي لهنري الرابع ، وقد ولدت بسجن بنيور في بواتو ، حيث كان أبوها يقضى فترة من فترات سجنه الكثيرة عقابا له على جرائم مختلفة ، وصدت كاثوليكية ، وربيت بين الفوضى والفقر الخيميين على أسرة منقسمة . وعطف عليها بعض البروتستانت وأطعموها وثبتوها في العقيدة البروتستانتية تثبيتا جعلها تولى ظهرها للمذبح الكاثوليكي . فلما بلغت التاسعة أخذها أبوها إلى المارتنيك حيث أشرفت على الموت لصرامة التأديب الذي أدبته به أمها . ومات الأب بعد عام ( ١٦٤٥ ) ، فعادت الأرملة وأطفالها الثلاثة إلى فرنسا . وفي ١٦٤٩ أودعت فرنسواز ديلا للراهبات بعد أن عادت إلى الكاثوليكية ، وكانت تناهزت الرابعة عشرة آنئذ ، وتسكب قوتها بأداء الأعمال الحقةرة . ولعلنا ما كنا لنسمع بها قط لولا أنها تزوجت بول سكارون .

وأما بول هذا فكان كاتباً مشهوراً ، وظريفاً لامعاً ، مشلولاً شللاً كاد يكون تاماً ، مشوها تشويها بشعاً . وإذ كان ابنالحمام نابه ، فقد توقع النجاح في حياته العملية ، ولكن أباه الأرملة تزوج ثانية ، وبذت الزوجة الجديدة بول ، فلم يظفر من أبيه إلا بمعاش ضئيل لا يكفيه إلا للترفيه ليله عن ماريون ديلورم وغيرها من التبيلات . ثم أصيب بالزهرى ، وأعلم نفسه لأحد الدجالين ، وتعالى العقاقير القوية التي أثقلت جهازه العصبي . وأخيرا اشتد به الللل حتى كاد يعجزه إلا عن تحريك يديه . وقد وصف نفسه في هذم

العبارات : « سأصف لك نفسى أيها القارىء على قدر استطاعتي . لقد كان جسمى حسن التكوين رغم قصر قامتى . ولكن العلة قصرتنى بقدم كامل . ورأسى أكبر قليلا مما يناسب جسمى . ووجهى ممتلىء ، أما جسدى فهيكلى عظمى . وبصرى لا بأس به ، ولكن عيني بارزتان ، وإحداهما منخفضة عن الأخرى . وقد كونت ساقى وفخذاي أول الأمر زاوية منفرجة ، ثم قائمة ، وأخيرا حادة ، وتكون فخذاي وجسمى زاوية حادة أخرى ، وانحناء رأسى فوق معدتى يجعلنى أقرب إلى حرف Z . وقد انكش ذراعى كما انكش ساقى ، وكذلك فعلت أصابعى . جملة القول أننى خلاصة للتعااسة البشرية (١٤٤) » .

وقد نمرى عن تعااسته تلك بتأليفه « رواية مضحكة » عن متشرد (١٦٤٩) لقيت نجاحا كبيرا ، وبعرضه هزليات ساخرة صاخبة الفكاهة ، فاضحة النكتة . وأكرمه باريس لأنه احتفظ بمرحه وسط آلامه ، وأجرى عليه مازاران وآن المساوية معاشين فقد الحق فبهما لتأييده للفروند . كسب كثيرا ، وأنفق أكثر ، وتورط غير مرة فى الدين . وكان — وهو مسنود داخل صندوق يطل منه رأسه وذراعه — يرأس فى حيوية وعلم غزير صالونا من أشهر صالونات باريس . فلما تكاثرت ديونه ، كان يتقاضى ضيوفه بمن طعامهم ، ومع ذلك كانوا يأتون .

ترى من يتزوج رجلا كهذا ؟ فى سنة ١٦٥٢ ، كانت فرنسواز دوبينيه التى بلغت السادسة عشرة من عمرها تعيش مع قريبة بخيلة ضنت بالإيقاق عليها حتى لقد اعتزمت أن ترد فرنسواز إلى أحد أديار الراهبات . وقدم صديق هذه الفتاة إلى سكارون ، فاستقبلها فى كرم مؤلم ، وعرض أن يدفع نفقات ملعامها وسكنها فى الدير ، لكى يعفيها من نذر الرهبنة ، ولكنها أبت . وأخيرا عرض أن يتزوجها ، وأوضح لها بجلاء أنه لا يستطيع أن يطالبها بحقوق الزوج . فقبلته ، وخدمته ممرضة وسكرتيرة ، وقامت بدور للضيافة

٥ — قصة الحضارة

في صالونه ، وتظاهرت بأنها لا تسمع توريات الضيوف . وكان ذكاؤها يدهشهم حين تشترك في الحديث . وقد خلعت على اجتماعات سكارون درجة من الاحترام كفت لجذب الأنسة دسكودري ، ومدام دسفينيه بين آن وآخر ، وكان من زوار الصالون قبل ذلك نينون ، وجرامون ، وسانت — إفرمون . وفي رسائل نينون الماع إلى أن مدام سكارون لظفت من عذاب هذا الزواج البريء من الجنس بعلاقة غرام ، ولكن نينون ذكرت أيضاً أنها « كانت فاضلة لضعف عقلها . لقد أردت شفاءها ، ولكنها كانت تخاف الله أكثر مما يجب (١١٥) » وكان وفاؤها لسكارون حديث باريس ، المتعطشة دون وعى منها لأمثلة لسلوك الكريم . ولما اشتد عليه شلله تيبست حتى أصابعه وامتنعت حركتها ، فمعجز عن أن يقلب صفحة أو يمسك قلمها . فسكات تقرأ له ، وتكتب ما يعليه عليها ، وتقوم على كل حاجاته . وقبل أن يموت ( ١٦٦٠ ) كتب قبريته التي قال فيها :

« إن الراقد الآن هنا قد أثار من الشفقة أكثر مما أثار من الحسد ، وعانى ألف مرة عذاب الموت قبل أن يفقد الحياة . فيا أيها العابر لا يتحدث ضجيجاً ، وإياك إياك أن توقظه ، فهذه أول ليلة ينام فيها سكارون المسكين » .

ولم يخلف لزوجته غير الدائنين . وألقيت « الأرملة سكارون » في خضم الفقر مرة أخرى وهي بعد شابه في الخامسة والعشرين . واتهمت من الملكة الأم أن تجدد معاشها الذي ألغى ، فرتبت لها آن ألف جنيه في العام . واتخذت فرانسواز حجرة في دير ، وتواضعت في عيشها وملبسها ، وارتضت القيام بشتى المهام الصغيرة في البيوت الميسورة (١١٧) . وفي ١٦٦٧ أرسلت إليها مدام دمونتسبان وهي على وشك الوضع رسولا يطلب إليها أن تتلقى الوليد المنتظر وتربيته . ورفضت فرانسواز ، ولكنها قبلت حين أيد لويس الطلب . وظلت سنوات عديدة بعد ذلك تتلقى أطفال الملك وهم يخرجون إلى النور .

وتعلمت أن تحبهم ، وكانوا يرون فيها أما لهم ، أما الملك الذي ضحك منها أول الأمر لفرط احتشامها ، فقد انتهى إلى الإعجاب بها ، وأثر فيه ما بدا من حزنها حين مات أحد الأطفال رغم حجبها للتصل عليه . وقال إنها تعرف كيف تحب ، وإنها لمتعة أن يكون إنسان موضع حبها (١١٨) . وفي ١٦٧٣ قررت شرعية الأطفال ، ولم يعد فرضا على مدام سكارون أن تستر ، فقبلت في البلاط وصيفة لمدام دمونتسبان . ووهبها الملك ٢٠٠٠ ر. ٢٠٠٠ جنيه دعما لمركزها الجديد . فاشتريت بالمال ضيعة في مانتنون قرب شارتر . ولم تعيش فيها قط ، ولكن الضيعة أعطتها لقباً جديداً ، وهو المركيزة دمانتون .

وكانت طفرة عنيفة لمن كانت تشكو الإملاق منذ عهد قريب جداً ، ولعلها أدارت رأسها حينئذ . وآلت على نفسها أن تنصح مدام دمونتسبان بأن تكف عن حياة الإثم التي تحياها . وساءت النصيحة دمونتسبان ، وظنت أن مانتنون تكيد لها للحلول محلها ، والحق أن لويس كان آثماً ، في ١٦٥٧ ، قد أخذ يضيق بغضبات دمونتسبان ، ويجدل لذة في التحدث إلى المركيزة الجديدة . ولعل الأسقف بوسويه ، بالتواطؤ مع الملك ، أنذره بأنه سيحرم من تناول قربان القيامة ما لم يطرد محظيته . فأمرها بأن تبرح القصر ، ففعلت ، وتناول لويس القربان ، وتعنف حينئذ واستحسن مدام دمانتون مسلكه ، دون أن يسكون لها قصد أمانى فيما يبدو (١١٩) ، لأنها رحلت بعد قليل مع صبي عليل (من أبناء دمونتسبان) هو الدوق دمين تلتمس له الشفاء في حمامات باريج الكبرى بقلعة البرانس . وانطلق لويس إلى حروبه ، ثم عاد وقد اشتد به الجوع ، وضرب بإنذار بوسويه عرض الحائط ، ودعا دمونتسبان لتعود إلى جناحها في فرساي . وهناك ارتضى بين ذراعيها المشتاقين ، فقبلت ثانية .

أما مانتنون فقد رحب بها الملك ومحظيته عند عودتها من البرانس مع الدوق الذي شفى مما ألم به ، ولكن راعها أن تراه غارقاً في عدة علاقات

آئمة في وقت واحد . وفي ١٦٧٩ اختتم آثامه مع مونتسبان بتعيينها مشرفة على بيت الملكة — وكانت تلك إحدى الغطاظات الكثيرة التي جرح بها سمور ماري تريز . وثار مونتسبان وبكت ، ولكنه عزاها بالهبات السفينة . وبعد عام تسلمت مانتنون وظيفته بمائة — هي الوصيفة المخدع زوجة ابنه البكر (الدوفينه) ، وكان الوحيد الباقي على قيد الحياة من أبنائه الشرعيين . وكثير تردد الملك الآن على الدوفينه للتحديث إلى مانتنون . وما من شك في أنه أراد أن يجعل للركيزة خلية له ، وأنها ردت عن نفسها — لا بل إنها ناشدته أن يكف عن جنوحه ويعود نائباً إلى الملكة (١٢٠) . فأذعن لها ولبوسويه ، وفي ١٦٨١ ، وبعد عشرين عاماً من مغازلة النساء ، أصبح زوجاً مثالياً . أما الملكة التي وطنت نفسها منذ أمد بعيد على تقبل خياناته ، بل على تقبل خليلاته ، فقد حظيت برضاء الملك ولكن لعامين فقط ، لأنها ماتت عام ١٦٨٣ .

وحن لويس أن مانتنون سترضى الآن بأن تكون خليلته ، ولكنها قابلته بصد لبق ، فهو الزواج وإلا فلا (١٢١) . وفي تاريخ لا يعرف على التحديد ، ولكنه على الأرجح في ١٦٨٤ ، تزوجها ، وكان في السابعة والأربعين ، وهي في الخمسين . وكان ارتباطا غير متكافئ ، لا يصيب الطرف الأدنى فيه أي رتبة جديدة ولا حقوق وراثية . ولقي مستشارو الملك عنقا في ثنيه عن إعطاء زوجه الحقوق الكاملة وتوحيها ملكة ، وذكروا له ما سيكون من تدمير الأسرة للملكة والحاشية إذا وجدوا أنهم يمنعون احتراماً لمربية . وعليه لم يعلن بآ الزواج ، وهناك من يظنون أن الزواج لم يتم قط . أما سان — سيمون ، للتثبت أبداً بالنظام الطبقي ، فرأى أنه زواج مخيف (١٢٢) ، ولكنه كان خير رباط وأسمده للملك ، والوحيد الذي رعى عهوده فيها يبدو . ولقد اقتضاء نصف قرن تقريباً أن يكتشف أن في حب المرأة لزوجها ما يكفيه عن غيرها من النساء .



## ٨ - الملك يمضى إلى الحرب

كانت انتصارات ريشليوه ومازاران قد خلفت فرنسا أقوى دولة في أوروبا . فالإمبراطورية أوهنها ما أصاب ألمانيا من إعياء وانقسام فضلا عن الخطر المتجدد عليها من العثمانيين . وأسبانيا أضعفها نضوب ذهبها ورجالها في ثمانين عاما من الحرب العقيم التي خاضتها في الأراضي المنخفضة . وانجلترا ، بعد ١٦٦٠ ، ربطتها بمعجلة فرنسا المعونات السرية للملكها . كذلك كانت فرنسا فيما مضى بلداً منقسماً أصابه الضعف ، ولكن ما أتت سنة ١٦٦٧ حتى كانت جراح الفروند قد برئت ، وغدت فرنسا أمة موحدة . وقام أثناء ذلك رجال أفذاذ اضطلموا بإعادة بناء الجيوش الفرنسية ، كلوفوا ، عبقرى التنظيم والضبط العسكريين ، وفوبان عبقرى التحصين وحرب الخنادق والحصار ، وكالثايندين للغوارين كوندية وتورين . وبدا للملك الشاب الذي يتملقه رجاله أن قد آن الأوان لتبلغ فرنسا حدودها الجغرافية الطبيعية — وهي الراين ، والألب ، والبرانس ، والبحر .

فليبدأ بالراين إذن . لقد كان الهولنديون يتسلطون عليه ، فلا بد إذن من إخضاعهم ، ثم ردهم بعد قليل إلى العقيدة التي كانت حليفا للملوك طوال ألف عام . فإذا بسطت فرنسا سلطاتها على مصاب النهر العظيم الكثيرة دانت لها كل أرض الراين ، وبسطت سلطاتها على نصف التجارة الألمانية . ولكن الأراضي المنخفضة الأسبانية ( بلجيكا ) تقف عقبة في الطريق ، فلا بد إذن من فتحها . وكان فيليب الرابع عند موته في ١٦٦٥ قد خلف الأراضي المنخفضة الأسبانية لشارل الثاني ، ولده من زواجه الثاني . ورأى لويس ثغرة دبلوماسية ينفذ منها إلى هدفه . فاستند إلى عرف قديم أخذت به أينو وبرابانت ، يقضى بتفضيل أبناء الزوجة الأولى في الميراث على أبناء الثانية . وكانت زوجة لويس بنت فيليب الرابع من زوجته الأولى ، وبمقتضى حق الأبلولة أو الوراثة هذا — *Ius devolutionis* — ترث ماري تيريز الأراضي

للمنخفضة الأسبانية . صحيح ان ماري نزلت عند زواجها عن حقها في الوراثة ، ولكن هذا التخلي كان مشروطاً بأداء أسبانيا صداقها لفرنسا ، وهو ٥٠٠.٠٠٠ كراون ذهبي (١٢٣) . وهذا الصداق لم يؤد ، إذن . . . ورفضت أسبانيا هذا القياس المنطقي ، وعلى ذلك أعلن لويس حرب الأيلولة (الوراثة الأسبانية) . فلنترك مذكرات الملك لآعب الشطرنج هذا يميظ اللثام عن دوافعه :

« لقد أتاح لي موت ملك أسبانيا وحرب الأنجليز مع الهولنديين ( ١٦٦٥ ) في وقت واحد فرصتين هامتين لخوض الحرب : محاربة أسبانيا سمياً وراء حقوق آل آل الى ، ومحاربة انجلترا دفاعاً عن الهولنديين . . . وسرني أن أرى في لحظة هاتين الحربين ميداناً فسيحاً قد يتيح لي فرصاً عظيمة للتفوق . وكان الكثيرون من الرجال البواسل ، الذين آست فيهم التفاني في خدمتي ، يتوسلون إلى على الدوام أن أهني لهم الفرصة لإظهار بسالتهم . . . يضاف إلى هذا أنني مادمت مضطراً على أية حال للاحتفاظ بجيش كبير ، فإنه انفع لي ان ألقى به في الأراضي المنخفضة من أن أطمعه على حسابي . . . وتحت ستار الحرب مع إنجلترا أستطيع ترتيب قواتي وهيئة مخبراتي ( أي جهاز الجاسوسية ) لأبدأ مغامرتي في هولندا بنجاح أعظم (١٢٤) » .

تلك هي النظرة المملكية إلى الحرب ، فقد تجعل الحرب بلد الملك أعظم مساحة أو أكثر أمناً أو أوفر دخلاً ، وقد تفتح طرق الشهرة والمنعة ، وقد تتيح منصرفات للفرانز المتصارعة ، وقد تيسر للجيش العالي النفقة أن يطعم على غذاء بلد أجنبي ، وقد تحسن موقف الدولة في الحرب القادمة . أما عن أرواح البشر التي ستعصدها الحرب ، فإن الناس لا بد أن يموتوا على أية حال وما أسخف أن يموت الرجل حتف أنفه ، ويقضى بعله بطيئة طويلة ، وأى ميتة أفضل للرجال من الموت في خدار المعركة على مساحة المجد ، وفي سبيل الوطن ؟ وعليه ففي ٢٤ مايو ١٦٦٧ عبرت الجيوش الفرنسية إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية . فلم تصادف مقاومة فعالة ، وكان عدد الفرنسيين ٥٠.٠٠٠ ر .

مقاتل ، والأسبان ٨٠٠٠ ر . وما لبث الملك أن دخل شارلوا ، وتورييه ، وكورتريه ، ودويه ، وليل ، وكأنه يدخلها في موكب نصر ، وحصن فوبان المدن المفتوحة ، أما لوفوا فقد جهز المؤن في كل خطوة ، حتى الصحف القضية للضباط في معسكراتهم أو خنادقهم . وضمت إلى فرنسا أرتوا ، وإينو ، وفلاندر الولونية ، واستغاثت أسبانيا بالامبراطور ليوبولد الأول ، فعرض لويس على ليوبولد قسمة الامبراطورية الأسبانية فيما بينهما ، ووافق ليوبولد ، فأمسك أي معونة عن أسبانيا . وبلغ من سهولة فتح فلاندر أن لويس هرع للاستيلاء على فرانش — كونتيه أيضاً ، وهو الإقليم الواقع حول بزاسون ، بين برجندية وسويسرا . وكان ولاية تتبع أسبانيا ، ولكنه شوكة في جنب فرنسا . وفي فبراير ١٦٦٨ هبط جيش فرنسي عدته عشرون ألف مقاتل على فرانش — كونتيه بقيادة كوندية ، وحالفه النصر في كل مكان ، لأن الرشا الفرنسية كانت قد ألانت القواد المحليين . وقاد لويس بنفسه حصار دول ، فسقطت بعد أربعة أيام . ولم تنقض ثلاثة أسابيع حتى استسلمت فرانش . كونتيه كلها . ففقل إلى باريس مكلا بالغار .

ولكنه كان قد أفسد على نفسه الأمر بتجاوزه الحدود ، ذلك أن « الأقاليم المتحدة » أقنعت السويد وإنجلترا بالانضمام إليها في حلف ثلاثي ضد فرنسا ( يوليو ١٦٦٨ ) وتبينت الدول الثلاث أن حريتها السياسية أو التجارية ستدوى إذا امتد سلطان فرنسا إلى الراين . ورأى لويس أنه تعجل السير إلى هدفه ، ذلك أن الاتفاق السري الذي أبرمه مع ليوبولد كال ينص على أن تقول إلى فرنسا كل الأراضي المنخفضة وفرانش — كونتيه عند موت شارل الثاني ملك أسبانيا ، وبدا أنه لن ينتفضي طام أو نحوه حتى يموت شارل العليل ، فلعله كان خيراً لفرنسا أن تقرّث حتى تقع الثمرة في حجرها بهدوء . وعرض لويس شروط الصلح على الحلف وأقنع دبلوماسيوه المنسكون إنجلترا والسويد ، فأنهت حرب الوراثة الأسبانية بمقتضى معاهدة إكس — لا — شابل ( ٢ مايو ١٦٦٨ ) وردت فرنسا فرانش — كونتيه إلى أسبانيا ، ولكنها احتفظت بشارلوا ، ودويه ، وتورييه ،

وأودينارد ، وليل ، وآرمانتيير ، وكورتريه . وهكذا استبقى لويس لنفسه نصف الغنيمة .

ولكنه في ١٦٧٢ طرد زحفه على الراين ، وتكشف الآن هدفه الحقيقي — وهو هولندية لا فلاندر . وسنلقى بنظرة على هذه المأساة في فصل لاحق من زاوية الهولنديين ، وحسبنا القول بأن الهجوم كاد يصل إلى أمستردام ولاهاي قبل أن يقفه فتح سدود البحر . ولكن أوروبا ثارت مرة أخرى على هذا التهديد الجديد لتوازن القوى . ففي أكتوبر ١٦٧٢ انضم الامبراطور ليوبولد إلى الأقاليم المتحدة وبراندنبورج في « حلف عظيم » ، وانضمت إليه أسبانيا واللورين في ١٦٧٣ ، ثم الدنمرك والبالاتينات ودوقية برنزيك — لوبيبورج في ١٦٧٤ ، وفي ذلك العام أكره البرلمان الإنجليزي ملكه الموالي لفرنسا على إبرام الصلح مع الهولنديين .

وواجه لويس ببسالة هذا الانتقام الذي عوقبت به كبرياؤه ، فجنى المزيد من الضرائب برغم شكوى كولبير من أنه يفقر بذلك فرنسا ، وبنى أسطولاً ، وزاد جيوشه إلى ١٨٠٠٠٠ مقاتل . وفي يونيو ١٦٧٤ وجه قوة منها لمحاصرة يزانسون ثمانية ، وما مضت ستة أسابيع حتى فتحت فرانك — كوفتية من جديد . وخلال ذلك قاد تورين في حملة من أروع حملاته وأقساها عشرين ألفاً من جنوده إلى النصر على سبعين ألفاً من جنود الامبراطورية . ودحر البالاتينات واللورين وجزءاً من الإلزاس ليعحول بين العدو وبين إطعام جنده ، وتكرر على طوال الراين ذلك الخراب الذي أحدثته من قبل حرب الثلاثين . وفي ٢٧ يوليو قتل تورين وهو يستطلع الأرض قرب سولزباخ في بادن ، ودفن بأمر لويس في كنيسة سان — دني باحتفال أشبه بالاحتفال بدفن الملوك ، وهو عليم بأن تلك الميثة الواحدة تعدل عشر هزائم . وحل « كوندية العظيم » محل تورين بعد ما حقق من انتصارات دامية في الأراضي المنخفضة ، فطرد جيوش الامبراطورية من الإلزاس ، ثم اعتكف ذلك « الأمير » بعد أن دوخته سنون من الشهوات والحرب ، مؤثراً حياة الفلسفة

والحكم في شانتى . واضطلع لويس الآن بالحملة في الاراضى المنخفضة ، فحاصر فالنسيين ، وكامبرى ، وسانتومير ، وغنت ، وإيبر ، واستولى عليها كلها ( ١٦٧٧ — ٧٨ ) . وهلت فرنسا لملكها قائداً مظفراً .

ولكن العبء الذى أثقل به كاهل شعبه لم يمدحتملاً . فنشبت الثورات في برردو وبرتنى ، وكان الفلاحون في جنوب فرنسا يتضورون جوعاً ، والشعب في الدوفينية يقتات على الخبز المصنوع من تمر البلوط والجذور ( ١٢٥ ) فلما عرض الهولنديون على لويس الصلح وقع معهم معاهدة ( ١١ أغسطس ١٦٧٨ ) ردت بمقتضاها للأقاليم المتحدة جميع الاراضى التى استولت عليها فرنسا منها ، وخفضت الرسوم التى أقصت المنتجات الهولندية عن فرنسا . وقد عوض عن هذه التنازلات بإلزام أسبانيا ، التى تفككت الآن أوصالها ، بأن تتخلى له عن فرانش — كوتيه ، واثنى عشرة مدينة دفعت بحسود فرنسا الشمالية الشرقية إلى داخل الاراضى المنخفضة الأسبانية . واحتفظت فرنسا بمقتضى معاهدة مع الامبراطور بمدينةتين استراتيجيتين هما برايزاخ وفرايبورج — ايم — برايسجاو ، وبقيت الألزاس والورين في قبضتها . وكانت هاتان للمعاهدتان — نيميغن ( ١٦٧٨ — ٧٩ ) وسان — جرمان — آن — ليه ( ١٦٧٩ ) نصراً للأقاليم المتحدة ، ولكنها لم تكونا هزيمة للويس ، فلقد فاز على الامبراطورية وأسبانيا ، ووصل في أماكن — هنا وهناك — إلى الراين الذى طالما اشتهى الوصول إليه .

على أنه احتفظ بمجيشه الضخم رغم هذا الصلح ، موقناً أن الجيش القائم قوة تعزز الدبلوماسية . واستناداً إلى تلك القوة من ورأه ، واستغلالاً مخزياً لانصراف الامبراطور إلى قتال العثمانيين الراحقين ، أشأ في الألزاس ، وفرانش — كوتيه ، وبرائسجاو « غرقاً لإعادة الاتحاد » ، تطالب ببعض مناطق الحدود التى كانت تملكها فيما مضى ، واحتل الجنود الفرنسيون هذه المناطق ، وأغرقت مدينة ستراسبورج العظيمة ، التى لين موظفيها إغداق الرشا عليهم ، بأن تعترف بلويس ملكاً عليها ( ١٦٨١ ) . وفى نفس

العام ، وبوسائل مماثلة ، أغرى دوق ميلانو بأن ينزل لفرنسا عن مدينة كازالى وحصنها ، وكانت تتحكم في الطريق بين سافوا وميلانو<sup>(\*)</sup> . فلما تلسكات أسبانيا في تسليم مدن الأراضى المنخفضة ، أرسل لويس جيوشه من جديد إلى فلاندر ويرايات ، وتغلب على المقاومة بقذفه البلاد بالمدافع دون تمييز ، وابتلع في طريقه دوقية لكسمبورج ( يونيو ١٦٨٤ ) . واعترفت أسبانيا والامبراطور مؤقتاً بهذه الفتوح بمقتضى هدنة ريمسبورج ( ١٥ أغسطس ) ، لأن العثمانيين كانوا يحاصرون فيينا آنشد . وبفضل تحالفه مع ناخب كولونيا مد لويس في الواقع سلطته إلى الراين . فتهقق بهذا جزء من طموح فرنسا للوصول إلى حدودها الطبيعية .

ذلك كان الأوج الذي بلغه « الملك الشمس » فلم يحدث أن ظفرت فرنسا بمثل هذا الاتساع في الرقعة ولا بمثل هذه السطوة منذ عهد شارلمان . وأقيمت المهرجانات الضخمة الغالية احتفالاً بانتصارات الملك . ولقبه مجلس باريس رسمياً بلويس العظيم . ( ١٦٨٠ ) ورسمه لبرون في صورة إله على أقبية فرساي ، وزعم لاهوتى أن انتصارات لويس أثبتت وجود الله ( ١٢٧ ) . أما جماهير الشعب فقد عجبت حاكمها وسط فقرها المدقع ، وتاهت فخرها بمنعته الواضحة ، وأطراه حتى الأجانب ، لأنهم رأوا في حملاته شيئاً من المنطق الجغرافى ، وحياء الفيلسوف لايدنز « ذلك الأمير العظيم الذى هو مفخرة زماننا غسير منازع ، والذى ستتوق الأجيال القادمة إلى نظيره عبثاً ( ١٢٨ ) » ، وإلى الشمال من جبال الألب والبرانس ، وإلى الغرب من الفستولا ، بدأت كل أوربا للثقفة تتحدث بلغته وتقلد بلاطه وفنونه وأساليبه . لقد بلغت الشمس الأوج .

(\*) لعل « الرجل ذا القناع الحديدى » هو الكونت ماتيولى الذى باع لأسبانيا ( ١٦٧٩ ) سر المفاوضات بين لويس ودوق ميلانو . وقد تكهن البعض بأنه هو ذاته ماركيولى ، السجين الغامض الذى أخفى وجهه خلف قناع من المخمل ( لا الحديد ) ، والذى مات في الباستيل في ١٧٠٣ ( ١٢٦ )

# الفصل الثاني

## بوتقة الإيمان

١٦٤٣ - ١٧١٥

### ١ - الملك والكنيسة

ينزع المورخ - كما ينزع الصحفي - إلى فقدان الخلفية العادية للعصر وسط الواجهة المثيرة للصورة التي يرسمها ، لأنه يعلم أن قراءه سيستطيون الشاذ ويحبون تجسيد العمليات والأحداث . ولكن وراء حكام فرنسا ، ووزرائها ، وحاشيتها ، ومحظياتها ، ومقاتليها ، كان هناك رجال ونساء يتنافسون على الرزق والرفقاء ، يزجرون أبناءهم ويحبونهم ، ياثمون ويعترفون . يأتهم ، يلهون ويتشاجرون ، يذهبون إلى أهمالهم متثاقلين وإلى المواخير متسترين ، وإلى الصلاة متواضعين متذللين . وكان طلب الخلاص الأبدى يقطع بين الحين والحين كفاح البقاء اليومي ، والحلم بالجنة ينتعش كلما ذلت شهوة الحياة ، وصحن الكنيسة الظليل يربح هنية من وطيس الصراع . وكانت أساطير المعجزات شعر الجاهير ، والقداس مسرحية خلاصهم المعزية ، وسمت الرسالة التي يحملها الكاهن بقلوب الفقراء المهزومين ولو كان هو ذاته رجلاً دينوياً جشعاً . وظلت الكنيسة المنافس للدولة ركيزة للمجتمع والسلطة ، لأنه بالرجاء أذعن الناس في صبر للعمل الشاق ، والقانون ، والحرب .

وعرف كبار الأكليروس الكاثوليك أهميتهم في معجزة النظام ، وشاركوا النبلاء والملك موارد الأمة وبهاء البلاط . وخالط الأساقفة ورؤساء الأساقفة في ألفة مهذبة أعلام القوم من طراز كوندية ، ومونبسنسيه ،

بوسفينييه ، وداعب المئات من الآباء — أنصاف المكرسين ، أنصاف المتزوجين — داعبوا النساء والأفكار . على أنه يمكن القول بوجه عام أن عقلية رجال الأكليروس الكاثوليك وأخلافتهم كانت خيراً مما عهدناه خلال قرون قبل ذلك ، ربما بحافز من منافسة القساوسة الهيجونوت<sup>(١)</sup> .

لم تسكن أديار الراهبات « سراتع الرذيلة » التي صورها جنون خالق الأساطير ، المنبعث من الكراهية للدين . فالكثير منها كان صوامع للورع الصادق ، الزاهد أحياناً ، كدير الكرمليات الذي اعتكفت فيه لويزدلا فالير ، وبعضها الآخر كان ملاذاً لشابات الأسر الكريمة اللاتي لم يجدن أباً أو هن لهن أزواجاً أو مهوراً ، أو اللاتي افتقرن إنعماً ، أو أسأن إلى حاكم أو ملك . في أديار كهذه لم ير نزيلاتها حرجاً في استقبال زائر من العالم الخارجي ، أو في مراقبة بعضهن البعض ، أو في قراءة الأدب الديني ، أو في تخفيف سأمهن بلعب البليارد أو الورق . وبإصلاح دير من هذه جعلت جاكين آرنو دير البور — رويال أشهر دير في تاريخ فرنسا .

على أننا لا نستطيع مثل هذا الحديث المتفرق عن الطرق الديرية ، فالكثير منها أرخى نظمه ، وحاش حياة التبطل ، والعبادة الصورية ، والالحاف في التسول . وقد أصلح « أرمان جان درانسيه » دير نوردام دلا تراب بنور منديا ، وأسس الطريقة الترابية الصارمة التي مازالت حية في صمت . ودخل اليسوعيون دخولاً أنشط في حياة فرنسا وتاريخها . كانوا في بداية القرن السابع عشر موضع توجس وريبة باعتبارهم مدافعين عن قتل الملك ، أما في نهاية القرن فقد كانوا كهنة اعتراف ومرشدين للملك — ثم أنهم كانوا خبراء في علم النفس . فحين أسست الراهبة مارجريت ماري ألاكوك بوحى من رؤيا صوفية تراوت لها ( ١٦٧٥ ) جمعية منقطعة للعبادة العلنية لـ « قلب يسوع المقدس » ، شجع اليسوعيون الحركة باعتبارها منفذاً وحافزاً لتقوى الجماهير . وفي الوقت نفسه يسروا الدين للخطاة إذ سلموا بأن



الخطيئة في طبيعة البشر ، ووضعوا علم « الإفتاء » سبيلا للتخفيف من عسر الوصايا العشر وللتلطيف من عصاب تأنيب الضمير ، وما لبث أن اشتد الطلب عليهم آباء اعتراف للخطاة ، واكتسبوا سلطة «مرشدي الضمائر» ، لاسيما بين النساء اللاتي سدن المجتمع الفرنسي ، واللاتي أثرن أحيانا في السياسة القومية للبلاد .

ولم يكن لكلمة « الافتاء » في القرن السابع عشر ذلك المدلول المبهين الذي الصقته بها رسائل إسكال الأقليمية . فقد كان يفترض في كل قسيس ، بوصفه أب اعتراف أو مرشدا روحيا ، أن يعرف بالضبط ما الذي يجب أن يعتبر خطيئة مميتة ، أو خطيئة هينة ، أو لا خطيئة على الإطلاق ، وكان عليه أن يستعد لتطبيق علمه ، والملازمة بين حكمه ، ونصحه ، والعقوبة الكنسية التي يشير بها ، وبين الحالة المائلة أمامه (Celsus) . وكان معلوم الناموس اليهود قد طوروا هذا الفن ، في التمييزات الخلقية ، بتفصيل مستفيض في الأجزاء القانونية من التلمود ، وحذا حذوهم التشريع والطب النفسي المصريان . وقبل أن تنشأ جماعة اليسوعيون بزمن مديد ، وضع اللاهوتيون الكاثوليك الأبحاث الضخمة في الافتاء لإرشاد السكاهن في أمر للبدا الخلق والتطبيق الاعترافي . ففي أي الحالات مثلا يجوز أن يبدى على حرفية القانون الخلقى روحه أو قصده ؟ ومتى يجوز للإنسان أن يكذب أو يسرق أو يقتل ، أو يحنت بوعده حنثا معقولا ، أو ينتهك عينا ، أو حتى ينكر العقيدة ؟

وطالب بعض المفتين بتفسير القانون الخلقى تفسيراً صارماً ، ورأوا أن الصرامة أجدى في المدى الطويل من التساهل . ولكن غير هؤلاء — ولا سيما اليسوعيين مولينا ، وإسكوبار ، وتوليدو ، وبوزنباوم — حذبوا دستوراً أخلاقياً متسامحاً ، وحضوا على ضرورة التماس العذر للطبيعة البشرية ، ومؤثرات البيئة ، والجهل بالقانون ، والمشقة البالغة في الامتثال الحرفي للقانون ، وعنف سورات العاطفة عنفا شبيها بالجنون ، وسائر الظروف

التي تعطل حربة الإرادة، وتيسر لهذه الأخلاقيات الهينة، وضع اليسوعيون مبدأ الترجيح — ومؤداه أنه إذا استحسن حجة معروف في اللاهوت الخلقى رأيا بعينه، جاز لكاهن الاعتراف أن يحكم طبقاً لهذا الرأى إذا استصوب ذلك، ولو طارضته كثرة الخبراء. (وكانت كلمة *Probabilis* تعني في ذلك الوقت المستحسن، أو الذى يسمع بالاستحسان<sup>(٢)</sup>). يضاف إلى هذا، فى رأى بعض المفتين اليسوعيين، أنه من المباح أحياناً أن يكذب الإنسان، أو يمكك من قول الحق بـ «تحفظ عقلى»، مثال ذلك أن للمسيحى الأسير، إذا أكره على الخيار بين الإسلام والموت، أن يتظاهر بقبول الإسلام دون أن يحسب ذلك خطيئة عليه. ثم إن أخلاقية حمل ما، فى رأى إسكوبار، ليست فى الفعل نفسه، الذى ليس فى ذاته أخلاقياً أولاً أخلاقى، بل فى نية الفاعل الخلقية، فليس هناك خطيئة مالم يكن هناك خروج واع، مختار، عن القانون الخلقى.

والكثير من إفتاء اليسوعيين كان توفيقاً معقولاً رحياً بين القواعد التى يغلب عليها زهد العصر الوسيط، وبين مجتمع اكتشف مشروعية الهذة. ولكن اليسوعيين فى فرنسا بصفة خاصة، وفى إيطاليا بدرجة أقل، طوروا الافتاء حتى بلغوا به من التسامح مع ضعف الطبيعة البشرية مبناً حمل رجالاً جادين كبسكال فى باريس، وساربنى فى البندقية، وكثيراً من اللاهوتيين الكاثوليك، ومنهم عدة يسوعيين<sup>(٣)</sup> — حمل هؤلاء جميعاً على الاحتجاج على ما رأوا فيه استسلاماً من المسيحية للخطيئة. وصادم هذا التراخى اليسوعى مع العالم والجسد مشاعر هيجوانوت فرنسا الذين ورنوا دستور كالفرن الخلقى الصارم. وقامت حركة قوية داخل الكاثوليكية ذاتها — وهى الجانسية — فرفعت فى دير البور — رويال لواء أخلاقية شبه كالقنية، فى حرب مناهضة لليسوعيين أهاجت فرنسا والأدب الفرامى قرناً كاملاً. وجرت هذه الحرب لويس الرابع عشر إلى الممركة، لأن كهنة اعترافه كانوا يسوعيين وتطبيقه للدين لم يكن متزمناً. وفى ١٦٧٤ اضطلع الأب لاشيز بالأشراف

على ضمير الملك ، وقد وصفه فولتير بأنه « رجل هادئ الطبع يسهل عنده التوفيق دائما <sup>(٤)</sup> » وقد شغل المركز اثنى وثلاثين سنة ، غفر خلالها كل شيء وحظى بمحبة كل إنسان . وقد قال لويس عنه « بلغ من طيبته أنني كنت أحيانا ألومه عليها <sup>(٥)</sup> » . ولما كان بطريقته الهادئة الصابرة كان له تأثير بالغ على الملك ، وأطاع على توجيهه إلى الاقتصار على امرأة واحدة آخر المطاف ، وإلى طاعة البابا .

ذلك أن لويس لم يكن دائما « بابويا » صادقا . كان متدينا على طريقته الرسمية ، ونذر أن قصر في حضور القداس اليومي <sup>(٦)</sup> . قال لولده في مذكراته :

« . . . واصلت تدريبات التقوى التي نشأتني عليها أمي ، من جهة لأشكر الله على كل الحظ الطيب الذي نلت ، ومن جهة لأكسب محبة شعبي . . . والحق يا بني أننا لا نفتقر إلى عرفان الجميل والأناصاف فحسب ، بل إلى الحكمة والفطنة أيضا ، حين نقصر في عبادته تعالى ، الذي لسنا إلانوابا له . وما خضوعنا له إلا القاعدة والمثل للخضوع الذي نستحقه <sup>(٧)</sup> » .

على أن هذا لم يشمل الخضوع للبابوية . ذلك أن لويس ورث التقليد « العالي » بمقتضى تفويض بورج البرجاني ( ١٤٨٣ ) وكوركوردا فرسوا الأول ( ١٥١٦ ) — ذلك التقليد الذي أقر حق ملوك فرنسا في تعيين أساقفه فرنسا ورؤساء أديارها ، وتحديد دخولهم ، والتعيين في جميع الوظائف الكنسية ذات الدخول في الفترة بين موت الأسقف وتنصيب خلفه . وقد آمن لويس أنه خليفة لله أو ممثله في فرنسا ، وأن خضوعه للبابا ( بوصفه هو أيضا خليفة لله ) يجب أن يقصر على شئون العقيدة والأخلاق ، وأن على رجال الأكليروس الفرنسيين أن يطيعوا الملك في كل أمر يتصل بالدولة الفرنسية .

واستندكر فريق من الأكليروس هذه الدهوى — وهم المناصرون للسيادة

البابوية المطلقة — وأيدوا سلطان البابوات المطلق على الملوك والجامع وتميين الأساقفة ، ولكن الغالبية — وهم الحزب الغالي — دافعوا عن استقلال الملك الكامل في الأمور الزمنية ، وأنكروا عصمة البابا إلا إذا وافق عليها مجمع مسكوني ، ورأوا في الروغان من سيطرة روما منفعة للكليروس الفرنسي . وصرح أمير كونديه أن من رأيه أنه لو طاب للملك أن يتحول إلى المذهب البروتستانتي لكان رجال الأكليروس الفرنسي أول من يتبعه (٨) . وفي ١٦٦٣ أصدرت السوربون — وهي كلية اللاهوت في جامعة باريس — ست مواد تؤكد الموقف الغالي . واتخذت « البرلمانات » الفرنسية ذات الموقف ، وأيدت لويس في دعواه بحقه في أن يقرر أي المراسيم البابوية ينبغي نشره وقبوله في فرنسا . وفي ١٦٧٨ احتج البابا أنوسنت السادس على هذه النزعة الغالية ، وحرّم رئيس أساقفة تولوز لأنه عزل أسقفًا قاوم هذه النزعة . ودعا الملك مجمعا من الأكليروس ، كلهم تقريبا من اختياره . وفي مارس ١٦٨٢ أطاد المجمع تأكيد مواد السوربون الست ، ووضع لنفسه المواد الأربع الشهيرة ، التي كادت تفصل الكنيسة الفرنسية عن روما :

١ — للبابا سلطان في الأمور الروحية ، وليس له سلطان عزل الأمراء أو حل رعاياهم من طاعتهم .

٢ — للمجامع المسكونية سلطان فوق سلطان البابا .

٣ — الحريات التقليدية للكنيسة الفرنسية لا يجوز انتهاكها .

٤ — لا عصمة للبابا إلا بموافقة مجمع الأساقفة .

وأعلن أنوسنت بطلان قرارات المجمع ، ورفض التنصيب القانوني لجميع الأساقفة الجدد الذين وافقوا على المواد . وإذ كان لويس لا يمين إلا أمثال هؤلاء المرشحين ، فقد شغرت في ١٦٨٨ نحو خمس وثلاثين أسقفية من أساقفتها القانونيين . على أن الشيخوخة ومدمام دمايتون كانا قد الانا جانب الملك ، ثم أراحه الموت من ذلك البابا العنيد . وفي ١٦٩٣ — مع لويس

لمشحيه إن ينكروا المواد ، وأقر البابا أنوسنت الثاني عشر حق الملك في  
القيينات الأسقفية ، وأصبح لويس من جديد « الملك المسيحي جداً »  
Rex Christianissimus .

## ٢ - البور - رويال : ١٢٠٤ - ١٦٢٦

كانت الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة أهون الدرامات الدينية الثلاث  
التي اضطرم بها حكم لويس . فقد فاقها عمقا ذلك الصراع الذي احتدم بين  
الكاثوليكية السنية التي دانت بها الدولة والأكيروس ، وكاثوليكية  
الجانسينيين والبور - رويال القريبة من البروتستنتية ، وكان أعرق هذه  
المسرحيات وأشدّها فجعية هو القضاء على الهيغونوت في فرنسا . ولكن  
ما هو البور - رويال هذا ، ولم هذا الضجيج الكثير من حوله في التاريخ  
الفرنسي ؟ لقد كان ديراً لراهبات الطريقة السيسترسية Cistercian على نحو  
مئة عشر ميلاً من باريس وستة أميال من فرساي ، في مكان وطيء تسكنه  
المستنقعات ، وصفته مدام دسفينيه بأنه « واد رهيب ، هو بالضبط  
المكان الذي يجد فيه الإنسان خلاصه (٩) » . أسس حوالي ١٢٠٤ ، ونجا  
بشق الانفس من الانقلابات الكثيرة التي تعرض لها في حرب مائة العام  
والحروب الدينية . وقد اضطلع نظامه وتناقضت راهباته ، ولعل الدير كان  
يحتفي عن الانظار لولا أنه خضع لرأسه جاكين آرنو ، وجرد للدفاع عنه  
قلم بلينز إسكال .

لقد صنع أنطوان آرنو الأول ( ١٥٦٠ - ١٦١٩ ) التاريخ ببلاغته  
ووفرة ذريته . ففي ١٥٩٣ ، بعد أن حاول باريير اغتيال هنري الرابع ،  
وجه آرنو إلى برلمان باريس خطاباً غاضباً طالب فيه بطرد اليسوعيين من فرنسا .  
ولم يصغحوا عنه بعدها ، وكانوا ينظرون بعين نقادة منذرة بالشر إلى مآثرهم  
به أسرته في البور - رويال . وكان لأربعة على الأقل من بين أبنائه -  
البالغين نيفاً وعشرين - دور في قصة ذلك الدير . فقد عينت جاكين آرنو  
٦ - قمة المضارة

مساعدة لرئيسة دير البور — رويال وهى فى السابعة (١٥٩٨) وبعد عام أصبحت شقيقتها جان ، البالغة ستة أعوام ، رئيسة لدير سان — سير . وكان التعيينان بأمر هنرى الرابع ، وثبتهما مرسومان بابويان أمكن الحصول عليهما بتزيف صهر الفتاتين (١٠) . ولعل أباهما الخمس لابنتيه هاتين الوظيفتين بديلا عن العثور على زوجين ومهرين لهما .

فلما أصبحت جا كلين ، بوصفها الأم آنجليك ، رئيسة إسمية لدير — رويال (١٦٠٢) لم تجد غير أرخى النظم بين راهباته الثلاث عشرة ، فقد كانت كل منهن تحتفظ بثروتها ، وتكشف شعرها ، وتستعمل مستحضرات التجميل ، وتتبع أحدث الأزياء . وقل أن تناولن الأسرار المقدسة ، ولم يستمن لأكثر من سبع عظمات خلال ثلاثين عاما (١١) . فلما ازداد وعى الرئيسة الشابة بالحياة التى ألزمها إياها أبواها ، سخطت ونوت الهروب (١٦٠٧) . « فسكرت فى مغادرة البور — رويال والعودة إلى العالم — دون إحاطة أبى أو أمى بنيتى ، لأهرب من هذا الدير الذى لا يطاق ، ولأتزوج » . (١٢) ومرضت ، فحملت إلى بيتها ، وهناك مرضتها أمها بكثير من الرعاية الحانية حتى عادت إلى البور — رويال عقب إبلالها وهى مصممة على الوفاء بنذورها الديرية حبا فى أمها . على أنها أوصت بعشد من عظم الحوت لتحفظ لقوامها نحافته (١٣) . وظلت تخفى نفورها من الحياة الدينية إلى أن سمعت فى عيد القيامة عام ١٦٠٨ عظة ألقاها راهب كبوشى عن آلام المسيح ، وكانت يومها فى ميعة الصبا . قالت تروى الحدث فيما بعد « خلال هذه العظة لمسني الله لمسة جعلتني أحس منذ تلك اللحظة بأنني أسعد حالا فى حياة الرهبنة . . . ولا أدري أى شئ كنت أحجم من فعله لله إذا واصل تعالى هذه الحركة التى منحني إياها نعمته (١٤) » . ذلك ، فى لغتها ، كان « أول عمل للنعمة » ( أى اللطف الإلهى ) .

وفى أول نوفمبر من ذلك العام ملأها عظة أخرى — هى « ثانى أعمال

النعمة « شمورا بالخزى من شدة تراخيها وتراخي راهباتها في الوفاء بما نذرن من فقر وعزلة . وإذ كانت ممزقة بين حبها للراهبات ورغبتها في فرض نظام الطريقة السسترسية ، فقد رأت عليها الكآبة ، ومارست ألوانا من التقشف لم يقو عليها جسدها ، فأصابها الحمى . ولا بد أنها كانت لطيفة محبة إلى النفوس ، وآية ذلك أنه حين سألتها الراهبات عن السر في حزنها ، وصارحتهن برغبتها في أن يرجعن إلى التزام نظام رهبتهن بمخافته ، ارتضين حكمها ، وجمعن كل ممتلكاتهن الخاصة ، وأخذن العهد على أنفسهن بالفقر الدائم .

أما الخطوة الثانية ، وهي اعتزال العالم ، فكانت أشد إيلا . فقد حظرت الأم أنجليك على الراهبات أن يغادرن الدير ، أو يستقبلن الزوار — حتى أقرب الأقرباء — دون إذن صريح ، فإذا استقبلتهم في قاعة الاستقبال دون غيرها . وشكون مما سيكلفهن هذا من عنت شديد . ولكي تعطيهن القدوة الحسنة المشددة لعزائمهن صممت ألا ترى أبويها في زيارتهما التالية إلا من نافذة ذات شبك أو « شيش » في الباب الفاصل بين قاعة الاستقبال وحجرات الدير . فلما حضر أبواها راعهما أنها لا تريد التحدث إليهما إلا من خلال هذا الشباك . . وأصبح « يوم الشباك » *journee du guichet* ( ٢٥ سبتمبر ١٦٠٩ ) يوما مشهورا في الأدب الدائر حول البور — رويال .

وهذا غضب الأسرة المقصاة ، وتأثر أفرادها بورع الأم أنجليك ( التي بلغت الآن الثامنة عشرة ) تأثرا حمل الفتاة تلو الفتاة من بيت آرنو على دخول البور — رويال . ففي ١٦١٨ ، أخذت شقيقتها آن أوجنى على نفسها عهد الرهبنة . ولحققتها شقيقات أخريات بعد قليل — كاترين ، ومارى ، ومادلين . وفي ١٦٢٩ ، جثت أمهن الأرملة عند قدمي الأم أنجليك ملتزمة قبورها مبتدئة بنى الرهبنة ثم أخذت العهد في الوقت المناسب ، وطاشت في تواضع وسعادة

تحت رئاسة ابنتها ، وراحت تدعوها منذ الآن بالأم . وقد حمدت الله وهي تحتضر ( ١٦٤١ ) لأنها قدمت ستاً من بناتها للحياة الدينية . ودخلت خمس من حفيداتها البور — رويال في فترة لاحقة . وأصبح ابنها رويير وثلاثة من حفيدتها « متوحدين » هناك ، وأصبح ألمع أبنائها ، وهو انطوان آرنو الثاني ، عضو السوربون ، فيلسوف البور — رويال ولاهوتيه . وإنا لياخذنا المعجب لهذه الخصوبة ، ولا نملك غير الاحترام لمثل هذا العمق في التعبد والولاء والإيمان (\*) .

وقادت الأم أنجليك قطيعها خطوة بخطوة عـوداً إلى نظام الرهبنة السترسية الكامل . خففت الراهبات ، اللاتي بلغ عددهن الآن ستاً وثلاثين ، جميع الأصوام بدقة تامة ، ومارسن الصمت فترات طويلة ، واستيقظن في الثانية صباحاً لترتيل تسبحة الصباح ، ووزعن الصدقات على فقراء الجيران من مالهن المشترك . وسرت الإصلاحات من البور — رويال ، وأرسلت الراهبات اللاتي دربن فيه الأديار في جميع أرجاء فرنسا لحضما على العودة إلى سابق نظمها . من ذلك أن ديرافى موبويسون كان شديد الإنحلال ، وقد استعمله هنرى الرابع من قبل مكان لقاء مع خليلته جابرييل دمتريه ، وكانت رئيسته محاطة ببناتها غير الشرعيات ، وكان الراهبات يخادرن ديرهن دون قيد ليلقين ويراقصن رهبان دير مجاور (١٦) . وفي ١٦١٨ طلب رؤساء الأم أنجليك إليها أن تحمل محل رئيسة دير موبويسون ، ومكثت هناك خمس سنوات ، فلما طادت إلى البور — رويال تبعتها اثنتان وثلاثون راهبة إلى الدير الأم الذي انبعث منه نور الإصلاح .

وفي ١٦٢٦ ظهر وباء الملاريا في البور — رويال ، وإذ نبه بعضهم أنجليك

---

(\*) لاحظ سانت — بيث أن « عدة شابات ممن بينهن راهبات البور — رويال كن قد أصبن بالجدري فتشوهت وجوههن في سن مبكرة » ، وأضاف في خبث « لا أريد أن أقول أننا لا نهب الله إلا ما فقد قيمته في هذه الدنيا » (١٥) .



إلى مافى جوالدير الرطب من خطر ، فإنها انتقلت مع راهباتها إلى منزل  
بباريس . وهناك ، وتحت تأثير الجانسانية ، دخلن معركتهن التاريخية مع  
اليسوعيين والملك . وسرعان ما احتل « المتوحدون » المباني المهجورة  
المتهدمة في البور — رويال — دى — شان ، وكانوا رجالا رغبوا في أن  
يحيوا حياة أقرب إلى الحياة الديرية وان لم يندروا أنفسهم المهرينة . ووفد  
على المكان نفر من آل آرنو — أنطوان الثانى ، وأخوه روبير آرنوداندى ،  
وابنا أختيه أنطوان لوميتير وسيمون لوميتير دسريكور ، وحفيده إسحاق  
لوى ساسى ، وانضم إليهم بعض رجال الكنيسة ، أمثال بيير نيكول  
وأنطوان سانجلان ، لابل بعض النبلاء أمثال الدوق دلون والبارون  
دبرنشاو . وراحوا يصرفون معاميات المستنقعات ، ويحفرون الخنادق ،  
ويرمون المباني ، ويعنون بالبساتين والحدائق . وكانوا — جماعة أو فرادى —  
يمارسون ألوانا من الفنون ، ويصومون ، ويرتلون ، ويصلون ، ويلبسون  
لباس الفلاحين ، ويمتنعون عن تدفئة غرفهم في البرد القارس . وكانوا  
يدرسون الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة ، وقد ألفوا كتبها فيها  
تعبد وتفقه ، وأحد هذه الكتب ، واسمه « فن التفكير » ، وهو من  
تأليف نيكول وآرنو الصغير ، ظل كتيباً محبوباً في المنطق حتى  
القرن العشرين .

وفي ١٦٣٨ افتتح المتوحدون « مدارس صغيرة » دعوا إليها أطفالا  
اخترأوهم من سن التاسعة أو العاشرة ، وعلموهم الفرنسية ، واللاتينية ،  
واليونانية ، والنواحي السنية في فلسفة ديكارت . وطلب إليهم أن يجتنبوا  
الرقص والمسرح ( وكلاهما وافق عليه اليسوعيون ) ، وان يصلوا كثيراً ،  
ولكن ليس للقديسين ، ولم تكن هناك صور دينية في الكنيسة الصغيرة  
التي يسمعون فيها القداس . وفي البور — رويال — دى — شان ، والبور —  
رويال — د — بارى ، أصبح اعتراض تقوى آل آرنو على قساد البلاط ،

اعتراضاً آخر من اللاهوت والأخلاق الجانسنية الصارمة على تيسير اليسوعيين للمسيحية حتى توائم الطبيعة البشرية .

### ٣ — الجانسنيون واليسوعيون

كان كورنيليس جانسن هولندياً ، ولد في ولاية أوترخت لأبوين كاثوليكين ، ولكنه تأثر تأثراً عميقاً باللاهوت الأوغسطيني الذي دان به جيرانه الكالفنيون . فلما التحق بجامعة لوفان الكاثوليكية ( ١٦٠٢ ) وجدها مضطربة بمجدل عنيف بين الحزب اليسوعي أو السكولاستي ، وشيعة تتبع الآراء الأوغسطينية التي نادى بها ميخائيل بايوس في الجبرية والنعمة الإلهية . وانحاز جانسن إلى الأوغسطينيين . وفي الفترة بين دراسته السابقة للتخرج وعمله أستاذاً ، قبل جانسن دعوة وجهها إليه زميل يدعى جان دوفرجييه دهوران ليعيش معه في بايون . وقد درسا القديس يواس والقديس أوغسطين ، واتفقا على أن خير سبيل للدفاع عن الكاثوليكية ضد الكالفنيين الهولنديين والهيجرونوت الفرنسيين هو الاقتداء بأوغسطين في تشديده على النعمة الإلهية والجبرية ، وتأسيس دستور أخلاق صارم بين الأكايروس والعلمانيين الكاثوليك ، يفضح الانحلال المنتشر في البلاط والأديار ، كما يفضح أخلاقيات اليسوعيين الهينة اللينة .

وفي ١٦١٦ ، بينما كان جانسن رئيساً لبيت للطلاب الهولنديين في لوفان ، هاجم لاهوت اليسوعيين في حرية الإرادة ، وبشربيبورتاية صوفية قريبة من التقوية التي كانت بسبيل التشكل في هولندا ، وإنجلترا ، وألمانيا . ثم واصل الحرب أستاذاً لتفسير الكتاب المقدس بلوفان ، وأسقفها لأبير . وترك عند موته ( ١٦٣٨ ) رسالة كبيرة — لم ينجزها تماماً — عنوانها « أوغسطينوس » ، ما لبثت بعد نشرها في ١٦٤٠ أن أصبحت البرنامج العقائدي

لبور — رويال ، ومثار الجدل في اللاهوت الكاثوليكي الفرنسى طوال قرن تقريبا .

ومع أن الكتاب اختتم بلفتة خضوع لكنيسة روما ، فإن كالفينى الأراضى المنخفضة رحبوا به بوصفه لب الكالفنية وجوهرها (١٧) . فقد قبل جانسن الجبرية قبولا تاما كما قبلها أوغسطين ولوثر وكالفن من قبل . حتى قبل أن يخلق الله العالم ، اختار تعالى أولئك الرجال والنساء الذين ينبغى أن يخلصوا ، وقرر من ينبغى أن يهلكوا ؛ وأعمال البشر الصالحة ، وإن تكن ذات قيمة ، لا يمكن أن تكسبهم الخلاص دون معونة من النعمة الإلهية ، وقليلون هم الذين سيخلصون حتى بين القلة الصالحة . أما الكنيسة الكاثوليكية فلم تكن أبكرت صراحة جبرية القديس بولس والقديس أوغسطين ، ولكنها تركتها تتوارى في خلفية تعليمها ، لصعوبة التوفيق بينها وبين حرية الإرادة ، التى بدا أنها شرط لاغنى عنه — منطقيا — للمسئولية الخلقية والفكرة الخطيئة . ولكن إرادة الإنسان فى رأى جانسن ليست حرة ، فقد فقدت حريتها بخطيئة آدم . وأصبحت طبيعته الإنسان الآن فاسدة فسادا يعجزه عن تخليص نفسه ، ولا يمكن أن يخلصه غير نعمة الله التى اكتسبها بموت المسيح . أما دفاع اليسوعيين عن حرية الإرادة فقد بدا لجانسن أنه يغالى فى دور الأعمال الصالحة فى نيل الخلاص ، ويجعل موت المسيح ، ذلك الموت الذى افتدى الخطاة ، أمرا لا ضرورة له تقريبا . ثم به إلى أننا يجب ألا نأخذ المنطق مأخذ الجد الشديد ، فالعقل ملكة أدنى بكثير من الإيمان الواثق المسلم ، تماما كما أن للممارسات الطقسية ضرب من الدين أدنى من اتصال النفس المباشر بالله .

وقد وصلت هذه الأفكار إلى البور — رويال بطريق دو فرجييه ، الذى كان أثناء ذلك قد أصبح رئيسا لدير سان — سيران . وقد وفد مسيودسان — سيران ، كما مى الآن ، على باريس وهو يتقد غيرة وتحمسا

لإصلاح اللاهوت والأخلاق ، وليستبدل التقوى الباطنة بالندين الظاهر وسرعان ما قبل مرشدا روحيا للراهبات في البور — رويال — دباري ، وللمتوحدين في البور — رويال دي — شان ( ١٦٣٦ ) ، وغدت هذه المؤسسة المزدوجة صوت الجانسية ونموذجها الأمثل في فرنسا . أما ريشليو فقد رأى في هذا المصلح رجلا متمصبا مثيرا للقلق ، فاعتقله في فانسين ( ١٦٣٨ ) . وفي ١٦٤٢ أفرج عن سان — سيران ، ولكنه مات بالفالج بعد سنة .

وقد ظل يلهم الكثيرين من آل آرنو حتى وهو في سجنه . فنشر آرنو الثاني « آرنو الكبير » في ١٦٤٣ رسالة في « كثرة تناول الأسرار المقدسة » واصلت حرب أبيه مع اليسوعيين . ولم يذكر اسمهم صراحة ، ولكنه ندد بفكرة أحس بأن بعض الكهنة الاعتراف يتساحون فيها ، وهي أن في قدرة الخطي أن يكفر عن خطيئته المتكررة إذا أكثر من الاعتراف وتناول القربان . وشعر اليسوعيون بأنهم المفصودون بهذا الهجوم ، فشدوا النكير على آل آرنو . وتوقع أنطوان المتأصب ، فرحل عن باريس إلى البور — رويال — دي — شان . وفي ١٦٤٨ رحلت الراهبات أيضا عن العاصمة وقد روعتهن حرب الفروند وعدن إلى مقرهن القديم . وأُخلى المتوحدون المسكان وانتقلوا إلى مزرعة قريبة تدعى ليجرانج .

كان البابا أوربان الثامن قد أدان ( ١٦٤٢ ) العقيدة العامة التي انطوى عليها كتاب جانسن « أوغسطينوس » . وفي ١٦٤٩ طلب أستاذ في السوربون إلى الكلية أن تدين سبع قضايا في الكتاب رغم أنها تحظى برواج شديد . وأحيل الأمر إلى إنوسنت العاشر ، وانتهر اليسوعيون الفرصة ليقنعوا البابا بما تنطوى عليه الجانسية من أخطار بوصفها لاهوتا كالفنيا يتخفى في ثوب كاثوليكي . وأخيرا حملوه على إصدار مرسوم Cum occasione ( ٣١ مايو ١٦٥٣ ) ، حكم بالهرطقة على خمس قضايا زعم أنها مأخوذة من كتاب « أوغسطينوس » :

١ - هناك تعاليم الهية يعجز الصالحون عن طاعتها عجزا مطلقا رغم إرادتهم .

٢ - لا يستطيع إنسان أن يقاوم تأثير النعمة الإلهية .

٣ - لكي تكون أعمال البشر أهلا أو غير أهل للمكافأة والتقدير لا يشترط أن تكون خلوا من الضرورة القاهرة ، بل يكفي أن تكون بلا ضغط أو كبت .

٤ - هذه الهرطقة ، الشبيهة بهرطقة بيلاجيوس ، مؤداها السماح لإرادة الإنسان بأن تمنع قوة مقاومة النعمة ، أو الامتناع لتأثيرها .

• - كل من زعم أن المسيح مات ، أو سفك دمه ، للبشر جميعا ، هو شبيهه ببيلاجيوس (١٨) .

هذه القضايا لم تؤخذ حرفيا من كتاب « أوغسطينوس » ، ولكنها صيغت بقلم أحد اليسوعيين تلخيصا لتعليم هذا الكتاب . وهي كخلاصة فيها قدر لا بأس به من الانصاف (١٩) ، ولكن الجانسينيين احتجوا بأن القضايا ، بهذا الوصف ، لا توجد عند جانسن - وإن كان آرنو قد ألمع في خبث إلى أنه يمكن العثور عليها كلها عند القديس أوغسطين . وفي غضون ذلك لم يقرأ الكتاب أحد فيها يبدو .

وكان أنطوان آرنو مقاتلا بالفطرة . فأقر بعصمة البابا في أمور الإيمان والأخلاق ، لافي الأمور المتصلة بالحقيقة الواقعة ، ومن الحقائق الواقعة أنه أنكر أن جانسن قرر هذه القضايا المحكوم بإدانتها . وفي ١٦٥٥ ماذ إلى مقاتلة اليسوعيين في عقر دارهم بنشره « رسائل إلى دوق وبييل » ، وقد هاجم فيها الأساليب التي زعم أنها أساليب اليسوعيين في كرمي الاعتراف ورحبت السوربن باقتراح بطرده . فأعد دقاعه ، وقرأه على أصحابه في البور - رويال فلم يقع من شوهم موقعا ذا بال ، وكان أحدهم

مريدا جديدا يدعى بليز بسكال . فأتجه إليه آرنو وأهاب به قائلا : « أنت  
أيها الشاب ، لم لا تكتب شيئا (٢٠) ؟ » واعتكف بسكال في حجراته ،  
وكتب أول « رسائله الإقليمية » وهو من عيون الأدب والفلسفة الفرنسيين .  
وينبغي أن نستمع إلى بسكال في شيء من الإسهاب ، لأنه لم يكن أعظم  
كتاب النثر الفرنسي فحسب ، بل ألمع المدافعين عن الدين في عصر  
العقل بأكمله .

## ٤ - بسكال : ١٦٢٣ - ٦٢

### ١ - بسكال الإنسان

كان أبوه إتيين بسكال رئيسا لمحكمة المعاوين بسكايرون - فيران في  
وسط فرنسا الجنوبي . وماتت أمه بعد مولده بثلاث سنين ، خلفته فضلا عنه  
أختا أكبر منه تدعى جلبرت وأخرى أصغر تدعى جاكين . وانتقلت الأسرة  
إلى باريس حين بلغ بليز الثامنة . وكان إتيين يدرس الهندسة والفيزياء ،  
وقد اتاح له تفوقه فيهما أن يصادق جاسندي ، وميرسين ، وديكارت .  
وكان بليز يسترق السمع لبعض لقاءاتهم ، فأصبح في الفترة الأولى من حياته  
حاشقا للعلم . فلما بلغ الحادية عشرة ألف رسالة قصيرة عن أصوات الأجسام  
المتذبذبة . وخيل للأب أن ولع الصبي بالهندسة سيلحق الأذى بدراساته  
الأخرى ، فحظر عليه حينئذ أن يمضي في عكوفه على الرياضيات . ولكن حدث  
يوما - فيما روى - أن إتيين وجدده يكتب على الحائط بقطعة من الفحم  
البرهان على أن زوايا المثلث الثلاث تساوي زاويتين قائمتين (٢١) ، وبعدها  
سمح للغلام أن يدرس أفليدس . وقبل أن يبلغ السادسة عشرة كتب بحثا في  
القطاعات المخروطية فقد أكثره ، ولكن إحدى نظرياته كانت مساهمة خالدة  
في ذلك العلم ، وما زالت تحمل اسم .  
ديكارت أبي أن يصدق أنه من وضع الابن لا الأب .

في ذلك العام (١٦٣٩) لعبت أخته الجميلة جا كلين دوراً مشيراً في حياة الأسرة ، وكانت آتمذ في الثالثة عشرة . ذلك أن الأب كان قد استثمر بعض المال في السندات البلدية ، وخفض ريشليو نسبة الفائدة التي تؤدي عن هذه السندات ، فالتقده إيتين ، وهدد الكردينال بالقبض عليه ، فاختبأ في أوفرني . ولكن الكردينال كان يحب التمثيليات والبنات ، وقامت بعض الفتيات — ومنهن جا كلين — بتمثيل مسرحية سكوديري « الحب الظالم » أمامه ، فشرح تمثيلها صدره ، واغتنمت هي الفرصة وتوسلت إليه أن يصنع عن أبيها ، ففعل ، وعينه ناظراً ملكياً في روان عاصمة نورماندي ، وإليها انتقلت الأسرة في ١٦٤١ .

وهناك اخترع بليز أول آلاته الحاسبة العديدة المحفوظ بعضها إلى الآن في كونسرفتوار الفنون والصنائع بباريس ، وكان يومها في التاسعة عشرة . أما المبدأ الذي قامت عليه فهو سلسلة من التروس ينقسم كل منها إلى تسعة أرقام وصفر ، ويحرك كل منها ليدور عشر دورة نظير كل دورة كاملة للترس الذي إلى يمينه ، ويظهر كل منها رقمه الأعلى في ثقب عند القمة . ولم تكن الآلة تستطيع غير الجمع ، ولا كانت عملية من الناحية التجارية ، ولكنها قربت من بداية تطور يشير اليوم دهشة العالم ، وأهدى إسكال إحدى آلاته الحاسبة إلى كرستينا ملكة السويد ، مشفوعة بخطاب اطراء بليغ جداً ، فدعته إلى قصرها ، ولكنه أحس بأنه أضعف من أن يحتمل ذلك للناخ الرهيب .

وكان العالم الشاب المتحمس شديد الاهتمام بالتجارب التي نشرها تورتشيلي عن وزن الهواء ، وطرأت على خاطر إسكال فكرة كان فيها مستقلاً عن تورتشيلي ، ولكن ربما استوحاها من اقتراح ليدكارت (٢٢) ، ومؤداها أن الزئبق في أبوبة تورتشيلي يرتفع إلى مستويات مختلفة في ماكن مختلفة ، حسب اختلاف الضغط الجوي . فطلب إلى زوج أخته في أوفرني أن يحمل أبوبة زئبق إلى قمة جبل ، وبلاحظ أي فرق — على مختلف

المستويات — في ارتفاع الزئبق في الجزء المتقل من أنبوبة فتتح طرفها الآخر لضغط الهواء. وفعل فلوران يرييه كما طلب إليه ، في ١٩ سبتمبر ١٦٤٨ ارتقى مع بعض أصحابه « بوى ددوم » ، الذي يرتفع خمسة آلاف قدم فوق مدينة كليرمون — فيران ، وهناك ارتفع الزئبق إلى ثلاث وعشرين بوصة في الأنبوبة ، بينما ارتفع عند سفح الجبل إلى ست وعشرين ، وهلمت أوربا كلها للتجربة لأنها أثبتت نهائياً مبدأ البارومتر وقيمته .

وتلقى بسكال بفضل شهرته عالمياً ( ١٦٤٨ ) نداءً مثيراً من مقامر طلب إليه أن يضع قانوناً لرياضيات الحظ أو الصدفة ، فقبل التحدي ، واشترك مع فيرما في وضع حساب الاحتمالات ، الذي ينتفع به الآن كثيراً في جداول التأمين من المرض والموت . ولم تبد عليه في هذه المرحلة من نموه أى بادرة بأنه سينقل يوماً ما ولائه من العلم إلى الدين ، أو يفقد إيمانه في المنطق والتجريب ، وواصل العمل عشر سنين في المعضلات العلمية لاسيما الرياضية منها ، وفي تاريخ متأخر ( ١٦٥٨ ) عرض جائزة من مجهول في تربيع الدويرى — وهو الخط المنحني الذي تمسده نقطة على دائرة تدحرج على خط مستقيم فوق سطح مستو . وتقدم بالحلول واليس ، وهو بجنز ، ورن ، وغيرهم ، ونشر بسكال بعد ذلك حله ، تحت اسم مستعار ، وأعقب ذلك جدل سلك فيه المتنافسون ، ومنهم بسكال ، مساكالم يتسم بالكثير من الفلسفة .

وتسلط على حياته خلال ذلك مؤثران أساسيان ، المرض والجائسنية . ذلك أنه منذ كان فتي في الثامنة عشرة عانى من علة عصبية قل أن تركته يوماً بخير ألم . وفي ١٦٤٧ أقعدته إصابة بالشلل لم يستطع بسببها المشي إلا إذا توكأ على عسكازين . كان رأسه يصدع ، وأمعاؤه تلهب ، وساقاه وقدماه دأمة البرودة والحاجة إلى الوسائط المرهقة لتنظيف دورته الدموية ، وكان يلبس الجوارب الطويلة المقنوعة في البراندى النحاسي لدفع قدميه .



وكان مما حمله على الانتقال إلى باريس مع جاكلين أن يجد علاجاً طبياً أفضل ، وتحسنت صحته ، ولكن جهازه العصبي كان قد لحق به أذى مستديم . فأصبح منذ ذلك الحين عرضة لأوهام ازداد عمقها على الأيام حتى أثرت في خلقه وفلسفته ، فبات سريع الإفعال ، فريسة لنوبات من الغضب المتكبر العائى ، وقل أن أشرق وجهه بابتسامة (٢٣) .

وكان أبوه طيله حياته كاثوليسكياً تقياً بل صار مأوساً وسط شواغله العلمية ، وقد علم أبناءه أن الإيمان الديني أنتم ما يملكون ، وأنه شئ بعيد كل البعد عن متناول أو عن حكم قوى التفكير الضعيفة التى يملكها البشر . وفى روان أصيب الأب بحرج خطير فعالج به طبيب جانسنى بنجاح ، ومن هذا الاتصال اتخذ إيمان الأسرة مسحة جانسنية ، فلما انتقل بليز وجاكلين إلى العاصمة كثرت اختلافهما إلى القداس فى البور — رويال — د — بارى ، ورغبت جاكلين فى دخول الدير راهبة ، ولكن أباهما لم يستطع أن يروض نفسه على السماح لها بالخروج من حياته اليومية ، ولكنه مات عام ١٦٥١ ، وما لبثت جاكلين أن ترهبت فى البور — رويال — دى — شان ، بعد أن حاول أخوها عبثاً أن يثنىها عن عزمها .

وتنازعا حيناً على تقسيم ميراثهما ، فلما سوى النزاع وجد بليز نفسه رجلاً غنياً حراً . وتلك حال مجافية لحياة التقوى ، فالتخذ لنفسه بيتاً فاخر الأثاث ، واستكثر من الخدم ، وجاب باريس فى مركبة تجرها خيول أربعة أو ستة (٢٤) . وأعطاه شفاؤه المؤقت شعوراً خداعاً بالنشاط والخفة حرفة من التقوى إلى اللذة . وعلينا ألا ننفسه على تلك السنوات القليلة التى قضاهـ « فى العالم » ( ١٦٤٨ — ٥٤ ) ، يستمتع بصحبة ظرفاء باريس وألعابها وحسانها ، ويطارد فى برهة مثيرة بأوفرن سيدة ذات جمال وثقافة ، وصفها بـ « سافو الريف » (٢٥) . وحوالى هذه الفترة كتب « أحاديث فى آلام الحب » وبلوح أنه فسكرفى الزواج — الذى سيصفه فى تاريخ لاحق بأنه « أحط ظروف الحياة المباحة لمسيحي » (٢٦) . وكان بعض أصحابه

خجرة جمعوا بين الحريتين ، حرية الأخلاق وحرية الفكر ، ولعلمهم هم الدين  
أثاروا اهتمام بسكال بمونتييني ، الذي تغلغل الآن « مقالاته » في حياته .  
وأكبر الظن أن تأثيرها الأول عطفه نحو التشكك الديني .

ووبخته جاكلين حين نعى إليها نبأ عبثه الجديد ، وصلت لأجل صلاح حاله .  
وكان من خصائص طبيعته العاطفية أن تستجيب لصلواتها إثر حادث وقع له .  
ذلك أنه بينما كان ذات يوم يركب عربته فوق البوندنوبي جسر تيللي ، جمعت  
الخيول واندفعت فوق الحاجز إلى نهر السين . وكادت العربدة أن تتبع الخيل ،  
ولكن العنان انقطع لحسن الحظ ، وتملقت المركبة بنصفها فوق الحافة .  
وخرج منها بسكال وأصحابه ، ولكن الفيلسوف للرهف الحس أغمى عليه  
لفرط خوفه من الموت الدائم ، وظل برهة غائباً عن رشده . فلما أفاق شعر  
بأنه رأى الله في رؤيا . وفي نشوة من الخوف والندم وعرفان الجميل سجل رؤياه  
على رق راح يحمله منذ تلك اللحظة مخيطاً في بطانة سترته : « السنة ١٦٥٤  
بعد الميلاد ، الاثنين ٢٣ نوفمبر . . . من نحو السادسة والنصف مساء إلى  
النصف بعد منتصف الليل . أن الاله القديم ، إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله  
يعقوب ، لا إله الفلاسفة والعلماء ، اليقين ، اليقين ، الوجدان ، الفرح ،  
السلام . إله يسوع المسيح . . . لن يجده الإنسان إلا بالطرق التي يعلمها  
الإنجيل . باسم النفس الإنسانية ، أيها الأب العادل ، أن العالم لم يعرفك  
قط ، ولكنني عرفتك . إنه الفرح ، الفرح ، دموع الفرح . . . يا إلهي ،  
هل أنت تاركى ؟ يسوع المسيح . . . لقد فصلت عنه ، وهربت منه ، وتخلّيت  
عنه ، وصلبته . ليتنى لا أفارقة أبداً ، إنها المصالحة الحلوة الكاملة (٢٧) » .

وطاود زيارته للبور — رويال ولجاكلين ، وشرح صدرها بحالته  
النفسية الجديدة ، حالة التواضع والتوبة . واستمع إلى عظات أنطوان  
سانجلان . وفي ديسمبر ١٦٥٤ أصبح عضواً في جماعة البور — رويال (٢٨) .  
وفي يناير كان له هناك حديث طويل مع سامي ، الذي آلى على نفسه أن

يقنعه بسطحية العلم وعقم الفلانة . وآنس آرنو ونيكول من العضو الجديد  
حماسة في الاهتداء وبراعة في التعبير الأدبي تبدوان وكأنهما أداة وضعتها  
العناية في أيدي الجماعة للدفاع عن البور — رويال ضد أعدائه . فطلبوا إليه  
أن يخصص قلمه للرد على اليسوعيين الذين كانوا يحاولون تصوير الجائسية  
على أنها خطيئة . وأستجاب للطلب في ذكاء وقوة بلغا مبلغا جعل جماعة  
اليسوعيين تشكروا إلى اليوم من وخز بسكال الأليم .

### ب - الرسائل الأقليمية

في ٢٣ و ٢٦ يناير ١٩٥٦ نشر بسكال الرسالتين الأولى والثانية مما سماه  
« رسائل كتبها لوى دمونتالت » ( وهو اسم مستعار ) « إلى صديق في  
الأقاليم » وإلى الآباء اليسوعيين المبجلين ، عن أخلاقياتهم وسياساتهم . وكان  
إطارها ذكيا ، فقد زعم إنها تقرير من باريس إلى صديق في الأقاليم عن  
المسائل الخلقية واللاهوتية التي كانت يومئذ تثير الأوساط العسكرية والدينية  
في العاصمة . وقد زود آرنو ونيكول بسكال بالحقائق والمراجع . أما هو  
فقد أبدع ذلك الأسلوب الأدبي الذي استشرف مستوى جديداً في النثر  
الفرنسي ، فقد توافرت لبسكال حماسة المؤمن الجديد وذكاء رجل  
الدنيا ونهذيه .

أما الرسائل الأولى فقد التمسست التأييد العام لأراء الجائسين في النعمة  
الالهية والخلاص ، وهي الآراء التي دافع عنها آرنو من قبل ، وقد قصد بها  
أن تؤثر في السوربون لتعارض الاقتراح بطرد آرنو . وقد فشلت في هذا ،  
إذ جرد آرنو رسميا من لقبه وطرد ( ٣١ يناير ) . وحفز الفشل بسكال  
وآرنو إلى الهجوم على اليسوعيين لأنهم يقوضون الفضيلة بما يعيب آباء  
اعترافهم من تحلل ، وما يشوب فتاوأم من ثغرات . وقد نقبا في مؤلفات  
إيسكوبار وغيره عن اليسوعيين ونددا بيمبادي « الاحتمالية » و « التوجيه  
بالنيه » و « التحفظ العقلي » ، وحتى بتوفيق المرسلين اليسوعيين بين

اللاهوت للمسيحي وعباده الصينيين لأسلافهم (٢٩) . وإن لم يتهما اليسوعيين صراحة بتبرير الوسائط لبلوغ الغايات . وكان هذا المهدى يزداد حماسة كلما قالت الرسائل وكشف له آرنو عن المزيد من فتاوى إيسكوبار . وبعد الرسالة العاشرة أُلغى عن أ كذوبة الباريسى كاتب الرسائل للإقليم ، وأماط اللثام عن شخصه ، ووجه الخطاب إلى اليسوعيين رأساً في بلاغة تضطرم سخطاً ، وذكاء يفيض تهكماً . وكان ينفق أحياناً عشرين يوماً في تحرير رسالة واحدة ، ثم يهرع بها إلى المطبعة قبل أن يفتر اهتمام الجمهور . وقد اعتذر عن طول الرسالة السادسة عشرة بمذر فريد في بابه ، إذ قال « لم يتسع لي الوقت لاختصارها » (٣٠) . وفي الرسالة الثامنة عشرة والأخيرة ( ٢٤ مارس ١٦٥٢ ) تحدى البابا نفسه . ذلك أن البابا الإسكندر السابع أصدر (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) تنديداً آخر بالجانسنية ، فذكر بسكال قراءه بأن حكم البابا عرضة للخطأ ، كما أخطأ في حالة جاليليو (٣١) ( وذلك شعور بسكال) . وأدان البابا الرسائل ( ٦ سبتمبر ١٦٥٧ ) واسكن فرنسا المثقفة كلها قراءتها .

أ كانت الرسائل منصفة لليسوعيين ؟ أنقلت المختارات عن الكتاب اليسوعيين نقلاً أميناً ؟ قال عقلاني مثقف « صحيح ولا ريب أن بعض العبارات المعدلة حذفت أحياناً دون موجب ، وأن عبارات أخرى ترجمت ترجمة خاطئة ، وأن ضغط الفقرات الطويلة في جمل قصيرة يشعر في بعض الحالات بأن في هذا إجحافاً بالمؤلف » ثم يقول « ولكن هذه الحالات قليلة وغير هامة نسبياً » (٣٢) وهناك الآن إجماع على أن المختارات دقيقة في جوهرها (٣٣) هل أنه لا بد من التسليم بأن بسكال انتزع أشد فقرات بعض المفتين إزطاجاً وشبهة من عياقها ، وقاد شطراً من الجمهور إلى رأى فيه غلو كثير ، مؤداه أن هؤلاء الفقهاء اللاهوتيين يتآمرون على هدم أخلاق العالم المسيحي . وقد أطرى فولتير براعة الرسائل بوصفها أدباً ، ولكنه رأى أن « الكتاب كله مبني على أساس زائف . فقد نسب المؤلف في حذق إلى الجماعة اليسوعية

كلها الآراء المتطرفة التي قال بها بعض اليسوعيين الأسبان والفلمنك (٣٤) ، الذين خالفهم كثير من اليسوعيين . وأسف دلبير لأن بسكال لم يتهكم بالجانسين أيضا ، لأن « تعاليم جانسن وسان سيران المروجة كانت تتيح على الأقل مجالا للسخرية لا يقل عما أتاحته التعاليم الطيبة التي نادى بها موليا وتامبوران وفاسكويز (٣٥) » .

وكان تأثير « الرسائل » هائلا . صحيح أنها لم تخضع لتوها شوكة اليسوعيين — ومن المؤكد أنها لم تنتقص من سلطانهم على الملك — ولكنها فضحت شطط المفتين فضحا حمل الاسكندر السابع نفسه على إدانة « التحلل » ، رغم مواصلته معارضة الجانسية ، وعلى الأمر بمراجعة نصوص الفتاوى ( ١٦٦٥ - - ٦٦ ) (٣٦) . و « الرسائل » هي التي أضفت على كلمة الافتاء الدينى « Casuistry » مدلول التشقيقات الخداعة المظهر التي تدافع عن الأفعال أو الأفسكار الخاطئة . ثم إنها أضافت آية من آيات الأسلوب إلى ذخيرة الأدب الفرنسى . وكأن فولتير قد حاش قرنا قبل فولتير . فهنا ذكاء فولتير المرح ، وتهكمه البتار ، وفسكاهته الشكاكية ، وقدحه العنيف ، وفي الرسائل اللاحقة ذلك الاستنكار الحار للظلم ، الذى أنقذ فولتير من أن يكون موسوعة سخرية وتهكم . وقد وصف فولتير نفسه الكتاب بأنه « خير ما كتب وظهر فى فرنسا إلى الآن » ، وكان رأى أنفذ النقاد قاطبة وأكثرهم رهافة وتميزا أن بسكال « ابتكر النثر الرائع فى فرنسا (٣٨) » . وحين سئل بوسويه أى كتاب كان يؤثر أن يؤلف لو لم يؤلف كتابه قال ، إنه رسائل بسكال الإقليمية (٣٩) .

ح — فى الدفاع عن الإيمان

عاد بسكال إلى باريس فى ١٩٥٦ ليشرف على نشر « الرسائل » ، وحاش هناك طوال السنوات الست الباقية من عمره . على أنه لم يهجر العالم ، ففى سنة ٧ - قصة الحضارة

موته ذاتها شارك في تنظيم خدمة منتظمة بالمركبات في العاصمة - وهي  
البذرة لشبكة الأمنوبيسات الحالية . ولكن حدثين وقعاه جددًا تقواه ،  
وحمله على أن يتوج أعماله بكتاب جديد أسهم به في الأدب والدين . ذلك  
أنه في ١٥ مارس ١٦٥٧ حصل اليسوعيون من الملكة الأم على أمر بإغلاق  
مدارس الموحدين وحظر قبول المزيد من الأعضاء في البور - رويال .  
وأطيع الأمر في هدوء ، وأرسل الأطفال - وكان من بينهم راسين - إلى  
بيوت الأصدقاء ، وتفرق المعلمون محزونين . وبعد تسعة أيام ( وهو تاريخ  
صدور آخر الرسائل الإقليمية ) وقع ما بدا معجزة في كنيسة دير الراهبات  
الذي تذكر صفوه . ذلك أن ابنة أخت بسكال البالغة من العمر تسع سنوات ،  
واسمها مارجريت بيريه ، كانت تشكو من ناسور دمعي مؤلم يرشح صديدًا  
كريها من العينين والأنف . وأهدى أحد أقرباء الأم أنجليك للبور - رويال  
شوكة زعم هو وغيره أنها أخذت من إكليل الشوك الذي عذب به المسيح .  
وفي ٢٤ مارس وضعت الراهبات الشوكة على مذبحهن في احتفال مهيب وسط  
ترتيل الزامير . ولثمت كل منهن الأثر المقدس بدورها ، ولما رأت إحداهن  
مارجريت بين العابدات أخذت الشوكة ولمست بها قرحة الفتاة . وروى أن  
ما جريت أعربت ذلك المساء عن دهشتها لأن عينها لم تعد تؤلمها ، وأدهش  
أمها ألا ترى أثرا للناسور ، وقرر طبيب دعى لفحص الفتاة أن الصديد  
والورم قد اختفيا . وأذاع هو ، لا الراهبات ، نبأ هذا الذي سماه شفاه  
معجزة . ووقع سبعة أطباء آخرون كانوا على علم سابق بناسور مارجريت  
بيانًا قرروا فيه أن معجزة - في رأيهم - قد حدثت . وبحث موظفو الاسقفية  
الأمر ، وانتهوا إلى نفس النتيجة ، وأذنوا بإقامة قداس شكر لله  
في البور - رويال . وتقاطرت جماهير المؤمنين على الدير ليروا الشوكة  
ويقبلوها ، وهلت باريس الكاثوليكية كلها للمعجزة ، وأمرت الملكة  
الأم بالكف عن كل اضطهاد للراهبات . وطاد المتوحدون إلى ليجراج .  
( في عام ١٧٢٨ أشار البابا بندكت الثالث عشر إلى هذا الحدث على أنه دليل

على أن عصر المعجزات لم ينته ) . أما بسكال فقد صنع لنفسه شعار نبالة كان عبارة عن عين يحيط بها إكليل من الشوك ، وقد كتب عليه Scio cui credidi — « أعرف من صدقت (٤٠) » .

وعكف الآن على كتابة دفاع مفصل عن الإيمان الديني يكون بمثابة وصيته الأخيرة . ولكن قصارى ما وجد في نفسه القدرة عليه : هو أن يدون في إيجاز خواطر منفصلة يجمع بينها في ترتيب اجتهادي ولكنه قوي . ثم عاودته أوجاعه القديمة ( ١٦٥٨ ) ، في شدة أعجزته إلى النهاية عن أن يضيف على هذه للذكريات تسلسلا متماسكا أو شكلا بنائيا . فلما مات قام صديقه الدوق دروانييه وعلماء البور — رويال بتحرير ونشر هذه المادة وسموها « خواطر المسيو بسكال عن الدين وغيره من المسائل ( ١٦٧٠ ) » . وقد خشوا أن تفضى هذه « الخواطر » المبتورة التي خلفها بسكال إلى التشكك لا إلى التقوى ، ومن ثم أخفوا الأجزاء المتشككة ، وأدخلوا تعديلا على بعض ما بقي مخافة أن يسيء إلى الملك أو الكنيسة لأن اضطهاد البور — رويال كان قد توقف في تلك الفترة ، وكره المحررون تجديد الجدل . ولم تنشر « خواطر » بسكال Ponsées في نصها الكامل الموثوق إلا في القرن التاسع عشر .

ولو شئنا أن نغامر بفرض ترتيب عليها لجعلنا نقطة بدايتها فلك كوبرنيك . ونحن نشعر ثانياً — إذ نصغى إلى بسكال — بالطمع الهائلة التي كان فلك كوبرنيك وجاليليو يكتيلها للمسيحية التقليدية :

« ليتأمل الإنسان الطبيعة كلها في جلالها الكامل السامي ، ليقص عن بصره الأشياء الوضيعة التي تحيط به ، ولينظر إلى ذلك النور للتوهج الذي وضع كأنه مصباح ابدى ينير العالم ، ولتبد الأرض له مجرد نقطة داخل الدائرة الشاسعة التي يرميها ذلك النجم ، وليأخذ العجب من أن هذا المحيط الهائل إنما هو نقطة ضئيلة من زاوية النجوم التي تتحرك في قبة السماء .

فإذا توقف بصرنا عند هذا الحد ، فليجأوزة الخيال . . . فكل هذا العالم المرنى ليس إلا عنصرا لا يدرك في صدر الطبيعة العظيم . ولا يستطيع أى تفكير أن يمتد إلى هذا المدى . . . إنها كرة لانهائية مركزها في كل مكان ، ومحيطها في غير مكان (٤٢) . هذا أكثر مظهر قابل للإدراك من مظاهر قدرة الله ، حتى أن خيالنا يتوه في هذا الخاطر .

ثم يضيف بسكال في سطر شهير مطبوع بحساسيته الفلسفية ، « ان الصمت الأبدى الذى ياف هذا الفضاء اللانهاى يخيفنى (٤٣) » .

ولكن هناك لانهائية أخرى — وتلك هى لانهائية صغر الذرة « التى لا تقبل الانشطار ، وقبولها النظرى للانقسام قبولا لاحدله ، فهما كانت ضالة الحد الأدنى الذى نخزل به أى شىء ، فإننا لأنك إلا الاعتقاد بأنه هو أيضا له أجزاء أصغر منه . وعقلنا يتذبذب في حيرة وارتياح بين الشاسع غير المحدود ، والدقيق غير المحدود .

« إن من يتأمل نفسه على هذا النحو تخيفه نفسه ، وإذا أدرك أنه معلق . . . بين هاويتي اللانهائية والعدم ، ارتعد فرقا . . . وبات أميل إلى تأمل هذه العجائب في صمت منه إلى ارتيادها بفرور . فما الإنسان في الطبيعة ، بعد كل شىء . . . ؟ انه العدم إذا قيس بغير المحدود ، وهو كل شىء إذا قيس بالعدم ، إنه وسط بين العدم والسكل . وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين ، فنهاية الأشياء وبدايتها أو أصلها ، يلتقهما سر لاسبيل إلى استكناها ، وهو عاجز على السواء عن رؤية العدم الذى أخذ منه ، واللانهاى الذى يغمره (٤٤) . » (٥)

---

(٥) يقول سانت ييف « ليس فى اللغة الفرنسية منجفات أروع من المخطوط البسيطة الصارمة التى تحتويها هذه الصورة التى لانظير لها » (٤٥) .



فالعالم إذن ما هو إلا ادعاء غبي . فهو مبني على العقل ، المبني على الحواس ، التي نأخذ عنها بعشرات الطرق . وهو محدود بالحدود الضيقة التي تعمل حواسنا داخلها ، وبقصر عمر الجسد قصراً قابلاً للفساد . وإذا ترك العقل لذاته لم يستطع أن يفهم — أو يعطى أساساً مكيناً للفضيلة ، أو الأسرة ، أو الدولة ، فكيف بادراك طبيعة العالم ونظامه الحقيقيين ، فضلاً عن فهمه لله . وفي العرف ، لا بل في الخيال والأسطورة ، حكمة أكثر مما في العقل و « أحكم العقول يتخذ تلك المبادئ » ، التي أدخلها خيال الإنسان بتعجل في كل مكان ، مبادئه (٤٦) « وهناك نوطان من الحكمة : حكمة الجماهير البسيطة « الجاهلة » ، التي تعيش بحكمه التقاليد الموروثة والخيال ( أي الطقوس والأساطير ) ، وحكمة الحكيم الذي نفذ إلى صميم العلم والفلسه ليذكر جهله (٤٧) . إذن « لا شيء » أروح للعقل من أن ينبذ العقل ، و « الاستخفاف بالفلسفه ملاك الفيلسوف الأصيل (٤٨) » .

ومن ثم رأى بسكال أنه من الحكمة إقامة الدين على العقل ، كما حاول حتى بعض الجانسينيين ، أن يفعلوا . فالعقل لا يستطيع أن يثبت وجود الله ، ولا الخلود ، لأن الأدلة في الحالين شديدة التناقض . كذلك لا يصلح الكتاب المقدس أساساً نهائياً للإيمان ، لأنه حافل بالفقرات الملتبسة أو الغامضة ، وربما كان للنبوءات التي يفسرها الأتقياء على أنها تشير إلى المسيح دلالة مختلفة (٤٩) . أضف إلى ذلك أن الله في الكتاب المقدس يتكلم بالأرقام ، التي يضللنا مدلولها الحرفي ، والتي لا يدرك معناها الحقيقي إلا من وهبوا النعمة الإلهية . « أننا لن نفهم شيئاً من أعمال الله ما لم نؤمن بهذا المبدأ ، وهو أنه تعالى يشاء أن يعصى البعض وينير بصائر البعض (٥٠) . ( وهنا يبدو أن بسكال يقبل حرفياً قصة يهوه وهو يقسى قلب فرعون ) .

ولو اعتمدنا على العقل لوجدنا غير المفهوم أينما تلفتنا . فنذا الذي يستطيع أن يفهم ، في الإنسان ، ذلك الاتحاد والتفاعل بين جسد واضح

للمادية وذهن واضح اللامادية ؟ « فليس هناك شيء أشد استحالة على التصور من أن تعى المادة نفسها (٥١) » . إنهم الفلاسفة الذين ملكوا أهواءهم — « وأى مادة تستطيع أن تفعل هذا (٥٢) ؟ » . وطبيعة الإنسان ، التي يمزج فيها الملاك بالوحش امتزاجاً شديداً ، تكرر التناقض بين العقل والجسد ، وتذكرنا بالكثير الذى زعمت الأساطير اليونانية أنه عزة لها رأس أسد وذيل ثعبان .

« يا لهذا الإنسان من كثير ! ياله من بدعة ، ووحش ، وفوضى ، وتناقض ، ومعجزة ! هذا الحكم فى كل الأشياء ، ونموذج الغباء فى الأرض ، مستودع الحق ، وبالوعة الضلال والشك ، منفجرة الكون ونفايته . فلهذا الذى يحل لنا هذا اللغز المعقد (٥٤) ؟ » .

ان الإنسان — من الناحية الخلقية — لغز غامض . فكل ضروب الآثوم تبدو مستترة فيه . « ما الإنسان إلا مخلوق خداع للآخر ، كذوب ، منافق ، مع نفسه ومع غيره (٥٥) » . « كل الناس بطبيعتهم يكره بعضهم بعضاً ، وإن تجدد أربعة أصدقاء فى العالم (٥٦) » . « ما أفرغ قلب الإنسان وما أحفله بالقدر » (٥٧) ثم يا لغوره الذى لا قرار له ولا شبع ، « ما كنا نركب البحر أبداً لولا حلمنا بأننا سوف نروى قصتنا . . . أننا نفقد الحياة مختبطين شريطة أن يتحدث الناس بما فعلنا . . . وكل الناس ، حتى الفلاسفة ، يتمنون أن يكون لهم معجبون (٥٨) » . ومع ذلك فإن من جوانب عظمة الإنسان أنه من شره ، وكرهه ، وغروره ، أنشأ دستوراً من القوانين والأخلاق ليسيطر على شره ، واشتق من شهوته مثلاً أعلى فى الحب (٥٩) .

وشقاء الإنسان لغز آخر . فلم شتى الكون هذا الشقاء الطويل لينجب نوماً من الخليقة شديد الهشاشة فى سعادته ، كثير التعرض للألم فى كل عصب ، وللحزن فى كل حب ، وللموت فى كل حياة ؟ ومع ذلك فإن « جلال الإنسان عظيم فى معرفته أنه شقى (٦٠) » .

« ما لإسان إلا قصبة ، وهى أوهى ما فى الطبيعة ، ولكنها قصبة مفكرة .

والسكون كله لا حاجة به لأن يتسلح لكي يسحقه ، فننفخة بخار ، أو قطرة ماء ، تكفى لقتله — ولكنه ، بعد أن يسحقه السكون ، لا يزال أنبل من هذا الذى يقتله ، لأنه يعرف أنه مفارق الحياة ، أما السكون فلا يعرف شيئاً عن انتصاره على الإنسان (٦١) .

وليس من هذه الألفاظ لغز يجد في العقل جواباً له . ولو ركننا إلى العقل وحده لحكنا على أنفسنا بـ « يرووية » تتشكك في كل شيء إلا الألم والموت ، والفلسفة لا تستطيع على أحسن الفروض إلا أن تكون تبريراً عقائياً للهزيمة . ولكننا لا نستطيع أن نؤمن بأن قدر الإنسان هو كما يراه العقل — أن يكافح ، ويتعذب ، ويموت ، بعد أن ينجب آخرين ليكافحوا ، ويتعذبوا ، ويموتوا ، جيلاً بعد جيل ، في افتقار للهدف ، وغباوة ، وحقارة هائلة . فنحن في قرارة نفوسنا نشعر بأن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً ، وبأنه تجديف ما بعده تجديف أن نظن أن الحياة والسكون بلا معنى . فإله ومعنى الحياة يجب أن يشعر بهما القلب لا العقل . « فإن للقلب مبرراته التي لا يعرفها العقل (٦٢) . » وخيراً نفعل أن أصغينا إلى قلوبنا وإن « وضعنا إيماننا في الوجدان (٦٣) » . ذلك أن كل إيمان ، حتى بالأمور العملية ، إنما هو ضرب من الإرادة ، وتوجيه للانتباه والرغبة ( إرادة الإيمان ) . والتجربة الصوفية أعمق من شهادة الحواس أو حجج العقل .

أى جواب إذن عند الوجدان يجيب به عن الغاز الحياة والفكر ؟ الجواب هو الدين . فالدين وحده يستطيع أن يرد للحياة معناها ، والإنسان نبه ، وبدونه نتخبط أعمق حتى من تخبطنا الأول في إحباط عقلى وعقم محبت . فالدين يعطينا كتاباً مقدساً ، والكتاب ينبئنا بسقوط الإنسان من النعمة ، وهذه الخطيئة الأصلية هي دون غيرها التي تستطيع أن تفسر ذلك الجمع الغريب في الطبيعة البشرية بين الكره والحب ، وبين الشر والوحشى واشتياقنا للخلاص والله . فإذا ممحنا لأنفسنا بأن نؤمن ( مهما بدت سخافة

هذا الإيمان للفلاسفة) بأن الإنسان بدأ بالنعمة الإلهية ، وأنه فقدتها بالخطيئة ، وأنه لا خلاص له إلا بالنعمة الإلهية عن طريق المسيح المصلوب ، وجدنا بعد هذا سلاماً عقلياً لا يوهب للفلاسفة أبداً . والذي لا يستطيع الإيمان ملعون ، لأنه يعلن بكفره أن الله لم يشأ أن يمنحه النعمة .

والإيمان رهان حكيم . وهب أن الإيمان لا يمكن إثباته ، فأى ضير إن قامت على حقيقته ثم اتضح بطلانه ؟ « لازم عليك أن تراهن ، وليس لك في هذا خيار ... فلتوازن بين المكسب والخسارة في الرهان على وجود الله ... أنك إن كسبت كسبت كل شيء ، وإن خسرت لم تخسر شيئاً . فراهن إذن دون تردد على أنه تعالى موجود (٦٤) » . فإذا وجدت أول الأمر أن الإيمان صعب عليك فاتبع طادات وطقوس الكنيسة كأنك تؤمن حقاً . « تبرك بالماء المقدس ، واطلب تلاوة القدايس ، وهلم جرا ، وهذا كنفيل بأن يجعلك تؤمن بطريقة بسيطة طبيعية ، وبأن يهدئك » — سيهدى من عقلك المغتر بقدرته النقادة (٦٥) . واعترف وتناول القربان ، وستجد في هذا راحة وقوة (٦٦) .

ونحن نعلم هذا الدفاع التاريخي إذا تركناه ينحتم على هذه النعمة غير البطولية . فلما أن نشق بأن بسكال حين آمن لم يؤمن كأنه مقاميريل كنهفس حيرتها ودوختها الحياة ، كانسان أدرك في تواضع أن عقله الذي أذهل ذكاؤه الصديق والعدو ، ليس كفوّاً للكون ، ووجد في الإيمان السبيل الوحيد ليضفي على ألمه المعنى والمغفرة . يقول سانت — بييف « ان بسكال رجل مريض ، وعلينا أن نذكر هذا على الدوام ونحن نقرأه (٦٧) » . ولكن بسكال لو ووجه بهذا الرأي لأجاب : السنا كلنا مرضى ؟ فليرفض الإيمان كل من اكتملت له السعادة . ليرفضه كل من لم يقنع بمعنى في الحياة أكثر من أنها مسار عاجز من ميلاد قذر إلى موت إليم .

« تصور نفرا من الناس يرسفون في الأغلال وقد حكم عليهم جميعاً

بالموت ، وفي كل يوم يشنق بعضهم على مرأى من الباقين ، والباقون يتبينون حالهم في حال زملائهم ، ويتبادلون نظرات الحسرة واليأس ، وينتظر كل منهم دوره . هذه صورة لحالة الإنسان (٦٨) .

فكيف السبيل إلى التعويض عن هذه المذبحة البشعة التي نسميها التاريخ إلا بالإيمان بأن الله سيصحح الأخطاء كلها في النهاية ، سواء استند هذا الإيمان إلى دليل أو لم يستند ؟ .

وقد تحمس بسكال في حاجته لأنه لم يفق قط إفاقة حقيقية من الشكوك التي أوحى بها إليه موتيني ، وملحدو « السنوات التي قضاها في العالم » ، وحياد الطبيعة القاسي بين « الشر » و « الخير » .

« ذلك ما أراه وما يقض مضجعي . فأينما تلفت لم أجد غير الغموض والابهام . ولا تقدم لي الطبيعة إلا ما يحتمل الشك والقلق . فلو أنني لم أر علامات على وجود إله لثبت على الإنكار . ولو رأيت آثار الخالق في كل مكان لسكنت إلى الإيمان في هدوء وسلام . ولكنني في حالة يرئى لها لأنني أرى أكثر كثيراً مما يبرر إنكار وجوده تعالى ، وأقل كثيراً مما يطمئني على وجوده . ولقد طالما تمنيت أن تعلن الطبيعة عن وجوده دون لبس أو غموض ما دام هذا الإله حافظها (٦٩) » .

وحالة القلق العميق هذه ، والقدرة المعطلة على رؤية الجانبين ، هي التي تجعل بسكال يستهوى المؤمنين والشاكين على السواء . فلقد شعر هذا الرجل بغيظ الملحد من الشر ، وبثقة المؤمن في التصارا الخير ، ولقد عبر من تدويمات موتيني وشارون الذهنية إلى التواضع للمغتبط الذي أحس به القديسان فرانسيس الأسيسى وتوماس أكيميس . وهذه الصرخة للنبعثة من أصمق الشك ، وهذه الصياغة لإيمان ضد الموت ، هما اللذان يجعلان « خواطر » بسكال أبلغ الكتب قاطبة في النثر الفرنسي . لقد أصبحت الفلسفة أدباً للمرة الثالثة في القرن السابع عشر ، لا في تركيز بيكون الهادى ،

ولا في ألفة ديكارت السارة ، بل في القوة العاطفية لشاعر يحس بالفلسفة ، ويكتب لقلبه بدمه . في قمة العصر الكلاسيكي علا هذا النداء الرومانسي ، وبلغ من القوة ما أتاح له أن يعمر بعد بوالو وفولتير ، وأن يسمعه عبر قرن من الزمان روسو وشاتوبريان . قهنا ، في صبيحة عصر العقل ، وفي عقود هوبز وسبينوزا ذاتها ، وجد العقل منازل له في رجل محتضر .

روت مدام ييرييه ، شقيقة بسكال ، أنه كان في سنيه الأخيرة يعاني من « علل مستديمة متفاقمة » (٧٠) وانتهى به الأمر إلى الرأي بأن « للرض هو الحالة الطبيعية للمسيحيين » (٧١) . وكان أحيانا يرحب بآلامه لأنها تصرفه عن المغريات . قال « إن ساعة من الألم تعلم أفضل من كل الفلسفة مجتمعين » (٧٢) . وقد هجر كل اللذات ، وعكف على ممارسة النسك ، ووجد نفسه بحزام ثبتت فيه مسامير من حديد (٧٣) . ووبخ مدام ييرييه لأنها تسمح لأبنائها بعناقها . ومارض في زواج ابنتها قائلا : « إن حالة الزوجية ليست خيرا من الوثنية في نظر الله » (٧٤) . ولم يسمح لإنسان في حضرته أن يتحدث عن جمال المرأة .

وفي عام ١٦٦٢ ، آوى أسرة فقيرة في بيته صدقة من صدقاته الكثيرة . فلما أصيب أحد الأطفال بالجدرى انتقل بسكال إلى بيت شقيقته بدلا من أن يطلب إلى الأسرة أن تغادر بيته . ولم يمض طویل وقت حتى لزم فراشه وقد حطمت الآلام المعوية . وكتب وصيته ، فترك نصف ثروته تقريبا للفقراء . واعترف لكاهن ، وتناول القربان الأخير ، ثم لفظ أنفاسه إثر تقلصات عنيفة ، في ١٩ أغسطس ١٦٦٢ وهو لا يجاوز الأربعين . ولما شرحت جثته وجد أن معدته وكبد مريضتان ، وأن في أمعائه قرحا (٧٥) . وقال الأطباء أن مخه « ضخم الحجم جدا ، وأن مادته جامدة مكثفة » ولكن خطأ واحدا فقط من خطوط الاتصال بين عظام الجمجمة هو الذي كان مقفلا قفلا سليما ، ولعل هذا هو السر في نوبات الصداع الرهيبة التي ابتلى بها .

ووجد على الحاء المنح منخفضان « كبيران كأنهما صنعا بأصابع وضعت في الشمع » (٧٦) وقد دفن في كنيسة أبرشية سانت اتيين — دومون .

## ٥ — البور - رويال : ١٦٥٦ - ١٧١٥

شدت « الرسائل الافليمية » من عزم اليسوعيين والأساقفة على قمع الجانسية باعتبارها بروتستنتية مقنعة . فأصدر البابا الاسكندرية السابع ( ١٦ أكتوبر ١٦٥٦ ) استجابة لإلحاح الأساقفة الفرنسيين مرسوماً بابوياً يلزم جميع رجال الكنيسة الفرنسيين بالتوقيع على الصيغة التالية :

« إني أخضع بإخلاص لدستور البابا أنوسنت العاشر ، المؤرخ ٣١ مايو ١٦٥٣ ، حسب معناه الحقيقي الذي حددته دستور أينا الأقدس البابا الإسكندر السابع المؤرخ ٦ أكتوبر ١٦٥٦ ، وأقر بأنني ملتزم في ضميري بطاعة هذين الدستورين ، وأدين بقلبي وفي التعليم الوارد في قضايا كورنيلس جانسن الخمس المحتواة في كتابه المعنون « أوغسطينوس » .

وامتنع مازاران عن فرض التوقيع على هذه الصيغة ، ولكن في ١٣ أبريل ١٦٦١ ، عقب موت مازاران ، أذاع لويس الرابع عشر الأمر ، وقدم وكيل أسقفية من أصدقاء الجماعة لهذه الصيغة ببيان توفيقى ، فوقعها آراو وللتوحدون في هذه الصورة ، وفصحوا راهبات البور - رويال بالحذو حذوهم ، ولكن الأم أنجليك — التي كانت طريجة الفراش لإصابتها بالاستسقاء — رفضت التوقيع وثبتت على الرفض إلى أن ماتت في السبعين في ٦ أغسطس ١٦٦١ ، وكذلك رفض بسكال وشقيقته جاكلين ، التي أصبحت وكييلة الدير . وقالت جاكلين : مادام الأساقفة لا يمكن أن يكون من الشجاعة إلا شجاعة الفتيات ، فلا بد أن يكون للفتيات شجاعة الأساقفة (٧٧) . وأخيراً وقعت كل الراهبات الباقيات على قيد الحياة ، ولكن جاكلين

التي أضلتها مقاومتها الطويلة ماتت في ٤ أكتوبر وهي لا تتجاوز السادسة والثلاثين ، وتلاها بسكال بعد عام واحد .

واستنكر الملك خلال ذلك الديباجة الموفقة وأصر على أن يوقع الراهبات الصيغة دون أى إضافة أو تغيير ، ونقل القليلات اللاتي وقعن إلى البور — رويال في باريس ، ولكن أغلبية الراهبات ، تزعمهن الأم آنيس ، صرحن بأنه ليس في وسعهن التوقيع بضمير خالص على وثيقة تناقض معتقداتهن أشد مناقضة . وفي أغسطس ١٦٦٥ حرم رئيس الأساقفة الراهبات السبعين وأخواتهن العلمانيات الأربع عشرة من تناول الأسرار المقدسة ، وحظر عليهن أى اتصال بالعالم الخارجى . وخلال السنوات الثلاث التالية ، كان أحد الكهنة المتعاطفين مع الراهبات يتسلى أسوار البور — رويال — دى شان ليناول الراهبات المحتضرات قربانهن الأخير . وفي ١٦٦٦ قبض على ساسى ، ولوميتز ، وثلاثة آخرين من المتوحدين بأمر الملك ، أما آرنو الذى تنسكروا شعرا مستعار وسيف ، فقد آوته الدوقة لونيجهيل ، التي كانت تخدمه بنفسها أثناء اختبائه (٧٨) . وتببت هى وغيرها من الذبيلات قنسية الراهبات ، وأقنعن لويس بأن يلين ؛ وفي ١٦٦٨ أصدر البابا كلمنت التاسع مرسوماً جديداً صيغ في لبس حكيم يسمح لجميع الأطراف بقبوله ، وأفرج عن السجناء ، وردت الراهبات المنشقات إلى البور — رويال — دى شان ، وطادت الأجراس تدق في الدير بعد أن صمتت ثلاث سنين . واستقبل الملك آرنو استقبالا ودياً ، وكتب هذا كتاباً ضد السكفنيين ، ولكن نيكول كتب كتاباً آخر ضد اليسوعيين .

ودام «سلام الكنيسة» أحد عشر عاماً ، ثم ماتت مدام لونيجهيل ، ومات معها السلام . وإذ بدأ الملك يشيخ ، وانقلبت انتصاراته هزائم ، استحال بحينه خليطاً من التعصب والخوف ، وساءل نفسه ، أكان الله يعاقبه على تسامحه مع الهرطقة ؟ واتخذ بفضه للجانسلية طابعاً شخصياً ، ومن الأمثلة على هذا



التحول أن لويس رفض تعيين رجل يدعى فونديرتوى في إحدى الوظائف لشبهته في أنه جاسني ، ولكنه وافق على التعيين حين أكدوا له أن الرجل ملحد فقط (٧٩). ولم يستطع قط أن يغتفر لراهبات تمهدين لأمره بالتوقيع على الصيغة المشددة . وضمانا للقضاء على مركز سخطه هذا في وقت مبكر حظر عليه قبول أعضاء جدد . ووجه نداء للبابا كملت الحادي عشر لكي يصدر إدانة صريحة للجاسنية . وبعد طامين من الإلحاح أطلق البابا مرسوم Vineam Domini ( ١٧٠٥ ) ولم يكن باقيا على قيد الحياة في البور — رويال آنثد سوى خمس وعشرين راهبة ، أصغرهن في الستين . وترقب الملك موتهن بفارغ الصبر .

وفي عام ١٧٠٩ خلف الأب اليسوعي ميشيل تيلبيه البالغ من العمر ستة وستين عاما ، الأب لاشيز ، كاهن اعتراف للملك . فأقر في ذهن لويس — وكان الملك قد بلغ الحادية والسبعين — أن مصير روحه الأبدى رهن بالإبادة الناجزة الكاملة للبور — رويال . وقد احتج كثيرون من الأكايروس العلمانيين على هذه العجلة وفيهم أنطوان دنواي ، رئيس أساقفة باريس ، ولكن الملك تغلب على معارضتهم . وفي ٢٩ أغسطس ١٧٠٩ أحاط الجنند بالدير ، وأطلع الراهبات على رسالة ملكية مختومة تأمر بتفريقهن فورا ، وسمح لهن بخمس عشرة دقيقة يجمعن فيها أمتعتن . ولم يجد بسكاؤهن ولا دموعهن . فدفعن داخل مركبات وشنتن في مخلف الأديار الممتثلة التي تبعد من ستين إلى مائة وخمسين ميلا . وفي ١٧١٠ هدمت مباني الدير الشهير وسويت بالتراب .

ولكن الجاسنية طاشت . لقد مات آرنو وايكول في منفاهما بفلاندر ( ١٦٩٤ — ٩٥ ) ، ولكن كاهنا في مصلى باريس يدعى باسكويه كينيل ، دافع عام ١٦٨٧ عن اللاهوت الجاسني في كتابه « تأملات أخلاقية في العهد الجديد » . وقد زج به في السجن ( ١٧٠٣ ) . ولكنه هرب إلى أمستردام .

حيث أسس كنيسة جانسنية . وإذا اكتسب كتابه التأييد الكثير من  
الأكليروس العلماني الفرنسي ، فقد أقنع لويس البابا كلمنت الحادي عشر  
بأن يصدر مرسوم Unigenitus ( ٨ سبتمبر ١٧١٣ ) الذي أدان ١٠٤ قضية  
نسبت إلى كينيل . وقد استاء كثير من الأحرار الفرنسيين من المرسوم  
لأنه تدخل بابوي في شئون الكنيسة ، واتحدت الجانسنية مع أحياء للحركة  
للغالية . فلما مات لويس الرابع عشر ، كان في فرنسا من الجانسنيين أكثر مما  
كان فيها في أي عهد مضى ( ٨٠ ) .

ويصعب علينا اليوم أن نفهم لم انقسمت أمة ، وثارت ثائرة ملك ، حول  
مشاكل عويصة تتصل بالنعمة الإلهية ، والجبورية ، وحرية الإرادة ، ولكننا  
نفسى أن الدين كان له يومها ما للسياسة الآن من أهمية وخطر . وكانت  
الجانسنية الجهد الأخير الذي بذلته النهضة الأوربية في فرنسا ، والانتفاضة  
الأخيرة للعصور الوسطى . ونحن إذا تأملناها في منظور التاريخ بدت لنا  
رجعية لا تقدما . بيد أن تأثيرها في عدة نواح كان تقديميا . فقد كالت حينها  
في سبيل قسط من الحرية — وإن كنا سنجد لها في أيام فولتير أشد تعصبا  
من البابوية ( ٨١ ) . وحدثت من شطط الإفتاء الديني . وكانت غيرتها على  
الأخلاق ثقلا نافعا أمام سياسة التراخي في أمور الاعتراف ، تلك السياسة  
التي ربما شاركت في تدهور الأخلاق الفرنسية . كذلك كان تأثيرها التعليمي  
خطيبا ، وكانت « المدارس الصغيرة » التي أسستها خير المدارس في زمانها .  
وظهر تأثيرها الأدبي لا في بسكال وحده بل في كورابي باعتدال ، وفي راسين  
بحيوية ، وهو تلميذ البور — رويال ومؤرخه . أما تأثيرها الفلسفي فكان  
غير مباشر وغير مقصود ، ففكرتها عن الله قاضيا بالعذاب الأبدي على  
الشر الأكبر من النوع الإنساني — بما فيهم جميع الأطفال غير المعمدين ،  
وجميع المسلمين وجميع اليهود — لعل هذه الفكرة شاركت في دفع رجال  
كفولتير وديدرو إلى التمرد على اللاهوت المسيحي بأسره .

## ٦ - الملك والهييجونوت : ١٦٤٣ - ١٧١٥

لم يكن الملك قد خلس روحه بعد ، فقد بقي في فرنسا ١٠٠٠ ر ٥٠٠ من البروتستنت . وكان مازاران قد واصل وطور سياسة ريشليو في حماية حرية الهييجونوت الدينية ما داموا مطيعين سياسياً . أما كولبير فقد أدرك قيمتهم في تجارة فرنسا وصناعاتها . وفي ١٦٥٢ أكد لويس مرسوم نانت ( ١٥٩٨ ) الذي أصدره جده هنري الرابع ، وفي ١٦٦٦ أعرب عن تقديره لولاء الهييجونوت خلال حرب الفروند ، ولكن كان يحزنه ألا تتحقق وحدة فرنسا الدينية كما تحققت وحدتها السياسية ، وحوالي ١٦٧٠ كتب في مذكراته فقرة تنذر بالسوء :

« أما عن ذلك العدد الكبير من رعايا الذين يدينون بما يسمونه المذهب الأصلاحي ، وهو شر ٠٠٠٠ انظر إليه بحزن ٠٠٠ فيخيل إلى أن أولئك الذين أرادوا استعمال ضروب عنيفة من العلاج لم يفتنوا إلى طبيعة هذا الشر ، الذي نجم بعضه عن حرارة في العقول ، والذي يجب أن يترك ليدوى ويموت دون أن يحس به أحد ، بدلا من إثارته من جديد بمثل هذه المقاومات العنيفة . ٠٠٠ وقد آمنت بأن خير سبيل للخفض من عدد الهييجونوت في مملكتي تدريجياً هو أولاً عدم الضغط عليهم إطلاقاً بأي قيد صارم جديد ، والأمر بمراعاة ما حصلوا عليه من أسلاف دون منحهم أكثر منه ، وحتى قصر تنفيذه داخل أضيق الحدود التي تجيزها العدالة واللياقة (٨٢) » .

وفي هذه الفقرة رائحة التعصب المخلص . وهذا رأى ملك مطلق السلطة ، أخذ عن بوسويه شعار « ملك واحد ، وقانون واحد ، وعقيدة واحدة » . فلم يعد ذلك التسامح الذي دان به ريشليو الذي كان يعين لمناصب الدولة الرجال الأكفاء أيا كانت عقيدتهم . ويواصل لويس حديثه فيقول إنه لمن يعين في هذه المناصب سوى الكاثوليك الصالحين ، آملا بذلك أنه سيدشجع المرتدين على الرجوع إلى حظيرة الكاثوليكية .

أما الكنيسة نفسها فلم تسكن قد وافقت قط على التسامح الذي كقله مرسوم نانت ، ففي ١٦٥٥ طالب مجمع اكليريكي بتفسيراً شديداً لمرسوم . وفي ١٦٦٠ طلب مجملهم إلى الملك أن يغلق جميع الكليات والمستشفيات الهيجونوتية ، وأن يحرم الهيجونوت من الوظائف العامة ، وفي ١٦٧٠ أوصى المجمع بأن يعتبر الأطفال الذين بلغوا السابعة من عمرهم قادرين قانوناً على إنكار الهرطقة الهيجونوتية ، وأن الذين ينكرونها على هذا النحو ينبغي فصلهم عن آبائهم ، وفي ١٦٧٥ طالب المجمع بأن يعلن بطلان الزيجات المختلطة ، وأن يعتبر نسل هذه الزيجات غير شرعي (٨٣) . وكان رأى بعض رجال الدين الورعين اللطفاء مثل الكردينال ديبرول أن استخدام الدولة لوسائل المنع بالإكراه هو السبيل العملي الوحيد في التعامل مع البروتستنتية (٨٤) ، وألح الخبر تلو الخبر على الملك بهذه الحجة ، وهي أن استقرار حكومته يرتكز على النظام الاجتماعي ، الذي يرتكز على الفضيلة ، التي تنهار إذا لم يدعمها دين الدولة . وشارك العلمانيون الكاثوليك في هذه الحجة ، وأبأخ القضاة الحكومة عن صدامات مكثرة الأمن بين المذهبين المتنافسين في المدن — هجمات كاثوليكية على المدارس والجنازات والبيوت البروتستنتية ، وأعمال انتقام بروتستنتية من نفس النوع .

وشيثاً فشيئاً أذعن لويس لهذه الحملة غالفاً في ذلك فطرته الأصيل إلى الخير ، وإذ كان على الدوام في حاجة للمال ينفقه على الحرب والأناقة ، فقد وجد رجال الدين يقدمون له منحة كبيرة شريطة أن يقبل آراءهم . ودفعته عوامل أخرى في نفس الاتجاه ، فلقد كان يشجع — بل يرشو — تشارلز الثاني لكي يحول انجلترا إلى الكاثوليكية ، فكيف يتأني في الوقت ذاته أن يسمح بالبروتستنتية في فرنسا ؟ ألم يوافق البروتستنت في صلح أوجزبورج (١٥٥٥) وبعده على المبدأ القائل بأن دين الحاكم يجب أن يفرض على رعاياه ؟ وألم ينف الحكم البروتستنت في ألمانيا وفي الأقاليم المتحدة الأسراني رفضت ديانة الأمير ؟

وكان لويس ، منذ أن بدأ حكمه الفعلي قد أصدر — أو أصدر وذاؤه — بموافقته — سلسلة من المراسيم التي اتجهت إلى إلغاء مرسوم التسامح إلغاء تاماً . ففي ١٦٦١ حرم على البروتستانت العبادة في معظم مساحة جيكس ، قرب الحدود السويسرية ، بحجة أن جيكس ضمت إلى فرنسا بعد صدور للمرسوم ، وكان يعيش في هذا الاقليم سبعة عشر ألف بروتستانت ، وأربع مائة كاثوليكي فقط (٨٥) . وفي ١٦٦٤ جعلت الترقية إلى طبقة معلمي الحرف في الطوائف الصناعية عسيرة إلا على الكاثوليك (٨٦) ، وفي ١٦٦٥ سمح للصبيان في الرابعة عشرة والبنات في الثانية عشرة بقبول اعتناق الكاثوليكية وترك آبائهم ، الذين يلزمون عندها بأن يدفعوا لهم راتباً سنوياً لإعالتهم (٨٧) . وفي ١٦٦٦ حذر على الهييجونوت إنشاء كليات جديدة ، أو الاحتفاظ بمعاهد لتعليم أبناء الأشراف ، وفي ١٦٦٩ تقرر اعتبار هجرة الهييجونوت جريمة يعاقب عليها المهاجر بالاعتقال إذا وقع في قبضة السلطات ومصادرة بضائعه (٨٨) . وكان كل من ساعد هييجونوتيا على الهجرة عرضة للحكم بتشغيله في سفن الأسرى مدى الحياة (٨٩) . وفي ١٦٧٧ سمح لويس بوقف « صندوق للمهتدين » تصرف منه مبالغ ، متوسطها ستة جنيهات للفرد ، لكل هييجونوتي يقبل اعتناق الكاثوليكية . وضماناً لثبات المهتدين على الكاثوليكية أصدر مرسوماً ( ١٦٧٩ ) يقضى بنفي جميع المرتدين ومصادرة أملاكهم (٩٠) . ثم قطع هذا السيل من التحريكات احتجاج ناخب براندنبورج وشكاوى كولبير مما تحدثه هذه القوانين بالتجارة من كساد ، واشتغال الملك بمحملاته الحربية ، ولكن تصالحه في ١٦٨١ مع الكاثوليكية ، الأمرة بالاعتصار على امرأة واحدة ، رده من جديد إلى الحرب المقدسة على الهييجونوت ، فقال لأحد مساعديه إنه يشعر بالتزام لا محاس منه بهداية جميع رعاياه واستئصال شأفة الهرطقة (٩١) . وفي ١٦٨٢ أصدر خطاباً — وأمر جميع الرعاة البروتستانت بأن يقرءوه على شعبهم — بهدفيه الهييجونوت « بويلات لا تقاس بما سبقها هولا وفتكا (٩٢) » . وخلال السنوات الثلاث

٨ — قصة الحضارة

التالية أغلقت ٥٧٠ كنيسة من كنائس الهييجونوت البالغ عددها ٨١٥ ، وهدم الكثير منها ، وحين حاول الهييجونوت العبادة على أنقاض كنائسهم للهدمة عوقبوا باعتبارهم عصاة متمريدين على الدولة .

وكانت حملات الخيالة dragonnades قد بدأت خلال هذا ، فقد كان من العادات القديمة في فرنسا أن يسكن الجنود في الكومونات أو البيوت وعلى حسابها . واقترح لوفوا وزير الحرب على الملك ( ١١ أبريل ١٦٨١ ) إعفاء معتنقي الكاثوليكية الجدد حامين من هذا الإيواء للجنود ، فأصدر الملك الأمر ، وعلى ذلك أمر لوفوا للمديرين العسكريين لإقليمي بواتو وليموزان بأن ينزلوا خيالتهم مساكن الهييجونوت ، لاسيما الأثرياء منهم . وفي بواتو سمح المرشال ماريك لجنوده بأن يفهموا أنه لن يسوءه أن يعاملوا مضيفيهم البواسل بشيء من الغيرة الرسولية ، وراح الجنود يسرقون الهييجونوت ويضربونهم ويهتكون أعراضهم ، فلما سمع لويس بهذا الشطط وبخ ماريك ، ولما استمر طرده من وظيفته (٩٣) . وفي ١٩ مايو أمر بوقف هداية الهييجونوت بطريق إيواء الخيالة ، وشجب أعمال العنف التي ارتكبت في بعض الأماكن ضد دعاة الإصلاح البروتستنتي (٩٤) . وأبلغ لوفوا المديرين الإقليميين بأن لهم أن يواصلوا حملات الخيالة ، ولكنه بيهم إلى ضرورة حجب كل معلومات عن هذا الأمر عن الملك . وانتشرت حملات الخيالة في أرجاء كثيرة من فرنسا ، فأدخلت في الكاثوليكية آلافاً من المهتدين . وأنكرت مدن وأقاليم - كوبييليه ، ونيم ، وبيارن - مذهبها السكالفني على بكرة أبيها ، وتظاهر أغلب الهييجونوت باعتناق الكاثوليكية بعد أن أُرهبهم الأمر ، ولكن الألوف هجروا بيوتهم وأملاكهم وهربوا عبر الحدود أو وراء البحر متحددين القواين . وأبلغ لويس أنه لم يبق بفرنسا غير قلة قليلة من الهييجونوت ، وأن مرسوم نانت أصبح بلا معنى . وفي ١٦٨٤ ألغيت الجمعية العامة للاكليروس من الملك إلغاء المرسوم كلية ، وتوطيد ملك يسوع المسيح غير منازع من جديد في فرنسا (٩٥) .

وفي ١٧ أكتوبر ١٦٨٥ ألغى الملك مرسوم ثامت باعتباره مرسوماً  
اللازوم له الآن في فرنسا التي تدين كلها تقريباً بالكثلكة . فحظر منذ ذلك  
التاريخ على الهيجونوت إقامة شعائرهم أو فتح مدارسهم ، وصدر الأمر  
بهدم كل أمكنة العبادة الهيجونوتية وتحويلها كنائس كاثوليكية ، وأمر  
رجال الدين الهيجونوت بالرحيل عن فرنسا في ظرف أربعة عشر يوماً ،  
ولكن هجرة غيرهم من الهيجونوت حرمت وإلا كان عقاب المهاجرين  
تشغيلهم في سفن الأسرى مدى الحياة . ووعده المخبرون بنصف بضائع  
المهاجرين العلمانيين (٩٦) ، وقضى بأن يعمد جميع الأطفال المولودين في  
فرنسا بواسطة القساوسة الكاثوليك وأن يربوا على المذهب الكاثوليكي ،  
ووعدت فقرة أخيرة بالسماح للقله الباقية من الهيجونوت بأن يسكنوا بعض  
المدن آمنين . ونفذت المادة في باريس وضواحيها ، وحمل رئيس الشرطة  
التجار الهيجونوت هناك وطمأنهم ، ولم يكن هناك حملات خيالة في باريس  
أو قربها ، وكان في وسع المراقص أن تمضي في فرساي ، وفي وسع الملك  
أن ينام مطمئناً مرتاح الضمير ، ولكن حملات الخيالة استمرت في كثير  
من الأقاليم بتحريض من لوفوا (٩٧) ، وتعرض الهيجونوت المعاندون للنهب  
والتعذيب . يقول الحجة الفرنسي الأكبر في إلغاء مرسوم ثامت :

« لقد أذن للجنود أن يقترفوا كل جريمة إلا القتل . فكانوا يكرهون  
الهيجونوت على الرقص حتى يدركهم الإعياء ، ويقذفون بهم في البطاطين إلى  
أعلى ، ويصبون الماء المغلي في حلقهم . . . ، ويضربون بطون أقدامهم ،  
وينتفون لحام . . . ، ويحرقون أذرع مضيفهم وسيقانهم بلهب الشموع . . . ،  
ويكرهونهم على أن يقبضوا على الحجر الملائم بأيديهم . . . ، ويحرقون  
أرجل الكثيرين بإمساكها طويلاً أمام نار كبيرة . . . ويلزمون النساء بأن  
يقفن عرايا في الطريق يحتملن هز المسارة واهاناتهم . وقد أوثقوا مرة  
أما مرضعاً إلى صود سرير وأمسكوا برضيعها بعيداً عنها وهو يهرخ في  
حلب ثديها ، فلما فتحت فمها لتتوسل إليهم بصقوا فيه (٩٨) . »

ويرى ميشليه أن إرهاب ١٦٨٥ للقدس هذا كان أمتع كثيرا من إرهاب عصر الثورة في ١٧٩٣ (٩٩). وقد أكرر نحو ٤٠٠.٠٠٠ من « المهتدين » على حضور القداس وتناول القربان ، وحكم على الذين بصقوا قطع القربان للمكرسة بعد مغادرتهم الكنيسة بالحرق احياء (١٠٠). وزج بالذكور من الهيجونوت للعاندين في سجون تحت الأرض أو زنايات غير مدفأة . أما نساء الهيجونوت للمعنات في العناد فقد حبسن في الأديار حيث لقين على غير توقع للمعاملة الرحيمة من الراهبات (١٠١).

على أن إقليمين قاوما الإرهاب ببسالة ملحوظة . وسنسمع أنباء القودوا في الدوفينية الفرنسية وييدمونت السافووية في مكان لاحق من هذا الكتاب . وفي أودية سلسلة جبال السيفين في اللانجدوك احتفظ الألوف من الهيجونوت « المهتدين » بإيمانهم سرا ، مترقبين الوقت والفرصة للتحرر . وقد أكد لهم « أنبيائهم » الذين أدعوا الوحي الإلهي بأن الوقت قد اقترب ، فلما بدا أن حرب الوراثة الأسبانية تستوعب الأسلحة الفرنسية ، شكل الفلاحون جماعات متمردة من « الكاميزار Camisards » الذين ارتدوا القمصان البيض ليميز بعضهم بعضا في الليل . وفي إحدى المارك قتلوا الأب شيلا الذي كان يضطهدهم بغيرة شديدة ، ففأجاءم فوج من الجند وذبحهم دون تمييز ، وهدم بيوتهم وخرب محاصيلهم (١٧٠٢). وردت بقية منهم على هذا الهجوم بضراوة ، إلى أن اقنعتهم بالصلح وسائل المرشال فيلار الدوفينية .

ومن بين الهيجونوت الذين سكنوا فرنسا في ١٦٦٠ والبالغ عددهم ٤٠٠.٠٠٠ ر ١٠٠.٠٠٠ ، فرنحو ٤٠٠.٠٠٠ في العقد الذي تخلله إلغاء مرسوم نانت عبر الحدود المخفورة مغامرين بحياتهم . وطاشت مئات قصص البطولة قربها بأكله بعد تلك السنين اليائسة . ورحبت الدول البروتستنتية بالمهاجرين فأفسحت جنيف مكانا لأربعة آلاف من الهيجونوت برغم أن سكانها لم يزيدوا على ستة عشر ألفا . وقدم تشارلز الثاني وجيمس الثاني للمعونة للمادية



لهيجونوت على الرغم من كئسكتهما ، وسهلا استيعابهم في الحياة السياسية والاقتصادية الإنجليزية . واستقبلهم ناخب براندنبورج استقبالا وديا حتى أن أكثر من خمس سكان برلين في ١٦٩٧ كانوا فرنسيين . وفتحت لهم هولندية أبوابها وبذت مئات البيوت لأيواء الوافدين واقترضهم للمال ليعيهم ومصلحتهم وكفلت لهم كل حقوق للمواطنة ، وانضم الكاثوليك الهولنديون إلى البروتستانت واليهود في جمع للمال لإعانة الهيجونوت . ولم يكتف اللاجئون الشاكرون بإثراء الصناعة والتجارة في الأقاليم المتحدة ، بل إنهم تطوعوا في الجيوش الهولندية والإنجليزية التي خاضت القتال ضد فرنسا ، ورافق بعضهم ولهم الثالث أو تبعه إلى إنجلترا ليساعدوه على جيهس الثاني . أما المرشال شومبيرج الكلفني الفرنسي الذي أحرز انتصارات للويس الرابع عشر من قبل فقاد جيشا إنجليزيا ضد الفرنسيين ومات وهو يهزمهم في معركة البوين ( ١٩٦٠ ) ، وفي كل بلد من هذه البلاد المضيافة جلب الهيجونوت مهاراتهم في الحرف والتجارة والمال ، وأقامت أوروبا البروتستانتية كلها من انتصار الكاثوليك في فرنسا . وشغل صناع الحرير الفرنسيون حيا بأكمله من أحياء لندن ، وأصبح المنفيون الهيجونوت في إنجلترا شراح الفسك الإنجليزي ومترجميه لفرنسا ، فهدوا بذلك لغزو بيكون هونيوتن ولوك للعقل الفرنسي .

واستنكرت قلة من الكاثوليك الفرنسيين سرا تلك المذابح التي رافقت إلغاء المرسوم ، وأمدوا كثيرا من المضحايا بالمعونة وقدموا لهم المأجأ خفية . ولكن الكثرة العظمى هلت للقضاء على الهيجونوت باعتباره قوة إنجازات الملك ، وقالوا أن فرنسا أصبحت الآن ، في النهاية ، بلدا كاثوليكيا موحدا . وأثنى كبار الكتاب أمثال بوسويه وفنيلون ولافونتين ولا برويير ، وحتى الأب الجانسي آرنو ، على شجاعة الملك في تنفيذ ما خالوه إرادة الأمة . وكتبت مدام دسفينيه تقول « ليس هناك أبدع ولا أروع . ولم يصنع

ملك ولن يصنع شيئاً أخله من هذا (١٠٢) . أما لويس نفسه فأسمعه أن يكمل - كما خيل إليه - عملاً ثقيلاً ولكنه مقدس . يقول سان سيمون : -

« لقد آمن أنه جدد عهد تبشير الرسل الأولين . وكتب الأساقفة للدائع التي تشيد به ، وجعل اليسوعيون المنابر تتغنى بالثناء عليه ... ولم يكن يسمع غير الاطراء بينما كان الكاثوليك والأساقفة الاتقياء الصادقون يثنون بالروح إذ يرون الكاثوليك السنين ينحرفون إلى الخطأ ، والمهرطقين يسلكون مسلك الطغاة الخوارج ، والوثنيين يحاربون الحق والمؤمنين المجاهرين بإيمانهم والشهداء . ولم يستطيعوا أن يطيقوا هذا السيل من الحنث وتدنيس المقدسات (١٠٣) . »

وكان سان - سيمون وفوبان من الفرنسيين القلائل الذين أدركوا منذ البداية تلك الخسارة الاقتصادية التي ألحقها بفرنسا نزوح هذا العدد الكبير من المواطنين الكادحين . وفقدت كان صناعة نسيجها ، وتور ثلاثة أرباع أنوال الحرير فيها . ومن بين الستين مصنعا للورق في إقليم أنجوموا لم يبق سوى ستة عشر ، ومن بين ١٠٩ متجر في مدينة ميزير لم يبق سوى ثمانية ، ومن بين أربعمئة مصبغة في تور لم يبق سوى أربع وخمسين (١٠٤) . واضمحلت ثغور كرسيليا لفقدتها الأسواق في بلاد أصبحت الآن بفضل جهود الهيجونوت وإرشادهم تنتج ما كانت من قبل تستورده من فرنسا . وقضى جزئياً على حركة التعمير الكبرى التي أدخلها كولبير على الاقتصاد الفرنسي ، ونزحت الصناعات التي جاهد في سبيل تنميتها في فرنسا لتغذي منافسيها . ولما هبطت إيرادات الدولة من الصناعة هبوطاً حاداً وقعت الحكومة من جديد في أيدي المرابين الذين انتقدها كولبير من براثنهم . وفقدت البحرية الفرنسية تسعة آلاف بحار ، والجيش ستماية ضابط واثني عشر ألف جندي ، ولعل نضوب البحرية والجيش على هذا النحو كان من عوامل الهزائم التي أوشكت أن تحطم فرنسا في حرب الوراثة الأسبانية .

كذلك شددت همجية الاضطهاد الرهيبة واستغاثات المهاجرين من عزيمة  
أوروبا البروتستنتية على الاتحاد ضد فرنسا .

على أن إلغاء المرسوم ربما كان معيناً غير مباشر للفنون والعادات  
ولطائف الحياة في فرنسا . ذلك أن الروح الكلفنية المتشككة في الزينة  
والصور المنحوتة والمرح الطائش ثبعت الفن والأناقة والظرف ، ولو أن فرنسا  
أصبحت بيوريتانية لسكانت شذوذاً وخطأً . ولكن إلغاء المرسوم كان كارثة  
على الدين الفرنسي . لقد لاحظ بيكون من قبل أن مشهد الحروب الدينية  
كان خليطاً بأن يجعل لوكريتوس — لو رآه — « سبعة أضعاف ما كان  
أبيقورية » وإلحاداً (١٠٥) . « فماذا تراه كان قائلاً الآن ؟ لم تبق نقطة توفف  
للعقل الغالى بين الكاثوليكية والإلحاد . وبينما أفادت البروتستنتية في  
سويسرة وألمانيا وهولندة وإنجلترا في الإعراب عن الفرد على الكنيسة ،  
لم يبق في فرنسا أداة استنكار كهذه . فوجدت حركة الانتفاض على  
الرومانية أنه أيسر لها أن تكون شكاً خالصة من أن تكون بروتستنتية  
سافرة . وانتقلت النهضة الفرنسية ، غير المعوقة من البروتستنتية ، رأساً إلى  
حركة التنوير بعد موت الملك .

#### ٧ - بوسوييه : ١٦٢٧ - ٨٨

بيد أن الكنيسة الفرنسية كانت ظافرة ولو مؤقتاً ، وتربعت على عرش  
بهاؤها وسلطانها . وكانت رغم ماشاب روحها الجماعية من تعصب ، وما عاب  
سلطتها من قسوة ، تضم أرقى نخبة من الرجال في أوروبا تعليماً ، وكان قديسوها  
ينافسون طغاتها . وكان من أساقفتها نفر ذوو نزعة إنسانية ، ما كفون  
في إخلاص على الخير العام كما رأوه . ودخل اثنان منهم الأدب الفرنسي  
دخولاً شارب في سنائه دخول بسكال ، وكان في زمانهما أكثر بروزاً .  
وقلما تجد بين رجال الكنيسة الفرنسيين من ضارع في ميمته بوسوييه ،  
أو فنيون في شعبيته .

أما جاك بنين بوسويه ( واسمه الأوسط Benigno — أى اللطيف —  
كان أنسب لفنيلون ) فقد ولد فى أسرة ثرية لحام بارز وعضو فى برلمان  
ديجون ( ١٦٢٧ ) . نذره أبواه للقسوسية ، وجز شعر رأسه فى الثامنة ،  
وحين بلغ الثالثة عشرة عين كاهناً فى كاتدرائية متر . وفى الخامسة عشرة  
أرسل إلى كلية نافار بباريس . وفى السادسة عشرة كان قد بلغ من الفصاحة  
منزلة حملت نساء الأوتيل درامبوييه المثقفات على إقناعه بأن ياتى عليهن عظة  
فى منتصف سهرة الصالون رغم ما طبع عليه من كبرياء مقترنة بالخبجل .  
وبعد أن تخرج بمرتبة الشرف عاد إلى متر ورسم قسيساً وتقدم بعد قليل  
لنيل درجة الدكتوراه فى اللاهوت . وقد راعه أن يجد أن عشرة آلاف  
من بين الثلاثين ألف نفس فى متر كانوا من البروتستانت الهالكين . ودخل  
فى جدل مذهب مع بول فيرى الزعيم الهيجونوتى ، وقد سلم له ببعض  
المفاسد فى الممارسات الكاثوليكية ، ولكنه زعم أن الانشقاق رغم ذلك  
شر أعظم . وظل على علاقات ودية مع فيرى اثنتى عشر سنة ، تماماً كما سهرام  
فى فترة لاحقة يجاهد جهاداً حقيقياً مع لينتز فى سبيل إعادة توحيد العالم  
المسيحى . ولما سمعته آن النمساوية يعظ فى متر خيل إليها إنه أرقى من تلك  
البيئة التى لا تليق بمواهبه ، وأقنعت الملك بأن يدعوّه إلى باريس ، فانتقل  
إليها فى ١٦٥٩ .

ووعظ أول الأمر جماهير بسيطة فى دير سان لازار برعاية فانسان  
دبول . وفى ١٦٦٠ وعظ جمهوراً عريضاً فى كنيسة « لى مينيم » قرب  
البلاس رويال . وسمعه الملك ، فتبين فى الخطيب الشاب مزيجاً متوازياً من  
البلاغة ، واستقامه العقيدة ، وقوة الخلق . فدعاه لإلقاء عظات الصوم  
بالسكير فى ١٦٦٢ باللوفر ، واختلف إلى هذه الخطب فى تقوى واضحه ،  
الهم إلا فى ذلك الأحد الذى اطلق فيه على جواده مسرعا ليسترد لويز دلا  
ماليير من الدير . وحفز حضور الملك هذه العظات بوسويه على أن ينقى  
أسلوبه من الجلافات الريفية ، والاستشهادات السكولاستية ، والحجج الجدلية .

ذلك أن أناقة البلاط انتقلت إلى كبار الأكليروس ، فأثرت عهداً من البلاغة المنبرية ينافس البلاغة القانونية التي اشتهر بها ديموستين وشيشرون . وفي أثناء السنوات الثمانية التالية وفق بوسويه في أن يكون الخطيب المفضل في كنائس القصر ، ثم أصبح المرشد الروحي لعدد من كبريات النبيلاب مثل هنرييتا « مدام » دورليان ؛ و مدام دلو نجفيل ، و مدموازيل دمو ببالنسيه ( ١٠٦ ) وكان في بعض عظاته يوجه الخطاب إلى الملك مباشرة ، مغالياً في تعلقه عادة ، ولكنه دعاه مرة بحمارة إلى أن يهجر زناه وفجوره ويعود إلى زوجته . ففقد برهة رضا الملك ، ولكنه استرده حين هدى تورين إلى الكاثوليكية . وفي ١٦٦٧ اختاره لويس ليؤن آناً المساوية في مآثمها ، وبعد عامين ألقى عظه فوق جثمان هنرييتا ماري ملكة إنجلترا الأرملة ، وفي ١٦٧٠ اضطلع بواجب أليم هو تأبين هنرييتا الصغرى ، تائبته المحبوبة التي فاضت روحها بين ذراعيه في فتنة صباها التي لم يكتب لها بقاء طويل .

والمظتان اللتان ابن بهما تشارلز الثاني ملك إنجلترا وأخته هما أشهر العظات قاطبة في الأدب الفرنسي — لأن خطاب البابا أوربان الثاني الذي مازال يفوقهما شهرة ، والذي استنفر فيه أوروبا إلى الحرب الصليبية الأولى ( ١٠٩٥ ) — هذا الخطاب كان باللاتينية وإن ألقى على أرض فرنسية . واستهل بوسويه أول هذين التأيينين بموضوعه الجريء المفضل ، وهو أن على الملوك أن يتعلموا من دروس التاريخ ، وأن الانتقام الإلهي سوف يحل بهم إن لم يستعملوا سلطتهم لخير الشعب ، ولكنه بدلاً من أن يرى في تشارلز الأول ملك إنجلترا مثلاً على هذا العقاب ، لم يجد فيه عيباً سوى فرط رأفته ، ولم يجد عيباً على الإطلاق في زوجته الوفية ، فصور الملكة للتوبة قديسة . جاهدت لتهدى زوجها وإنجلترا إلى الكاثوليكية . ثم استطرد بإسهاب في موضوع آخر يحبب إلى نفسه ، وهو تكرار الملل والنحل البروتستنتية التي لا حصر لها ، وفوضى الأخلاق المنبعثة من اضطراب العقيدة ، وقال : إن « التمرد الكبير » كان عقاباً إلهياً على مروق إنجلترا

من كنيسة روما ، ولكن ما كان أروع سلوك الملكة بعد إعدام زوجها على هذا النحو الإجرامى الرهيب ! لقد تقبلت أحزانها بكفارة وبركة ، وحمدت الله عليها وعاشت أحد عشر عاماً فى صلالة متواضعة صابرة ، وأخيراً أثبتت على تعبها ، فرد ابنها إلى عرشه ، وكان فى وسع الملكة الأم أن تسكن القصور من جديد ، ولكنها آثرت عليها ديراً فى فرنسا ، ولم تستعمل ثروتها الجديدة إلا فى الاستكثار من أعمال البر .

وكان أشد من هذه تأثيراً وأوثق قرباً للتاريخ وللذكريات الفرنسية تلك العظة التى ألقاها بوسويه بعد عشرة شهور فوق جثمان هنرييتا آن . وكان قد رسم قبيل ذلك أسقفاً لكوندوم فى جنوب غربى فرنسا ، ومن أجل هذا الخطاب جاء إلى كنيسة دير سان — دنى فى كل بهائه الأسقفى ، يتقدمه المنادون ، وعلى رأسه تاج الأسقفية ، وفى أصبعه تتألق الزمردة الكبيرة التى أهدته إياها يا الأميرة المتوفاة . وفى مثل هذه العظات كان يحد من انفعال الخطيب تفكيره فى الموت فى صورة طامة ، أما الآن فقد كان الموت موت واحدة كانت حتى الأمس القريب مسرة الملك وبهاء البلاط ، وأجهرش الحبر الجليل بالبكاء وهو يذكر كيف فوجئ القوم مفاجأة ألحمة بهذه اللطمة التى جعلت فرنسا كلها تنوح وتتعجب من طارق الله . ثم وصف هنرييتا لابل موضوعية طائرة ، بل بتحيز المحبة — « لقد كانت على الدوام لطيفة مسالمة ممتعة خيرة (١٠٧) » — واكتفى بالإلماع فى إيجاز حكيم إلى أن سماعتها لم تتكافأ مع فضائلها . ثم تجاسر حتى هذا الأسقف الأريب وكن السنية الركين وحارسها الأمين — تجاسر لحظة على أن يسأل الله لم يزدهر كل هذا الثمر والظلم على الأرض (١٠٨) . ثم عزى نفسه وجمهوره بذكرى تقوى هنرييتا فى احتضارها ، وبالأسرار المقدسة التى طهرتها من كل علاقاتها الأرضية ، فلا ريب إذن أن روحاً رقيقة مطهرة كروحها تستحق الخلاص ، بل إنها لتزين الفردوس نفسه !

وبسبب خطأ نادر فى الحكم على الأخلاق عين لويس بوسويه (١٦٢٠)

معلما للدوفان ، متأثراً في ذلك ببلاغته تلك — وعهد إليه بتدريب ذلك الصبي المتخلف ، المتبلد الحس ، على المعرفة والخلق اللازمين لحكم فرنسا . وانصرف بوسويه مخلصاً لهذه المهمة . فاستقال من أسقفيته ليسكون قريباً من تلميذه القاصر ومن البلاط ، وكتب للويس الصغير كتيبات جادة في تاريخ العالم والمنطق والإيمان المسيحي والحكم وواجبات الملك ، مما كان خليقاً بأن يجعل من الصبي هولة من السكال والقوة .

وفي إحدى هذه المقالات المسماة « السياسة مستقاة من كلام الأسفار المقدسة » ( ١٦٧٩ — ١٧٠٩ ) دافع بوسويه عن الملكية المطلقة وحق الملوك الإلهي بغيرة فاقت غيرة الكردينال بيلارمين في تأييده لسيادة البابوات . ألم يكتب في العهد القديم أن « الله أعطى لكل شعب حاكمه » ( ١٠٩ ) وفي العهد الجديد بكل سلطان القديس بولس « إن السلاطين مرتبة من الله » ( ١١٠ ) ، أجل ، ولقد أضاف الرسول قوله « إذن فكل من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة » . واضح إذن أن كل من يقبل الكتاب المقدس كلمة الله يجب أن يكرم الملك باعتباره خليفة لله ، أو كما قال أشعيا النبي عن كورش إنه « مسيح الرب » ( ١١١ ) . إذن فشمس الملك مقدس ، وسلطة الملك مقدسه ومطلقة ، والملك لا يسأل إلا أمام الله . ولكن هذه المسئولية تضع على عاتقه التزامات قاسية . فعليه في كل لفظ وعمل أن يطيع قوانين الله ، ومن حسن حظ لويس أن إله التوراة كان عطوفاً على تعدد الزوجات .

كذلك كتب بوسويه للدوفان ( ١٦٧٩ ) كتابه الشهير « حديث عن تاريخ العالم » . ذلك أنه حين روعه إلماع ديكارت إلى أن جميع الأحداث في العالم للموضوعي — إذا افترضنا لها دفعة مبدئية من الله — يمكن أن تفسر آلياً بأنها منبعثة من قوانين الطبيعة ودستورها ، رد عليه بأن كل حدث كبير في التاريخ إنما هو — على البقيض من ذلك — جزء

من خطة إلهية ، ومعمل من أعمال العناية الإلهية أفضى إلى ذبيحة المسيح . ونمو المسيحية لتصبح « مدينة متسعة لله » . وتناول الكتاب المقدس ثانية باعتباره موحى من الله ، فركز التاريخ كله على سيرة يهود العهد القديم والأمم التي أنارتها المسيحية . « لقد استخدم الله الآشوريين والبابليين ، ليعاقب شعبه المختار ، والفرس ليردهم إلى وطنهم ، والاسكندر ليعصمهم ، وأنطيوخس ليمتحنهم ، والرومان ليصونوا حرية اليهود ضد ملوك سوريا » . فإذا بدا لنا في هذا الرأي إحماقة ، فإن علينا أن نذكر أنه كان أيضا رأى كتاب التوراة الذين وحد بوسويه بينهم وبين الله في ثقة . ومن ثم فقد بدأ بخلاصة لتاريخ العهد القديم ، وقام بهذه المهمة بمساعف عنه من ولع بالنظام والإيجاز وقوة البلاغة . واعتمد ترتيبه الزمني على تقويم أوشير رئيس الأساقفة ، فأرخ الخليقة بسنة ٤٠٠٤ و مر بوسويه مرور الكرام بتلك الأمم التي لم يشر إليها الكتاب المقدس ، ولكنه وصفها وصفا مجللا ينم على بصيرة وقوة ملحوظتين ، وأبدى فهما عطوفا للقضايا والإنجازات الوثنية . وقد رأى بعض التقدم خلال أشكال الإمبراطوريات الصاعدة والساقطة ، واتخذت فكرة التقدم جسدا ولحا في كتاباته ، وكذلك في كتابات شارل بيرو وغيره من المدافعين المعاصرين عن المحدثين ضد القدامى ، ومهدت الطريق من بعيد لطورجر وكوندرسيه . وخلق الكتاب رغم كل عيوبه الفلسفة الحديثة للتاريخ ، وحسب رجل واحد أن يحقق انجازا كهذا .

على أن الأمير تلميذ بوسويه لم يقدر شرف تأليف الكتب العظيمة لتعليمه . فقد كان في روح بوسويه من الجد والصرامة مالا يجمله المعلم اللطيف المرضي . وكان أنسب لطبيعته أن يرشد في رفق لويژ دلافالير لتهرب من حياة الزنا إلى الدير ، وقد أتى العظة حين قطعت على نفسها عهد الرهبنة . وفي ذلك العام ( ١٦٧٥ ) جاهر ثانية بلوم للملك الزير ، واستمع إليه لويس في صبر نافذ ، ولكنه أعاده لمنصب الأسقفية وعينه أسقفا على مو ( ١٦٨١ )



على قرب من فرساي ينبغي له أن يتذوق نغامة البلاط وبهاؤه . وكان طوال ذلك الجيل للمتسكبر ، الخارج والقائد العمدة للأكليروس الفرنسي . وقد وضع لأجلهم « للواد الأربع » التي أكدت من جديد « الحريات الغالية » للكنيسة الفرنسية إزاء السيطرة البابوية . ولقد أفقده صله هذا قبعة الكردينالية ، ولسكنه أصبح بابا فرنسا .

ولم يكن بالبابا السيئ . فهو مع إصراره على كرامة الأسقفية ورعاية مراسمها ظل رحيمًا لطيفًا ، وبسط عبادة فوق ألوان كثيرة من المعتقد الكاثوليكي . وقد وافق بسكال على إدانة الشطط الذي تورط فيه الإفتاء الديني دون أن يغتفر له السخط والاحتقار اللذين إلهما رسائله الإقليمية . ففي ١٧٠٠ أقنع جمعية الأكليروس العامة باستنكار ١٢٧ قضية أخذت من فتاوى للفتين اليسوعيين ، وقد ظل على علاقات ودية مع آرنو وغيره من الجانسينيين . وذاع عنه أنه كان متسامحًا في كرسى الاعتراف ، وأنه استنكر مظاهر التقشف في العلمانيين ، ولكنه أطرى بحرارة نسك رانسيه ، وكان يختلف بين الحين والحين إلى خلية في لاتراب ، ويتمنى أحيانًا أن يظفر بسلام صومعة الراهب . ولكن بريق البلاط غلب طموحه للقداسة ، ولوث لاهوته بأطماع الارتقاء في مراتب الكنيسة والدولة . وقد توسل مرة إلى رئيسة الدير في موقائلا : « صلي لأجلى لكيلا أحب العالم (١١٢) » . وقد أصبح أشد إصرامة في أخريات أيامه . وعلينا أن نغتنر له تنديده بالمسرحية وبموليير في كتابه « حقائق طامة عن الملهاة » ( ١٦٩٤ ) لأن موليير لم يعرض الدين إلا في صورته للزمتة المناققة ، ولم يأنصف رجالًا مثل فانسان ديول .

كان بوسويه أشد تعصبًا نظريًا منه صليًا . فقد رأى أن من السخف أن يظن أي ذهن فردي مهما عظم ذكاؤه أنه يستطيع أن يكتب في عمر واحد من المعرفة والحكمة ما يؤهله للجلوس في كرسى القضاء ليحكم على

تقاليد ومعتقدات الأسرة والمجتمع والدولة والكنيسة . فالحس المشترك « Sans commun » أجدر بالثقة من التفكير الفردي ، ولا يعنى الحس أو الإدراك المشترك فسر الأشخاص العاديين ، بل الذكاء الجماعى لأجيال علمتها قرون من الخبرة ، والذكاء الذى يتمثل فى أعراف النوع الإنسانى ومعتقداته . فمنذا الذى يستطيع أن يزعم أنه يعرف خيرا من هؤلاء جميعا حاجات النفس البشرية والإجابات عن الأسئلة التى لا يستطيع المعرفة وحدها أن تجيب عنها؟ وبترتب على هذا أن ذهن البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه السلام ، والتفكير الحر لا يستطيع إلا أن يدمر ذلك السلام ، والمجتمع البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه الأخلاق ، ولكن التفكير الحر بتشككه فى المصدر الإلهى للقانون الخلقى إنما يهدم النظام الأخلاقى برمته . فالهرطقة إذن خيانة للمجتمع والدولة كما أنها خيانة للكنيسة ، و«الذين يؤمنون بأن الملك ينبغى ألا يستعمل القوة فى أمور الدين... يرتكبون خطأ مجابها للتقوى» (١١٣) . ولقد آثر الأسقف الإقناع على الإكراه فى هداية المهرطقين ، ولكنه دافع عن الإكراه باعتباره الملاذ الأخير ، ورحب بإلغاء مرسوم نانت لأنه « المرسوم الورع الذى سيكيل للهرطقة الضربة القاضية » . ونفذ القانون فى إقليمه بكثير من التسامح ، حتى لقد كتب الناظر الملكى يقول « ليس فى الإمكان عمل شئ فى أعتقية مو ، لأن ضعف الأسقف يقف عقبة فى سبيل هداية الهيجوانوت (١١٤) » . وقد ثبت معظم الهيجوانوت فى تلك المنطقة على مذاهبهم .

وكان إلى النهاية يعمل نفسه بأن الحجة قادرة أن تكسب حتى هولنده وألمانيا وإنجلترا وتردها للإيمان القديم . وسنراه يفاوض لايبنتز سنوات عديدة على خطة الفيلسوف التى اقترحها لإعادة توحيد القطاعات المنشقة من المسيحية . وفى ١٦٨٨ كتب راعته « تاريخ ملال الكنائس البروتستنتية » — وهو الذى قال « بكل » إنه « ربما كان أخطر كتاب وجهه ضد البروتستنتية (١١٥) . وقد تميزت مجلداته الأربعة بالدراسة الشاقة ، وكانت كل صفحة فيها تدعم بالمراجع ، وهولون من الأمانة كان بدأ يتجسد .

وبذل الأسقف في كتابه محاولة ليكون منصفاً . فسلم بمفاسد الكنيسة التي تمرّد عليها لوثر ، ورأى الكثير مما يستحق الإعجاب في خلق لوثر ، ولكنه لم يستطيع أن يسيغ الفظاظة للبهجة التي اختلطت في لوثر بالبسالة الوطنية والتقوى الرجولية . ثم صور ملانكتون بصورة تكاد تكون صورة الحب . غير أنه كان يأمل في تفكيك ولاء أتباع هؤلاء المصلحين لهم باظهار مواطن ضعفهم الشخصي وخلافاتهم اللاهوتية وقد هزأ بالفكرة التي زعمت أن لكل إنسان الحرية في تفسير الكتاب المقدس لنفسه وتأسيس دين جديد على قراءة جديدة له ، فكل من خبر الطبيعة البشرية يستطيع أن يتنبأ بأنه لو ترك هؤلاء الحبل على الغارب لأسفر هذا عن تفتت المسيحية إلى متاهة من الملل والنحل ، وتفتت الأخلاق إلى فردية لا يستطيع أن يكبح جراح غرائز الغاب فيها سوى الاستكثار من الشرطة استكثاراً لانهائية له . فمن لوثر إلى كالفن إلى سوكينوس — من رفض البابوية ، إلى رفض سر القربان إلى رفض المسيح — ثم من التوحيد ( رفض التثليث ) إلى الإلحاد ، تلك هي الدرجات الهابطة شيئاً فشيئاً إلى انحلال الإيمان . ومن الثورة الدينية إلى الثورة الاجتماعية ، ومن رسائل لوثر إلى حرب الفلاحين ، ومن كالفن إلى كرمويل إلى « المسوين » إلى قتل الملك ، تلك درجات منزلة في تحلل النظام الاجتماعي والسلام . ولا يستطيع سوى دين ذي سلطان أن يعطي الوازع للأخلاق ، ويمنع الاستقرار للدولة ، ويسلح الروح البشرية بالقوة وهي تواجه الحيرة وفقد الأحباء والموت .

لقد كان الكتاب حجة قوية ، شديدة التأثير بما حوت من ثقافة وبلاغة ، محتوية على صفحات لا ضرب لها في نثر ذلك العصر الفرنسي إلا في جدليات بسكال العنيفة و « خواطره » ، ولولا أن التجاهل للعقل قد أحبطه التجاؤد للقوة في فظاطات إلغاء المرسوم لحقق نجاحاً أعظم . فقد ظهرت في الدول البروتستنتية عشرات الردود المفنّدة لحجج الكتاب تشجب بقوة ذلك

التظاهر بالاحتكام إلى العقل في رجل حبذ النهب والسلب والذنى والمصادرة والاسترقاق في سفن تشغيل الأسرى حبجباللدفاع عن المسيحية الكاثوليكية. وتساءل أصحاب الردود ألم يكن هناك ملل مختلفة في الكاثوليكية أيضاً؟ وأى قرن خلا من الانقسامات في الكنيسة — من الكاثوليك الرومان ، والكاثوليك اليونان ، والكاثوليك الأرمن ، والكاثوليك الشرقيين ؟ وألم يكن جانسنيو البور — رويال في تلك اللحظة يقتتلون مع إخوانهم من الكاثوليك أعضاء جماعة يسوع ؟ وألم يكن الأكليروس الغالى بزطامة بوسويه نفسه في نزاع مر مع دعاة سلطان البابوية المطلق كاد يبلغ حد الانشقاق على روما ؟ وألم يكن بوسويه يقاتل فنيلون ؟

#### ٨ - فنيلون . ١٦٥١ - ١٧١٥

كان فرانسوا دسالنياك دلا موت — فنيلون ، النبيل المولد ، الثلاثى الاسم ، كبوسويه سنياً طموحاً ، أسقفاً ورجل بلاط ، ومعلماً لأمير من البيت للمالك ، وكاتباً من دخول النثر . ولكنه في غير ذلك كان بينه وبين بوسويه ما بين السماء والأرض من تباين . كتب سان — سيمون معرباً عن إعجابه بالرجل يقول :

« رجل قارع القوام نحيل الجسد قوى البنية شاحب الوجه كبير الأنف له عينان تقدحان الشر والدكاء . في سحنته ما يوحى بأنها تتألف من متناقضات ، ومع ذلك ، فإن هذه المتناقضات على نحو ما لا تؤذى الناظر . فوجهه أنيق وقور ، رزين مرح ، يطالملك منه اللاهوتى والأسقف والنبيل على السواء ، وفي هيئته كما في شخصه يرى الناظر قبل كل شىء رقة وتواضعاً وقدراً فائقاً من رفعة الدهن . لقد كان مسيراً على الناظر إليه أن يحول عينيه عن وجهه (١١٦) » .

وعند ميشليه أن « فيه شيئاً من الشيخوخة منذ ولادته (١١٧) » —

لأنه كان نعمة الازدهار الأخير لإقطاعى مكتمل فى بيريجوز تزوج آنسة نبيلة رغم فقرها ، ضارباً صفحاً عن تدمير أبنائه الكبار ، وألقى الابن الجديد عن المال بنذره للكنيسة . وربته أمه ، نشب على أناقاة فى الحديث ورهافة فى الحس أشبه بأناقاة حديث النساء ورهافة حسن . وقد أحسن تثقيفه فى الآداب القديمة على يد معلم خاص ويسوعي بباريس ، فأصبح أديباً لا قسيساً فحسب . وكان فى استطاعته أن يبارى أى مهرطق فى الاستشهاد بأقوال الوثنيين ، ويسكتب الفرنسية بأسلوب حساس مرهف مهذب هو نقيض أسلوب بوسويه الخطابى ، الفحل ، الجزل

رسم كاهنا فى الرابعة والعشرين ( ١٦٧٥ ) ، وسرطان مارق رئيساً لدير «الكاثوليك الجدد» . وهناك اضطلع بمهمة شاقة هى رد الشابات اللاتى أبعدن عن البروتستنتية حديثاً إلى حظيرة الإيمان الكاثوليكي . وقد استمعن إليه أول الأمر على مضض ، ثم فى استسلام ، ثم فى محبة ، لأنه كان يسيراً على المرء أن يقع فى غرام فنيلون ، ثم إنه الرجل الوحيد المتاح لمن . وفى ١٦٨٦ أرسل إلى إقليم لاروشل ليمان على هداية الهيجونوت . وقد حذب مرسوم الإلغاء ، ولكنه استنكر العنف ، وأفند زراء الملك بأن هداية الناس بالإكراه لن تكون إلا سطحية ومؤقتة . ولما طاد إلى الدير بباريس نشر ( ١٦٨٧ ) «رسالة فى تعليم البنات» تسكاد تستشف فيها روح روسوفى دفاعها عن الوسائل اللينة فى التربية . ولمساعين الملك الدوق دىوفيليه مربيكاً لحفيده دوق برجنديه ، البالغ من العمر ثمانية أعوام ، طلب إلى فنيلون أن يتولى تعليم الصبي ( ١٦٨٩ ) .

أما الدوق الصغير فكان متسكبراً عنيداً مشبوب العاطفة ، فى طبعه أحياناً شراسة وقسوة ، ولكنه أوتى ذهنك متألفاً وذكاء متوقداً . وأحس فنيلون أن الدين وحده هو السكفيل بترويضه ، فأشربه مخافة الله ومحبهه معاً ، واكتسب فى الوقت نفسه احترام تلميذه بأخذه بنظام حازم خفف

٩ — قصة الحضارة

من شدته فهم عطوف لدور المراهقة . وقد راودته الأحلام باصلاح فرنسا عن طريق تربية ملكها للمستقبل . فعلم الغلام سخافة الحرب ، وضرورة النهوض بالزراعة بدلا من تثبيط هم الفلاحين بالضرائب تجبى لبناء المدن الباذخة ولتحويل الحروب العدوانية . وفي كتابه « حوارات الموتى » الذى ألفه لتلميذه ، وسم بالهمجية « تلك الحكومة التى لا قوانين فيها غير ارادة رجل واحد . . . فالحاكم ينبغى أولا وقبل كل شئ أن يكون مطيعا للقانون ، فاذا ابتعد عن القانون لم يعد لشخصه قيمة » . وكل الحروب حروب أهلية ، لأن الناس جميعا أخوة ، يدين كل منهم للنوع الإنسانى — وهو الدولة الكبرى — بدين أعظم كثيرا من دينه للبلد الذى ولد فيه (١١٨) . أما الملك ، الذى لم يكن ضالعا فى هذا التعليم الذى لا تفهمه غير القلة ، والذى رأى تحسنا عجيبا فى خلق حفيده ، فقد كافأ فنيلون برئاسة أسقفية كامبريه ( ١٦٩٥ ) . وأخجل فنيلون أحرارا كثيرين باقامته تسعة أشهر من كل عام فى مقر رئاسته الدينية . أما الشهور الباقية فكان ينفقها فى البلاط تواقا للتأثير فى السياسة ، مواصلا أحيانا تعليم الدوق .

وخلال ذلك كان قد التقى بالمرأة التى قدر لها أن تكون « المرأة القاضية عليه » بمعنى السكامة . هذه المرأة ، واسمها مدام جان مارى دلا موت — جويون ، التى تزوجت فى السادسة عشرة ، وترملت فى الثامنة والعشرين وهى جميلة غنية ، تهافت الخطاب على طاب يدها ، ولكنها كانت قد تلقت تدريباً دينياً مكثفا ليحسبها ضد الرجال الطامعين ، ولم تهجد لتقواها منصرفا كافيا فى المراجعة الصورية لشعائر العبادة الكاثوليكية ، فاستمعت فى تجاوب لمتصوفة زمانها الذين وعدوا بسلام النفس — لا بالاعتراف والتناول والقداس بقدر ما هو بالاستغراق فى تأمل إله كلى الوجود ، وفى استسلام النفس لله استسلاما كاملا محبا . فى مثل هذه المحبة الإلهية لم يعد لأمر الدنيا وزن ، وفى مثل هذا التسامى الروحى يجوز للمرء أن يهمل كل العقوس

الدينية ومع ذلك يرقى إلى السماء ، لا بعد الموت فحسب بل في الحياة أيضاً . وكانت محكمة التفتيش قد أدانت القس الأسباني ميجويل دى مولينوس ( ١٦٨٧ ) لأنه بشر بـ « هدوئية » كهذه في إيطاليا ، ولكن الحركة كانت تنتشر في جميع أرجاء أوروبا — في « تقوية » ألمانيا والأراضي المنخفضة ، وبين الكويكرز وأفلاطوني كبردج بأنجلتره ، وبين « المنذرين » في فرنسا .

وقد بسطت مدام جويون آراؤها في عدة كتب ببلاغة مؤثرة ، فزعمت أن النفوس أشبه بالسيول التي انبثقت من عند الله وأنها لن تجد الراحة حتى تفني نفسها فيه تعالى كأنها الأنهار يبتلعها البحر ، فإذا الفردية تتلاشى ، وإذا الوعي بالذات أو بالعالم ، بل الوعي كله ، ينتهى ولا يبقى غير الاندماج في الله . في مثل هذه الحال تكون النفس معصومه ، لا ينال منها خير ولا شر ، ولا فضيلة ولا خطيئة . فهما فعلت ففعلها صواب ، ولا تستطيع قوة أن تؤذيها . وقالت مدام جويون لبوسويه أنها لا تستطيع أن تطلب المغفرة على ذنوبها ، لأنه لا ذنوب في عالم الوجد الصوفي الذي تعيش فيه ( ١١٩ ) . ورأت بعض نساء الطبقة الأرستقراطية في هذه الصوفية لونا رفيعا من التقوى . وكان من بين مريديها السيدات بوفيليه ، وشوفروز ، وبورتمار ، يل — إلى حد ما — مدام دمانتون . واستهوى فنيون نفسه هذا المزيج الساحر من التقوى والثراء والحسن . وكان خلقه هو ذاته مزيجا معقدآ من الصوفية والطموح والعاطفة الرقيقة . فأقنع مدام دمانتون بأن تسمح لمدام جويون بالتدريس في المدرسة التي أسستها زوجها الملك السرية في سان سير ، وطلبت دمانتون إلى كاهن اعترافها أن ينصحها في أمر مدام جويون ، فاستشار بوسويه ، ودعا بوسويه المتصوفة لتشرح له تعاليمها ، ففعلت . وتوجس الأسقف الحذر فيها خطرا يتهدد لاهوت الكنيسة وممارساتها ، لأنها لم تستغن عن الاسرار المقدسة والكاهن

فحسب ، بل عن الأناجيل والمسيح أيضاً ، فوبخها ، وناولها القربان ، وطلب إليها أن ترحل عن باريس وتكف عن التعاليم . فوافقت أول الأمر ، ولكنها عدلت بعد ذلك . واستطاع بوسويه أن يحمل السلطات على حبسها في دير ثمانية أعوام ( ١٦٩٥ — ١٧٠٣ ) أفرج عنها بعدها شريطة أن تعيش في هدوء على ضيعة ابنها قرب بلوا ، وهناك ماتت عام ١٧١٧ .

وأراد بوسويه أن يرسم الحدود للتصوف المباح ، فألف كتاباً بممناه « تعاليم عن حالات الصلاة » ( ١٦٩٦ ) وأطلع فنيلون على نسخة من المخطوطة وطلب إليه أن يوافق عليها . وتردد فنيلون ، وكتب كتاباً معارضاً بممناه « تفسير أقوال القديسين للمأثورة عن الحياة الباطنة » ( ١٦٩٧ ) . وأصبح الكتابان اللذان نشرا في وقت واحد تقريباً مثار نقاش واسع ، احتدم احتدام النقاش حول البور — رويال . أما الملك الذي كان يضع ثقته في بوسويه فقد عزل فنيلون من وظيفته معلماً لدوق برجنديه ، وأمره بأن يلزم أسقفيته في كامبري . وطلب لويس إلى البابا بتحريض من بوسويه أن يشجب كتاب فنيلون . ولكن إنوسنت الثاني عشر تردد ، فهو لم ينس نزعة بوسويه الغالية ، ودفاع فنيلون عن سلطة البابا المطلقة . وضغط لويس على البابا ، فأذعن ، ولكنه توخى غاية الاعتدال في ادانته لكتاب « الأقوال المأثورة » ( مارس ١٦٩٩ ) . وأذعن فنيلون للحكم في هدوء .

ثم راح يؤدي واجباته في كامبري باخلاص وضمير أكسبها احترام فرنسا ، ولعلهما كانا خليقين باسترضاء بوسويه والملك لولا أن طابعاً نشر ( أبريل ١٦٩٩ ) برضى فنيلون رواية كان قد ألفها لتليذه الأمير ووضع لها عنواناً بريئاً في ظاهره « تنمة لأوديسة هوميروس » وهي معروفة لنا باسم ( مغامرات تيليامك بن أوليس ) . هنا ، وفي أسلوب يفيض رشاقة ونعومة ورقة أنثوية تقريباً ، شرح المعلم اللطيف مرة أخرى فلسفته السياسية المثالية . فترى لسان حاله ( منتور ) يحذر الملوك بعد أن أقنعهم بسياسة السلام قائلاً :



« منذ الآن تكونون كلكم شعباً واحداً تحت أسماء شتى ورؤساء مختلفين . . . فما النوع الإنساني كله غير أسرة واحدة . . . وكل الشعوب إخوة . . . وما أتمس القوم الفجار الذين يندشدون المجد القاسى فى دماء إخوانهم المسفوكه . . . : إن الحرب ضرورية أحياناً ، ولكنها معرفة الإنسانية . فلا تزعموا إلى أيها الملوك إن على المرء أن يبتغى الحرب إن أراد المجد . . . فكل من يؤثر مجده على معاصر الإنسانية ليس إنساناً بل هو وحش تملؤه الكبرياء ، ولن يكسب غير المجد الزائف ، لأن المجد الحقيقى لا يكون إلا فى الاعتدال والصلاح . . . ويجب ألا يرى الناس فيه رأياً طيباً ، لأنه لم يقم لهم وزناً فى فكره ، وأوراق دماءهم فى سفنه ليرضى غروراً وحشياً (١٢٠) » .

وقد سلم فنيلون بحق الملوك الإلهى ، ولكن بوصفه قوة منحتهم إياها العناية الإلهية ليسعدوا الناس ، وحقاً تحده القوانين :

« إن السلطة المطلقة تهوى بالرعية جمعاء إلى درك العبودية . فهم بتملقون الطاغية إلى حد العبادة . وكلهم يرتعدون فرقا لنظرة منه ، ولكن ما إن تهب أضعف نسمة من نسيمات التمرد عليه حتى ينهار هذا السلطان القبيح نتيجة شططه . ذلك أنه لم يستمد أى قوة من محبة الشعب (١٢١) » .

فى هذه الأسطر رأى لويس الرابع عشر نفسه موصوفاً ، وحروبه مدانة . وبادر أصدقاء فنيلون بالاختفاء من البلاط ، وقبض على طابع « تيلباك » ، وأبلغت الشرطة بمصادرة جميع نسخه . ولكنه طبعه ثانية فى هولندا ، وسرعان ما تداولته الأيدى فى جميع أرجاء العالم القارىء للفرنسية ، وغل أوسع الكتب الفرنسية قراءة وأحبها إلى القراء طوال قرن من الزمان (١٢٢) وأكد فنيلون أن لويس لم يكن فى ذهنه فى هذه الفقرات الناقدة ، ولكن أحداً لم يصدق . وانقضت سنتان قبل أن يجرؤ دوق برجنديا على الكتابة لمعلمه الأسبق . ثم لانت قناة الملك ، وممح له بأن يزور فنيلون فى كامبرى .

وعاش رئيس الأساقفة يعمل نفسه بأن تلميذ — هذه سيرت العرش عما قليل ،  
وعندها يدعوه ليكون وزيره كما كان ريشايو وزيراً للويس الثالث عشر .  
ولكن الحفيد مات قبل أن يموت الجد بثلاث سنين ، ثم سبق فنيلون  
نفسه لويس إلى القبر بقسعة أشهر ( ٧ يناير ١٧١٥ ) .

أما بوسويه فكان قد سبقهما بزمان . لقد كان تمساً في أخريات أيامه ،  
حقاً إنه انتصر على فنيلون ، وعلى دعاة الساطة البابوية المطلقة ، وعلى المتصوفة ،  
ورأى الكنيسة منتصرة على الهيجونوت ، ولكن هذه الانتصارات كلها  
لم تيسر له قذف الخصى من مثانته . وقد برح به الألم تبريحاً جعل من العسير  
عليه أن يحتل الجلوس في للسان الذي أولع بالجلوس فيه في احتفالات  
السلطان ، وتساءل الساخرون القساسة ، لم لا يستطيع أن يذهب إلى مو  
ويموت في هدوء . وقد رأى من حوله ظهور الارتياحية ، ونقد الكتاب  
للقدس ، والجدليات البروتستنتية العنيفة التي صوبت في غير تقوى إلى  
رأسه . فها هو على سبيل المثال ذلك الهيجونوتي الذي جوريو يخبر العالم  
بأنه هو ، بوسويه ، أسقف الأساقفة ، والصورة المجسمة للفضيلة والاستقامة ،  
كذاب أشريعاشر المحظيات ( ١٢٣ ) . وقد بدأ تأليف كتب جديدة لرد  
على هؤلاء الخصوم السفهاء ، ولكن الحياة كانت تنحسر عنه وهو يكتب ،  
وفي ١٢ أبريل ١٧٠٤ وضع الموت حداً لآلامه .

ويبدو لأول وهلة أن بوسويه يعين أوج الكاثوليكية في فرنسا  
الحديثة . فقد لاح أن المذهب القديم قد استرد كل الأرض التي استولى  
عليها لوثر وكالفن . وكان رجال الاكليروس يصلحون من أخلاقهم ،  
وراسين يخصص مسرحياته الأخيرة للدين . وكان بسكال قد أدار دوائر  
الارتياحية على المرة بين ، والدولة جعلت نفسها وكيلاً مطيعاً للكنيسة ،  
والملك أوشك أن يكون يسوعياً .

ومع ذلك لم يكن الموقف بالغ السكال . فاليسوعيون لم ينقشع من

فوق رؤوسهم بعد ذلك الغبار الذي أثارته عليهم رسائل إسكال الاقليمية ،  
والجانسانية مازالت بخير ، واللاجئون الهيجونوت يؤلبون نصف أوربا على  
الملك الورع ، والناس يقرأون مونتيني أكثر مما يقرأون إسكال ، وهويز  
وسبينوزا وبيل يكيلون اللطحات الهائلة لصرح الإيمان . يقول القديس  
فانسان دبول ( ١٦٤٨ ) ، « يشكو عدة رعاة من أن عدد من يتناولون  
القربان قد تقلص ، ففي سان - سوليس نقص العدد ٣٠٠٠ ، ووجد راعي  
سان - نيكولا - دو - شاردونيه أن ١٥٠٠ من رعايا أبرشيته تخلفوا  
عن قربان القيامة ( ١٢٤ ) » . وقال بيل في ١٦٨٦ « إن العصر الذي نعيش  
فيه يميل بأحرار الفكر والربوبيين ، ويدهش الناس لسكثرة عددهم ( ١٢٥ ) »  
« ويسود عدم المبالاة الرهيب بالدين في كل مكان ( ١٢٦ ) » وقد عزا هذا  
إلى حروب العالم المسيحي وجدلياته . وقال نيسكول : ليكن معلوما أن  
الهرطقة السكبري في العالم ليست السكالفنية ولا اللوثرية ، بل الإلحاد ( ١٢٧ ) » .  
وقالت الأميرة بالاتين في ١٦٩٩ « قل أن يمجد المرء الآن شابا لا يشتهي أن  
يكون ملحداً ( ١٢٨ ) » وروى لايبنتز أن في باريس ( ١٧٠٣ ) « تفشت  
بدعة من يسمونهم العقول القوية ، ويسخر الناس هناك من التقوى . . .  
وتحت حكم ملك تقي صارم مطلق السلطة ، تجاوزت فوضى الدين كل الحدود  
التي شهدناها من قبل في العالم المسيحي ( ١٢٩ ) » . وبين ذوى العقول القوية  
— وهي قوية إلى درجة تسكني للتشكك في كل شيء تقريباً — نجد سان  
إفريمون ، واينون دلايسكو ، وبرنيه ، ماخن فاسفة جاسندي ، ودوق  
نيفير وبوبون ، وأصبح « التامبل » الذي كان يوماً مقرأ لفرسان المعبد  
( الداوية ) في باريس ، مركزاً لجماعة صغيرة من أحرار الفكر — شواييه  
وسيرفيان ، ولافار ، الخ — الذين أسلموا تمسكهم بالدين إلى عهد الوصاية .  
أما فونتنيل ، الذي قارب المائة ونمدي الفناء وأفسح له في الأجل حتى  
تبادل النكت مع الموسوعيين ، فكان في ١٦٨٧ ينشر كتابه ( تاريخ  
النبؤات ) ويقوض في خبث أساس المسيحية المعجز . وهكذا مهد لويس  
في نشوة تقواه وورعه الطريق لفولتير .

## الفصل الثالث

### الملك والفنون

١٦٤٣ — ١٧١٥

#### ١ - تنظيم الفنون

لم يشهد التاريخ من قبل ولا من بعد ، ربما باستثناء عهد بركليس ، حكومة شجعت الفن ، أو غذته ، أو هيمنت عليه ، كما فعلت حكومة لويس الرابع عشر .

كان ذوق ريشليو الرفيع ومشترياته المختارة بحسنة قد أطأت الفن الفرنسي على أن يفتيق من الحروب الدينية . وفي عهد وصاية آن النمساوية كان جماعو التحف الأهلين — من الأشراف ورجال المال — قد بدأوا يتنافسون في جمع آثار الفن . فاقتي ببيركروزا المصرفي مائة صورة بريشة تيشان ، ومائة أخرى بريشة فيرنوزي ، ومائتين بريشة روبنز ، وأكثر من مائة بريشة فانديك . أما فوكيه فقد جمع في قصر فوكا رأيناصورا وتماثيل ، وتحفا فنية أقل شأنا ، وكان في جمعه من التميز أكثر مما كان فيه من الحكمة والحذر . وورث لويس مقتنياته بعد أن أجهز عليه ، وما لبث العديد من المجموعات الخاصة الأخرى أن جمع في اللوفر أو فرساي . وكان مازاران قد آثر وضع شطر من ثروته في الفن دون النقود تجنباً لهبوط قيمة العملة . وقد أسهم ذوقه الإيطالي الرفيع في تكوين انحياز الملك إلى الفن الكلاسيكي . وأغلب الظن أنه هو الذي علم لويس الرابع عشر أن مما يبرز مجد الحاكم أن يجمع الفن ويعرضه ويحتضنه . وقد هيأت هذه المجموعات المثل الحافزة والقواعد الموطدة لتعليم الفن وتطويره في فرنسا .

وكات الخطرة التالية هي تنظيم الفنانين . وهنا أيضا كان مازاران سباقاً .  
ففي ١٦٤٨ أسس أكاديمية التصوير والنحت ، وفي ١٦٥٥ أصدر الملك  
مرسوما بهذه الأكاديمية فأصبحت الأولى في سلسلة من الأكاديميات التي  
قصد بها تدريب الفنانين وتوجيههم إلى خدمة الدولة وتجميلها ، والتقط  
كولبير المحيط حيث تركه مازاران ، وبلغ بهذه المركزية للفن الفرنسي القمة .  
وكان يتطلع إلى « جعل الفنون تزدهر في فرنسا أكثر من ازدهارها في أي  
بلد آخر (١) » رغم أنه لم يدع لنفسه ملكة الحكم في أمور الفن ، وبدأ بأن  
اشترى للملك مصنع جوبلان للنسيج المرسوم ( ١٦٦٢ ) وفي ١٦٦٤ حصل  
على منصب المشرف على العماير ، فأتاح له هذا المنصب هيمنة على المعمار  
والفنون الملاحقة به . وفي ذلك العام أعاد تنظيم أكاديمية التصوير والنحت ،  
وسماها الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة . وكان هنري الرابع قد أسكن  
الوفرة طائفة من مهرة الصنائع ليزينوا القصور الملكية . فجعل كولبير من  
هؤلاء الرجال نواة للمصنع الملكي لأثاث التاج ( ١٦٦٧ ) . وفي ١٦٧١  
أنشأ الأكاديمية الملكية للعمارة ، حيث أغرى الفنانون بالبناء والزخرفة  
بـ « الذوق الرفيع » الذي يحبذه الملك . وفي هذه الجماعات كلها وضع مهرة  
الصنائع تحت إشراف الفنانين ، وهؤلاء تحت إرشاد سياسة وطاراز موحدين .

ورغبة في دعم الاتجاه الكلاسيكي الذي تلقاه الفن الفرنسي إبان عهد  
فرنسوا الأول ، وتنقيته من التأثيرات الفلمنكية ، أنشأ كولبير وشارل  
لبرون أكاديمية فرنسا الملكية في روما ( ١٦٦٦ ) . وكان الطلاب الحائزون  
على جائزة روما في أكاديميه باريس يبعثون إلى إيطاليا ويعالون خمس سنين  
على حساب الحكومة الفرنسية ، وفرض عليهم أن يستيقظوا في الخامسة صباحاً  
ويحضروا إلى الفراش في العاشرة مساءً . وقد دربوا على نسخ النماذج الكلاسيكية  
ونماذج النهضة ومحاكاتها ، وكان ينتظر من كل منهم أن ينتج « رائعة » ( بالمعنى  
المصطلح عليه في نظام الطوائف ) مرة كل ثلاثة أشهر ، فإذا عادوا إلى فرنسا  
كان للدولة الحق المقدم في خدماتهم .

وكانت عمرة هذه الرعاية والتأميم للفن إنتاجاً رائعاً ضحياً للقصور ،  
والكنائس ، والتماثيل ، والصور ، وقطع السبج المرسوم ، والخزف ،  
والمداليات ، والمحفورات ، والنقود ، وكلها مطبوع بكبرياء « الملك  
الشمس » وذوقه ، وبقسمات وجهه أحياناً كثيرة . ولم يكن هذا إخضاع الفن  
الفرنسى لروما كما شكك البعض ، بل إخضاع فن روما للويس الرابع عشر .  
وقد استهدف الأسلوب أن يكون كلاسيكياً ، لأن ذلك الأسلوب يتفق  
وعظمة الدول وجلال الملوك . وتدفقت الأموال الفرنسية إلى إيطاليا بأمر  
كولبير لشراء آثار الفن الكلاسيكى أو فن النهضة ، وبذل كل شيء لنقل  
مجد الأباطرة الرومان إلى ملك فرنسا وعاصمتها ، وكانت النتيجة مذهلة للعالم .  
وأصبح لويس الرابع عشر أعظم رعاة الفن الذين عرفهم التاريخ . فقد  
« بذل للفنون من التشجيع قدر أعظم من جميع نظرائه من الملوك مجتمعين »  
( فى رأى فولتير ) (٢) . وكان بالطبع أسخى جماعى الفنون ، فزاد عدد  
الصور فى قاعاته من مائتين إلى ألفين وخمسمائة ، وكان كثير منها من إنتاج  
فنانين فرنسيين كلفهم الملك برسمها . واشترى الكثير جداً من المنحوتات  
الكلاسيكية وتماثيل عصر النهضة ، حتى لقد خشيت إيطاليا أن تنزع آثارها  
الفنية ، وحظر البابا المزيد من تصدير هذه الآثار . واستخدم لويس رجالاً  
وهو بين مثل جيراردون أو كوازيفوكس لنقل نسخ من التماثيل التى لم يستطع  
شراءها ، وقل أن نافست نسخ أمولها كما نافستها هذه النسخ . وملئت  
قصور باريس وفرساي ومارلى وحدائقها وبساتينها بالتماثيل ، وكان أوثق  
سبيل إلى قلب الملك إهداءه أثراً ذا جمال غير منازع أو ثمرة راسخة .  
مثال ذلك أن مدينة آرل أهدته تمثالها الشهير « فينوس » فى ١٦١٣ . ولم  
يكن لويس بالرجل الشحيح . وقد قدر فولتير أنه كان يشتري فى كل عام  
من آثار الفنانين الفرنسيين ما قيمته ٨٠٠.٠٠٠ جنيه ويهدىها للمبدعين  
والمؤسسات والأصدقاء (٣) بهدف مساعدة الفنانين وبث ماسكة الجمال  
والإحساس الفنى فى الوقت نفسه . وكان ذوق الملك سليماً أسدى إلى الفن

الفرنسي أيادي بيضاء ، ولكنه كان كلاسيكياً إلى حد ضيق . فحين أروده بعض الصور التي رسمها تلميذه الابن قال آمراً « ابعادوا عني هذه الأشياء البشعة » (٤) وقد ارتقى الفنانون بفضل رعايته كثيراً ، سواء في أرباحهم أو - كما تنهم الاجتماعية . وقد ضرب المثل بتسكيره إياهم شخصياً ، وحين شكوا البعض من ألقاب الشرف التي خلعتها على المصور لبرون والمعاري جول - آردوان - مانسار أجاب في شيء من الحدة « في وسعي أن أصنع عشرين دوقة أو نبيلة في ربع ساعة ، ولكن صنع فنان كما نساير يقتضي قروناً » (٥) . وبلغ راتب مانسار ٨٠٠٠٠ جنيه في العام ، أما لبرون فكان يتقارب في نعيم قصوره بباريس وفرساي ومونمورنسي . وتقاضى لارجلير وريجو ستمائة جنيه أجراً عن كل لوحة . « ولم يترك فنان كفاء في عوز » (٦) .

وقدلت الأقاليم العاصمة في تكريم الفن وإثابته ، واقتسدى النبلاء بملكهم . فطورت المدن مدارس فنية خاصة بها - في روان ، وبوفيه ، وبلوا ، وأورليان ، وتور ، وليون ، وإكس - أن - بروفانس ، وتولوز ، وبوردو - وواصل النبلاء دورهم رعاية للفن وإن تقاض لأن الدولة استوعبت المواهب المتاحة ، وأسهم الذوق المدرب الذي نشئت عليه أرقى أرسقراطية في أوربا في توطيد الطراز الرفيع الذي اتسمت به منتجات الفن في عهد لويس الرابع عشر . واكتسب الرجال والنساء الذين ولدوا في نعيم الامتيازات والثراء وشبوا على العادات المهيبة وسط محيط جميل وأشياء بديعة - نقول إنهم اكتسبوا معايير وأذواقاً ممن يكبرونهم سنّاً كما اكتسبوا منها من بيئتهم ، وكان على الفنانين أن يلبوا مطالب تلك المعايير ويشبهوا تلك الأذواق . ولما كان الاعتدال ، وضبط النفس ، والتعبير الأنيق ، والحركة الرشيقه ، والشكل المصقول ، لما كانت هذه كلها مثل الارستقراطية الفرنسية في هذا العهد ، فقد تطلبت هذه الصفات في الفن ، وحبذ النظام الاجتماعي الطراز الكلاسيكي . وأفاد الفن من هذه المؤثرات والهيمنات ، ولكنه دفع عنها . ذلك أنه فقد اتصاله بأفراد الشعب ، ولم يستطع أن يعبر عنهم كما

استطاع الفن الهولندي والفلمني أن يعبر عن الأراضي المنخفضة ، وأصبح  
الفن صوت طبقة ، وصوت الدولة والملك ، لا صوت الأمة . فأنت لا تجد  
في فن هذه الحقبة الكثير من دفء الوجدان أو عمقه ، ولا تجد ألوان روبرت  
الغنية وأجساده المكتنزة ، ولا تجد الظلال العميقة التي تلف حاخامات رمبرانت  
وقديسيه ومالييه ، ولا ترى فلاحين ولا عمالا ، ولا متسولين ، بل السعادة  
الجميلة ترتع فيها صفوفة البشر .

وأصبح كولبير ومولاه أن يجسدا في شارل لبرون رجلا يستطيع أن  
يكون في وقت واحد خادما غيورا للحكومة وقاضيا متسلطا في هذا الطراز  
الكلاسيكي ففي ١٦٦٦ عين لبرون بتوصية كولبير كبيرا لمصوري الملك  
ومديرا لأكاديمية الفنون الجميلة ، وبعد عام عهد إليه بمصنع جوبلان ،  
وكل بالإشراف على تعليم الفنانين وتشغيلهم ليندى في أعمالهم تناسقا في  
الأسلوب مميزا للعهد وممثالا ، وبمعاونة مساعدين على شكاكته في التفكير  
أنشأ لبرون في الأكاديمية نظام « المحاضرات » ( ١٦٦٧ ) التي غرست بنظامها  
أصول الأسلوب الكلاسيكي بتماليم وأمثله وسلاطان ، واختير رفايل من  
بين الفنانين الإيطاليين ، وبوسان من بين الفنانين الفرنسيين ، نموذجين  
مفضلين على غيرهما ، وكانت كل لوحة يحكم عليها بمعايير مستمدة من فنهما .  
وقد صاغ لبرون وسباستيان بوردون هذه القراءة ، فرمعا الخط فوق  
اللون ، والانضباط فوق الأصالة ، والنظام فوق الحرية ، ولم تعد مهمة الفنان  
أن ينقل الطبيعة بل أن يجعلها ، ولا أن يعكس فوضاها وعيوبها وبشاعاتها  
كما يعكس جمالها العارض ، بل أن ينتقى من بين ملماتها تلك التي تتيح للذغس  
الإنسانية الإفصاح عن أعمق مشاعرها وأرفع مثالبها . وكان على للمعماريين  
والمصورين والنحاتين والخزافين وصناع المشغولات الخشبية وللمدنية  
والزجاجية والنقاشين ، أن ينطقوا في صوت متناسق واحد بتطلعات فرنسا  
وبعظمة الملك .



## ٢ - العمارة

على أن هؤلاء الفنانين الفرنسيين « المنطليين » كانوا قد عادوا من روما وقد اكتسبوا طلاء « باروكياً » على غير وعي منهم . وقد وصفنا من قبل ذلك الطراز - طراز الباروك - الذي عم الآن وانتشر . وخلاصته أنه يحل محل البساطة الهادئة التي تميزت بها الأشكال الكلاسيكية إسرافاً في الوجدان والزخرف ، وبينما نرى المثل الكلاسيكي - وعلى الأخص الهلنستي - قد حوكت في نحت هذا « القرن العظيم » وتصويره وأدبه ، نجد العمارة والزخرفة قد أخذتا عن الطرز الأنيقة المنمقة التي عقد لها لواء النصر في إيطاليا بعد وفاة ميكلانجيلو ( ١٥٦٤ ) . فلقد استهدف بناء الملك الطراز الكلاسيكي ، ولكنهم حققوا الباروكي - الباروكي الكامل في فرساي ، ومزيجاً موفقاً من الباروكي والكلاسيكي في واجهات اللوفر .

أما أول الروائع المعمارية في هذا العهد فهي كنيسة فال - دجراس بباريس . وكانت آن المساوية قد نذرت نذراً ببناء معبد جميل إذا وهبها الله ولويس الثالث عشر غلاماً . فلما أتاح لها وصايتها على العرش المال كلفت فرنسوا مانسار بوضع تصميمات الكنيسة . وأرسي لويس الرابع عشر الحجر الأول في ١٦٤٥ وكان يومها في السابعة . ونفذ تصميم مانسار على يد لومرسييه بالطراز الكلاسيكي ، وتوج بقبة مازالت محط إعجاب المعماريين . وشيد لبرال برويان كنيسة سان - لوى - ديزا نفاليد ( ١٦٧٠ ) لقدامى المحاربين الذين يأويهم الأوتيل ديزنفاليد . وفي ١٦٧٦ كلف لوفوا المعماري جول اردوان مانسار ( حفيد أخى فرنسوا مانسار ) بأن يكمل الكنيسة بنحورس وقبة . والقبة في جمالها الرشيقة رائعة العهد المعمارية . وقد حقق اردوان مانسار انتصاراً آخر في تصميم الكنيسة الملحقة بفرساي ( ١٦٩٩ ) . وقد أكمل عمله هنا وفي الانفاليد صهره روبردكوت

بـزخرفة مترفة ، وهو الذى أقام كذلك الأوتيل دفيل فى ليمون ، ودير سان دنى ، وواجهة سان - روش .

وحدث العمارة الملكية محل العمارة الكنسية حين تفوقت الدولة على الكنيسة نراء ومكانة ، فأصبحت المشكلة الآن هى التعبير عن القوة لا عن الورع . وكان للوفر فى تلبية هذه الحاجة ميزة تميز بها على غيره من العماثر ، هى ما أحاط به من تقاليد موروثة . فقد شهدت نموه أجيال كثيرة ، وترك ملوك كثيرون بصماتهم على تاريخه . فشيّد لو مرسييه الواجهة الغربية للجناح الرئيسى بتسكليف من مازاران ، وبدأ الجناح الشمالى على طول شارع ريفولى الحالى . وأتم هذا الجناح خلفه لوفو ، وأطاد بناء واجهة الجناح الجنوبى ( المواجهة لنهر السين ) ، وأرسي أساسات الجناح الشرقى . فى هذه الفترة الهامة أصبح كولبير المشرف على العماثر . وإذ رفض تصميمات فو للجناح الشرقى ، فقد فكر فى مشروع مد اللوفر غربا ليلتقى بالتويلرى فى قصر واحد . فأذاع على معمارىي فرنسا وإيطاليا مسابقة فى تصميم واجهة جديدة . ورغبه منه فى الحصول على أفضل التصميمات ، أقنع الملك بأن يرسل دعوة خاصة إلى جوفانى لورنتزو برينى ( ١٦٦٥ ) وهو يومها أمير الفنانين الأوربيين غير منازع ، ليأتى إلى باريس على نفقة الملك ويقدم تصميمه . وأتى برينى بأبهته الكبرى ، وأغضب الفنانين الفرنسيين باحتقاره لعملهم ، ووضع تصميمًا ضخمًا باهظ التكلفة يقتضى هدم كل اللوفر القائم تقريبًا . ووجد كولبير فى التصميم عيوبًا تتصل بأنابيب المياه وغيرها من مرافق المعيشة ، واستشاط برينى غضبًا وقال إن « المسيو كولبير يعامانى كأثنى غلام صغير ، بكل لغوه عن المراحلض والقنوات السفلية (٧) » وأمكن الوصول إلى حل وسط . فقد وضع الملك الحجر الأساسى لتتصميم برينى ، وبعد أن أقام الفنان ستة أشهر فى باريس رد إلى إيطاليا محملًا بالمال وأسباب التشريف ، وقد حاول أن يرد على هذا بتمثال نصفى للويس الرابع عشر يقوم الآن بفرساي ، وبتمثال للويس راكبا جواده فى « جاليريا

بورجيزى « بروما أما تصميمه للوفر فتخلى عنه ، واحتفظ بالمبنى القائم وكوفىء شارل بيرو بتسكييفه بيناء الواجهة الشرقية . وارتفع صف أعمدة اللوفر الشهير ، الذى أثارت عيوبه الواضحة سيلا من النقد (٨) ، ولكننا نتقبله الآن على أنه من أعظم واجهات المائثر فى العالم .

وكان كولبير يؤمل أن ينتقل الملك من مسكنه الضيق فى سان — جرمان إلى اللوفر بعد تجديده . ولكن لويس لم ينس كيف أكره هو وأمه على الفرار من الجماهير الباريسية خلال حرب الفروند . وكان رأيه فى صوت الشعب أنه صوت العنف ، فلم يشأ أن يعرض نفسه لمثل هذه الكوابح لحكمه المطلق . وعليه قرر أن يبني فرساي ، وروع القرار كولبير .

وكان لويس الثالث عشر قد شيد هناك استراحة متواضعة للصيد فى ١٦٢٤ . ورأى أندريه لنوتر فى منحدر هذا الموضع الذى كان يرتفع فى رفق ، وفى أحراج الغنية ، فرصة مغرية للتفنن فى تنسيق الحدائق . وفى ١٦٦٢ قدم للويس الرابع عشر تصميمًا عامًا للمنطقة ، وإذا كانت المباني اليوم منخفضة عن المروج والبحيرة ، وعن الازهار والشجيرات ومختلف الأشجار ، فلعل هذا هو الوضع الذى تصورهما عليه لنوتر . فهو لم يقصد بالقصر أن يكون آية من آيات المعمار بقدر ما يكون دعوة إلى الحياة خارجة بين أحضان طبيعة روضها الفن وجمالها ، دهوة لتنشق عبير الزهر والشجر ، ولإشباع العين واللمسة المتخيلة من الأجساد الكلاسيكية النحت ، ولطاردة الفرائس والنساء فى الغابات ، وللرقص وتناول الطعام على العشب ، ولركوب الزوارق على القناة والبحيرة ، والاستماع إلى لولى وموليير تحت القبة الزرقاء . فها هنا جنة من جنات الآلهة ، بنيت بدراهم عشرين مليونًا من الفرندين . لن يروها إلا لمامًا ، ولكنهم يعتزون بعز مليكهم . وبما يسر أن نعرف أن بستان فرساي كان مفتوحًا للشعب إلا فى المناسبات الملكية .

وكان فن إنشاء الحدائق المنسقة البهية وافدا من إيطاليا ككثير غيره

من الفنون ، وقد جلب معه عشرات الحيل والمفاجآت ، كالتعاريش ،  
والشعريات ، والمغارات ، والكهوف ، والأشكال الغريبة ( الجروتسك ) ،  
والأحجار الملونة ، وبيوت الطير ، والتمثيل ، والزهرات ، والغدران ،  
والنوافير ، والميازيب ، وحتى الأراغن تعزف إلى جوار الماء الجارى . وكان  
لنوتر قد صمم من قبل حدائق فو فوكيه ، وبعد قليل سيصمم حدائق  
التويلرى للملكة ، وحدائق سان كلو لمدام هنرييتا ، وحدائق شاتوي  
لكوندية الكبير . وأطلق لويس يده فى فرساي من ١٦٦٢ فصاعداً ،  
وروعت كولبير التكاليف التى أنفقت على تحويل بركة شعناء إلى فراديس غناء .  
وتعلق قلب الملك بلنوتر الذى لم يأبه للمال بل للجمال فقط ، والذى كان  
فناناً صادقاً لا غش فيه (٩) . لقد كان بمثابة « بوالو » الحدائق ، المصمم على  
أن يغير « فوضى » الطبيعة إلى نظام وتناسق وشكل معقول مفهوم . ولعله  
كان مسرفاً فى إصراره على الكلاسيكية ، ولكن الحدائق التى أبدعها  
مازالت بعد ثلاثمائة سنة كعبة يؤمها البشر فيما يؤمون .

كان لويس لا يزال يحسد فوكيه ، فأتى بلوفر معمارى قصر فو ليوسع  
استراحة الصيد ويجعل منها قصراً ملكياً . وتسلم جول أردوان ما سار  
إدارة المشروع فى ١٦٧٠ . وبدأ تشييد غرف السكن والقماعات وغرف  
الاستقبال وصالات الرقص وحجرات الحراسة والمسكاتب الإدارية — كل  
هذه الأبنية الشاسعة التى تشهدها اليوم فى فرساي . وما وافى عام ١٦٨٥  
حتى كان يسكدح فى المشروع ٣٦٠٠٠ رجل و ٦٠٠٠ حصان فى اوبات  
بالليل والنهار . وكان كولبير منذ زمن طويل قد حذر الملك من أن معماراً  
كهنذا ، مضافاً إلى الحرب يخوضها بعد الحرب ، سينتهى بإفلاس الخزانة ،  
ولكن فى ١٦٧٩ بنى لويس قصرآ آخر فى مارلى ، ملاذاً يلجأ إليه من  
زحام فرساي ، وفى ١٦٨٧ أضاف الجران تريانون لىكون خلوة لمدام  
دمانتون . وأمر جيشاً من الرجال فيهم الكثير من الجنود النظاميين  
بتحويل نهر أور ونقل مياهه خلال تسعين ميلاً من « قناة مانتون »

لتزويد بحيرات فرساي ونهيرات ونافوراته وحماماته بالمياه ، وفي ١٦٨٨ هجر هذا المشروع بعد أن أنفقت عليه الأموال الطائلة حين دعا داعي الحرب . وقد كلف فرساي فرسا حتى عام ١٦٩٠ مبلغا جلته ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠٠ فرنك ( ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠٠ دولار ؟ ) ( ١٠ ) . وفرساي ، من الناحية المعمارية ، فيه من التعميد والجزافية ما ينأى به عن السكال . أما الكنيسة فرائعة ، ولكن هذا الزهو بالخرف لا يكاد يتفق وتذلل العبادة . وبعض أجزاء القصر جميل ، والسلم المفضى إلى الحدائق فخيم ، ولكن إلزام مصمميها بأن يتركوا استراحة الصيد دون أن يمسوها في تصميمهم ، ويكتفوا بإضافة أجنحة وزخارف ، كل هذا أضر بمظهر البناء في مجموعه . وقد ترك هذه المجموعة المتكاثرة من الأبنية في النفس انطباع الرتبة الباردة والتكرار المتأهى — فالحجرة تقفوا الحجرة على امتداد ١٣٢٠ قدما من الواجهة . ويبدو أن تنظيم القصر من داخله تجاهل الراحة النفسية لولوجية لئلا يرواده ، وافترض قوة ضبط هائلة في الامعاء النبيلة ، فكان على من يريد إزالة ضرورة أن يعبر ست حجرات . لا عجب إذن أن سمعنا بأن السلام والطرقات كانت تستخدم في مثل هذا الغرض . أما الحجرات ذاتها فتبدو أصغر من أن تسمح بالراحة . وليس هناك حجرة فسيحة سوى القاعة الكبرى التي تمتد ٣٢٠ قدما على طول واجهة الحديقة ، هناك نشر المزخرفون كل مهاراتهم — فعلقوا قطع نسيج جوبلان وبوفيه المرسومة ، وبشوا المنحوتات على الجدران ، وبلغوا بكل قطعة أثاث السكال الحبيب ، وعكسوا كل البهاء في تلك المرايا الكبيرة التي أعطت الحجرة اسمها الثانى ، وهو « قاعة المرايا » . وعلى السقف صور لبرون الذى ارتفع إلى ذروة فنه ، خلال خمس سنوات ( ١٦٧٩ — ٨٤ ) ، وبرموز أسطورية ، انتصارات حكم لويس الطويل ، وسجل مأساته دون وعى منه ، لأن هذه الانتصارات المصورة على أسبانيا وهولندا وألمانيا أزمعت أن تثير أرواح النعمة على الملك الشغوف بالحرب .

وطاش لويس في فرساي على نحو متقطع منذ ١٦٧١ ، وأنفق بعض وقته في مارلى ، وسان - جرمان ، وفونتنبلو ، وبعد ١٦٨٢ أصبح فرساي مقره الدائم . ولسكنا نظلمه إذا ظننا أن فرساي كان مسكنه وملهه ، فهو لم يشغل سوى جزء متواضع من المبنى ، أما الباقي فقد سكنته زوجته ، وأبنائه ، وأحفاده ، وخليلاته ، والمفوضيات الأجنبية وكبار الإداريين ، وأفراد الحاشية ، وكل الخدم والحشم الذين تطلبهم البيت المالك . ولا ريب في أن بعض هذا البهاء كان له هدف سياسى — هو إدخال الرهبة في قلوب السفراء الذين توقع منهم لويس أن يحكموا من هذا البذخ على موارد الدولة وسطوتها . وقد وقع هذا من نفوسهم ونفوس غيرهم من الزوار فأذاعوا في أرجاء أوروبا من الأنباء عن بهاء فرساي ما جعله البلاط المحسود ، والمثل الذى يحتذيه الكثير من البلاطات والقصور في القارة الأوربية بأسرها . أما في عقايل هذا العهد فقد بدت هذه الكتلة الضخمة من المباني رمزا وقصا للاستبداد وتحديا مستهترا من كبرياء الإنسان لمصير الإنسان غير المتغير .

### ٣ — الزخرفة

لم تعرف فنون الزخرفة قط ، حتى على عهد بابوات النهضة ، مثل هذا التشجيع والعرض . فقد كانت الأرضيات المكسوة بالبسط السميك ، والأعمدة الزينية ، والموائد ورفوف المستوقدات الزخرفية الضخمة ، والزهريات من الخزف الصينى ، والشمعدانات الفضية والثريات البلورية ، والساعات الجدارية الرخامية المطعمة بالأحجار الكريمة ، والجدران ذات الحشوات الخشبية أو الرسوم الجصية أو الصور أو قطع النسيج المرسوم ، والكرانيش المصبوبه صبا أيقا ، والأسقف ذات الزخارف الغائرة أو الصور ، هذه كلها وكثير غيرها من ألوان الفن في فرساي وفونتنبلو ومارلى والوفر ،

وحتى في قصور الأهل ، جعلت من كل حجرة تقريبا متحفا لأشياء تطلب  
الميون والألباب بسر السكال الخفى . وعن رقائق ومساعديه — يوليو  
رومانو ، ويرينو ديل فاجا ، وجوفاني دا أوريني — وعن قاعات الفاتيكان ،  
نقل لبرون ومساعدوه مجموعة الأرباب والربات والكوبيدات وتذكارات  
النصر والشعارات والنقوش العربية ، وأكاليل الزهر وورق الشجر ،  
والحليات القرنية لثمار الأرض ، يزينونها سجل انتصارات الملك على  
النساء والدول .

وكان الآثار بطراز لويس الرابع عشر مترفا فخرا ، هنا أذعنت البساطة  
الكلاسيكية الزخرفة الباروكية . فالمقاعد مسرفة في النقش والتنجيد  
والتدبيب إسرافا أبعد عنها الأعجاز خشية إلا أرقها . أما الموائد فكانت تجرد  
بينها الثقيل المتين إلى حد يبدو معه غير قابل للحركة . وكانت مناضد الكتابة  
والمكاتب المزودة برغوف للكتب غاية في الأناقة بحيث تغري القلم بالكتابة  
في إيجاز لا روشفوكو المحكم أو في حيوية مدام دسفينيه المتدفقة . وكثيرا  
ما كانت الصناديق وخزانات النفائس تنقش بعناية فائقة أو تطعم برسوم من  
معدن أو أحجار كريمة . وقد أعطى أندريه شارل بول اسمه ( buhlwork )  
لقنه الخاص ، فن تطعيم الآثار ، لاسيما الأبنوسى ، بالمعدن المحفور ،  
وصدف السلاحف ، واللؤلؤ إلخ ، مضيفا حليات درجية تمثل النبات أو  
الحيوان ذات رسوم غاية في الرشاقة ، وكان يقيم في اللوفر ( ١٦٧٢ ) بوصفه  
نجار الآثار الأثير لدى لويس الرابع عشر . ولقد بيعت إحدى خزاناته  
المطعمة بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه إنجليزي في ١٨٨٢ ، وربما كان هذا المبلغ  
يعادل ٥٠٠٠٠ دولار في ١٩٦٠ ( ١١ ) . ولكن بول مات في فقر مدقع  
بعد أن بلغ التسعين في ١٧٣٧ . وقد يكون أوفق لأذواقنا تلك الأكشاك  
المنقوشة التي أقيمت في هذه الفترة في كاتدرائية نوتردام دباري .

وأصبح النسيج المرسوم الآن فنا اختص به الملك . ولم يقنع كولبير

بإخضاع مصنعي جوبلان وأوبوسون لإشراف الملك ، فأقنعه بأن يتسلم أيضا مصنع النسيج المرسوم في بوفيه . وكانت هذه القطع المرسومة لاتزال الحلية المفضلة لجدران القصور وسجفها في المدن والريف ، والمهرجانات ، وللمباريات ، والاحتفالات الرسمية ، والأعياد الدينية . وقد صمم للمصور الفنلندي آدم فان درمول في بوفيه سلسلة رائعة من الرسوم مماها «فتح لويس العظيم» ، وأعد الفنان لها نفسه بأن تبع لويس إلى حروبه ورسم بالقلم أو صور بالألوان على الطبيعة للمواقع والحصون والقرى التي كانت مسرحا لحملاته الحربية . وكان مصنع جوبلان يستخدم ٨٠٠ من مهرة الصنائع الذين لم يكتفوا بصنع قطع النسيج المرسوم ، بل المنسوجات الرفيعة وأشغال الخشب والفضة والمعادن والتطعيم بالرخام . وهناك نسجت تحت إشراف لبرون قطع النسيج المرسوم العظيمة اقلا عن الرسوم التخطيطية التي حفلت بها صور رفاثيل الجصية الضخمة في قاعات الفاتيكان . وليس أقل من هذه شهرة السلاسل العديدة التي صممها لبرون ذاته ، قصور قوى الطبيعة ، والفصول ، وتاريخ الإسكندر ، ومساكن الملك ، وتاريخ الملك والمجموعة الأخيرة كانت تعد سبع عشرة قطعة ، واستغرق الفنان في صنعها عشر سنين ، وما زال نموذج رائع منها معروضا في حجرات عرض قطع الجوبلان — فيها ترى الأجسام متميزة إلى حد مذهل ، والتفاصيل متخيلة تخيلا كاملا ، حتى صورة المنظر الطبيعي التي على الجدار ، وكل هذا بخيوط ملونة نسجت في صبر وأناة أيد صناع تحت عيون مجتهدة . وندر أن كرس مثل هذا الجهد البشري الضخم للزلفى لرجل واحد . وقد اعتذر لويس عن هذا بأن زعم لكونه لير أن أسباب التمجيد هذه تتيح العمالة والدخل للصباغين والنساجين ، وتوفو هدايا ذات وقع جميل في عملية « تشعيم » الدبلوماسية .

وترعرت كل الفنون الصغيرة تحت اليد الملكية السخية . فصنعت الأبسطة الفاخرة في لاسافونيرى قرب باريس . وأنتج القاشاني البديع في



روان وموسستيه ، والحزف الإيطالي (الليوليك) الجيد في نيفير ، والصيني  
الذين المعينة في روان وسان كلو . وفي أخريات القرن السابع عشر تعلم  
الصناع الفرنسيون بتحريض كولبير أسرار البنادقة في صب بللور المرايا  
الكبيرة وتسويته وصقله ، وهكذا صنعت مرايا « قاعة المرايا » الرائعة (١٢) .  
ونظم كولبير ولبرون الصاغة أمثال جوليان دفونتين وفانسان بتي وأسكنام  
في اللوفر ، فصنعوا للملك وللأغنياء مئات التحف من الفضة أو الذهب —  
إلى أن صهر لويس والأغنياء هذه الحلى لتمويل الحرب . وقطعت الأحجار  
المكريمة والمداليات : وضربت العملة ، ونقشت بتصميمات كانت المثل الذي  
تحتذيه أوروبا كلها فيما عدا إيطاليا . ولم يصل فن صنع المداليات منذ عصر  
النهضة إلى مثل هذا الابداع الذي حققه الآن على يد انطوان بنوا وجان  
موجيه . أما كولبير ، الذي لم يترك حجرا دون نقش ، فقد أسس في ١٦٦٢  
أكاديمية المداليات والنقوش ، ليخلص أعمال الملك . . . بمداليات تضرب تكريما  
له (١٣) » وذلك كان أسلوب الوزير الكبير في تجنيد الغرور الذي يملك المال  
في خدمة الفن العالي النفقة . وفي ١٦٦٧ أنشئت مدرسة للصور المحفورة في  
اللوفر ، ورسمت مناقش روبر نانتوى وسبستيان لكير وروبير بونار  
وجان لبوتر في رهافة بالغة التدقيق شخصيات العهد وأحداثه . وحتى رسم  
المنمنمات ظل على قيد الحياة — وأن هبط عن سابق مقامه في العصر  
الوسيط — في كتاب « سامات الصلاة » الذي أهداه إلى الملك متقاعدوه  
في الأنفاليد . إن الفنون الصغيره . دون سائر الفنون ، هي التي تظهر ذوق  
« القرن العظيم » وبراعته الفنية .

## ٤ - التصوير

إن نجمين من نجوم التصوير ذوي المرتبة الثانية يقعان في الفلك الخارجي  
لهذا العصر ، وهما فيليب دشامبين ، وأوستاش لوسوييه . أما فيليب فقد وفد

من بروكسل وهو في التاسعة عشرة ( ١٦٢١ ) ، وشارك في زخرفة قصر  
الكسمبورج ، ولم يكتب برسم صورة ريشليو بقامته الكاملة ، وهي  
المحفوطة في اللوفر ، بل صنع أيضا تمثالا نصفيا للكردينال ، وصوره صورا  
جانبية محفوطة بمتحف الفنون القوي بلندن . وقد أتاه ميله المتعاطف لتصوير  
الأشخاص بزائن من نصف زعماء فرنسا في الجيل الذي تلا ريشليو ،  
كما زاران وتورين وكولبير ولرسييه . . . وكان قبل قدومه إلى فرنسا  
قد صور جانسن واعتنق الجانسنية ، وأحب البور — رويال ورسم صورا  
للأم انجليك وروبير آرنو وسان — سيران . ورسم للبور — رويال أروع  
صوره « الراهبات » باللوفر ، وترى فيها الأم آبيس مكتئبة ولكنها لطيفة ،  
ومعها سوزان ابنة المصور الراهبة . وكان مجال شامبين محدودا ، ولكن  
فنه يدق قلوبنا بما فيه من وجدان واخلاص .

أما أوستاش لوسوير فكان متدينا كصاحبه ولكنه أكثر سنية في  
إيمانه ، مما جعله قلقا في جيل سيطر على التصوير فيه منافسه لبرون ،  
وتسلطت على هذا الفن فيه أساطير وثنية كرسست لتأليه ملك لم يكن قد تاب  
إلى تقواه بعد . وقد درس المصوران ( لوسير و لبرون ) معا على فويه ،  
ورمما معا في قبو واحد ، واستخدما نفس النموذج ، وأثنى عليهما على  
السواء بوسان في زيارته لباريس . وتبع لبرون بوسان إلى روما وتشرب  
الروح الكلاسيكية . أما لوسوير فلزم باريس مربوطا بزوجة مخصبة ولم  
يستطع الفكك من الفقر إلا نادرا . وحوالي ١٦٤٤ رسم خمس صور تصف  
حوادث في حياة إله الحب لسقف « حجرة الحب » في قصر ولي نعمته لامبير  
دتوريني ، وفي حجرة أخرى من حجرات قصر لامبير هذا نفذ رسمًا جصيا  
كبيرا يسمى « فيتون يطلب أن يقود مركبة الشمس » . وفي ١٦٤٥ تورط  
لوسوير في مبارزة قتل فيها خصمه ثم اختبأ في دير للسكرتوزيين ، وهناك  
رسم اثنتين وعشرين صورة من حياة القديس برولو مؤسس الطريقة

الكارتوزية ، وفي هذه الصور بلغ الفنان أوجهه . وفي ١٧٧٦ اشترت هذه السلسلة من الرهبان الكارتوريين بمبلغ ١٣٢٠٠٠ جنيه فرنسي ، وهي اليوم تشغل غرفة خاصة باللوفر . ولما عاد لبرون من إيطاليا ( ١٦٤٧ ) اكتسح أمامه كل شيء ، وانتكس لوسوير إلى فقره ، ثم مات في ١٦٥٥ ولما تجاوز الثامنة والثلاثين .

أما شارل لبرون فقد تسلط على الفنون في باريس وفرساي ، لأنه أوتي قدرة التنسيق والإدارة كما أوتي قدرة التصور والتنفيذ . وإذا كان ابن نحات له أصدقاء من المصورين ، فقد شب في بيئة تعلم فيها الرسم كما يتعلم غيره من الأطفال الكتابة . ورسم في الخامسة عشرة - وغينه لا تغفل عن ترقب فرصته الكبرى - صورة رمزية لحياة ريشليو ونجاحه ، والتقط الوزير الطعم ، فكلفه برسم موضوعات أسطورية لقصر الكردينال . وحين أخذه بوسان إلى روما أغرق نفسه في أساطير وزخارف رفايل ، وجوليو رومانو ، وبييترو دا كورتونا . فلما عاد إلى باريس كان أسلوب الزخرفة المترفة المنمقة الذي انتهجه قد اكتمل نضجه . وهنا أيضا كان فوكيه أسبق من لويس في استخدامه لبرون ليصور في قصره بغيره . وقد استهوت مازاران وكولبير والملك براءة ما أطلع من صور جصية ، وذلك الجمال الشهواني الذي اتسمت به أجساد النساء والتفاصيل الغنية من كرايش ومصبوبات . ولم يأت عام ١٦٦٠ حتى كان لبرون يرسم صورا جصية من حياة الأسكندر للقصر الملكي بفونتينبلو . وقد أبهج لويس أن يتبين ملامحه تحت خوذة الأسكندر ، فكان يأتي كل يوم ليراقب الفنان وهو يرسم معركة أربل ، وأسرة دارا عند قدمي الأسكندر . وكلتا الصورتين في اللوفر . وكافأه الملك بلوحة ملكية مرصعة بالماس ، وجعله مصوره الأول ، وأجرى عليه معاشا بلغ ١٢٠٠٠ جنيه في العام .

ولم تغتر لبرون همة . ففي ١٦٦١ دمرت النيران قاعة اللوفر الوسطى ، فصمم ترميمها ، وصور السقف والكرائش بمناظر من أساطير أبولو ،

ومن هنا الاسم الذي أطلق عليها « قاعة أبولو ». وخلال ذلك درس الفنان الطموح العمارة والنحت وأشغال المعادن والخشب ورسم النسيج وبمختلف الفنون التي جندت الآن لتزيين قصور العظماء . وانصهرت هذه الفنون جميعها في مهاراته المتنوعة حتى لقد بدا أن الحفظ أعده ليجمع فناني فرنسا في جهد موحد لينتجوا طراز لويس الرابع عشر .

وقد أطلق لويس يده ومنحه ما شاء من مال لتزيين فرساي ، حتى قبل أن يمينه مديراً لأكاديمية الفنون الجميلة . وهناك عمل بجهد طوال سبعة عشر عاماً ( ١٦٦٤ — ٨١ ) فنسق الأعمال الفنية ، وصمم « سلم السفير » ، ورسم بنفسه في قاعات الحرب والسلام ، وفي القاعة الكبرى ، سبعمائة وعشرين صورة جصية تصف أفعال الملك منذ صلح البرانس ( ١٦٥٩ ) حتى معاهدة فيميجن ( ١٦٧٩ ) . وقد أظهر لويس في الحرب والسلام وسط حشد من الأرباب والربات ، والسحب والأنهار ، والحيل والمركبات ، يقذف الصواعق ، ويعبر الرين ، ويحاصر غنت ، ولكنه إلى ذلك يجري المدالة ويصرف شئون المال ، يطعم الفقراء في المجاعة ، وينشئ المستشفيات ، ويشجع الفن . ولو أننا أخذنا هذه الصور فرادى لما عدناها من الروائع ، فأساسها الكلاسيكي طنى عليه سيل من الزخارف الباروكية ، ولكننا إذا أخذناها في مجملها وجدناها تأليف أروع عمل قام به الرسامون الفرنسيون في هذا العصر . ويغنيانا تمجيده للملك لأنه يكشف فيه عن داء الغرور ، ولكن تملق الأمراء والملوك على هذا النحو كان سنة العصر . لا عجب إذن أن يقول لويس لمصوره وهو يرى بعض صوره بجوار أخرى رسمها فيرونييري وبوسان « إن أعمالك تثبت للمقارنة بأعمال كبار الفنانين ، ولا ينقصها إلا موت صاحبها لكي يقدرها الناس أكثر مما يقدرونها الآن ، ولكننا نرجو ألا نتاح لها هذه الميزة سريعاً » ( ١٤ ) ، وقد ساند الملك خلال جميع المكائد التي أحدثت به من حساده بعد قليل ، كما ساند موليير الذي ضايقه خصومه ، ولم يكن غريباً

على طبع لويس - إذ نعى إليه أثناء حضوره إجتماعاً أدارياً أن لبرون نجاء ليريه آخر صورته « رفع الصليب » (١٥) - أن يستأذن الحاضرين ليذهب ويرى الصورة ويعرب عن سروره، ثم يدعو كل المجتمعين ليأتوا ويشاركوه في مشاهدتها (١٦). وهكذا سارت الحكومة والفن في هذا العهد جنباً إلى جنب، وشارك الفنانون القواد العسكريين مكافآتهم ومدائحهم.

كانت صنعة لبرون شيئاً جديداً وإن انبثقت من الزخرفة الإيطالية. لقد كانت مزيجاً زخرفياً جمع فنونا عديدة ليؤلف منها كلا جمالياً واحداً. فلما حاول أن يجرب تصوير لوحات فردية انزلق إلى مرتبة وسطى. وإذا استعالت التصارات الملك إلى هزائم، وأخلت محظياته مكانهن للكهان، تغير مزاج العهد ولم يعد لزخارف لبرون البهيجة محل. ولما خلف لوفوا كولبير مشرفاً على العمائر فقد لبرون دوره زعيماً للفنون، وإن ظل رئيساً للأكاديمية. ومات في ١٦٩٠ رمزاً لمجد ول.

واغتبط فنانون كثيرون بتحررهم من سيطرته، ومن هؤلاء على الأخص بيير منيار الذي ساءته هذه السيطرة. وإذا كان يكبر لبرون بتسع سنوات فقد سبقه في الحج إلى روما بلوحة الوانه، وتعلق قلبه بالمدينة الخالدة كما تعلق بها بوسان، حتى لقد استقر رأيه على العيش فيها طوال حياته. وقد عاش فيها فعلاً اثنتين وعشرين سنة (١٦٣٥ - ٥٧) واغتبط زبائنه باللوحات التي رسمها لهم اغتباطاً حمل في النهاية البابا أنوسنت العاشر، الذي ربما ساءه الوجه الذي خلعه عليه فيلاسكوز من قبل، على أن يجلس إلى منيار الذي أضفى عليه طلمة أطف. وفي ١٦٤٦، حين بلغ منيار الرابعة والثلاثين، تزوج حسناً إيطالية، ولكنه ما إن سكن إلى الأبوة الشرعية حتى تلقى دعوة من فرنسا ليذهب ويخدم الملك، فذهب على مضض. وفي باريس تمرد على قبول التوجيهات من لبرون، ورفض الانضمام إلى الأكاديمية، وحز في نفسه أن يرى زميله الأصغر يحسد الأنواط والأموال. وأوصى

مولير كولبير به ، ولكن لعل الوزير أنصف في إيثاره لبرون ، فما كان منيار ليرضى أن يرتفع إلى مستوى الفخامة المتسكفة التي تطلبها القرن العظيم . على أية حال ، كان لويس الذي بلغ العشرين آثذ في حاجة إلى صورة فائنة له يغوى بها عروسا من أسبانيا . وارتضى منيار أن يرسمها ، وافتتن لويس وماريا تريزا بها ، وغدا منيار أنجح رسام الأشخاص في هذا العهد . فرسم لوحات لمعاصريه الواحد تلو الآخر : مازاران ، وكولبير ، ورتز ، وديكارت ، ولافونتين ، ومولير ، وراسين ، وبوسويه ، وتورين ، ونيون دلانكلو ، ولويز دلافالير ، والسيدات مونتسبان ، وماتنون ، ولافايت ، وسفينييه ، وقد أنصف يدي آن الفساوية اللتين عدما الناس أهل الأيدي في العالم ، فكافأته بمهمة تزيين قبو القبة في كنيسة فال — دجراس ، وكان هذا الرسم الجصى رائعته الكبرى التي أشاد بها مولير في إحدى قصائده . وقد صور الملك غير مرة ، وأشهر صورته المعروضة في فرساي والتي يرى فيها راكبا جواده ، ولكننا نجد هناك على أروعه في اللوحة البديعة المسماة « دوقه مين في طفولتها » . وبعد موت كولبير انتصر منيار في النهاية على لبرون ، فخلف غريمه مصورا للقصر في ١٦٩٠ ، وعين عضوا في الأكاديمية بمرسوم ملكي ، وبعد خمس سنوات مات في الخامسة والثمانين وهو لا يفتأ يرسم وبناضل .

وجاهد رهنط من المصورين غير من ذكرنا في خدمة الملك الذي استوعب الفنانين جميعا . فشارل دوفرينوا ، وسبستيان بوردون ، ونويل كوابيل وابنه أنطوان ، وجان فرانسوا دتروا ، وجان جوفنيه ، وجان باتيست ساتير ، والكساندر فرنسوا ديپورت — هؤلاء كلهم يلتمسون أن يسلكوا في زمرة الحاضرين هذه الوليمة للملكية . وهناك فنانون آخرون يبرزان بقوة في نهاية العهد — وأولهما نيكولا دلارجلير الذي خلف منيار مصورا أثيرا للأرستقراطية لا في فرنسا وحدها بل في إنجلترا أيضا بعض الوقت

( ١٧٧٤ - ٧٨ ) . وقد اكتسب حب لبرون باللوحة الرائعة التي رسمها له والمعروضة الآن في اللوفر . وألوانه الرمزية ولمسته الخفيفة تبين الانتقال من اضمحلال لويس الرابع عشر المعتم إلى عصر آخر مرح ، هو عصر الوصاية والفتنان فاتو .

أما الثاني وهو ياسينت ريجو ، فكان أصلب عودا . وقد كسب هو أيضا قوته برسم الأشخاص ( أنظر صورته البديعة لبوسويه في اللوفر ) ، ولكنه لم يكسبه بالتملق ، ومع أن صورته التي اظهر فيها لويس الرابع شامخا مسيطرا ، والتي ترتفع في مؤخرة قاعة اللوفر الكبرى ، تبدو من بعيد وكأنها إشادة بالملك ، فإننا نلاحظ إذا تأملناها عن كثب ملامح الملك جامدة منتفخة ، وهو واقف على قمة سلطته وعلى حافة قدره ( ١٧٠١ ) . وكانت أغلى صور العصر ثمننا كما أنها أفضلها عرضا ، فقد نقد لويس ريجو فيها ٤٠٠٠٠ فرنك ( ١٠٠٠٠٠ دولار ؟ ) — وربما كان هذا الأجر معادلا لما دفعه لويس ثمننا للثياب الرائعة التي زينته هنا انحلاله .

## ٥ - النحت

كان المثالون أقل حظوة وثوابا في هذا العهد من المصورين . ومع ذلك فالمنحوتات المرمية القديمة هي التي اشتهى لبرون أن تصاغ على غرارها جميع الفنون . وقد أنفقت الأموال الطائلة وسخرت اللواهب الكثيرة في شراء أو نسخ التماثيل التي بقيت على قيد الحياة بعد انهيار العالم القديم . ولم يقنع لويس بالنسخ طبعا . وإذا كان يذكر حداائق سالوست وهادريان الرومانية ، فقد استخدم لقيفا من المثالين الأكفاء لينفخوا بتماثيلهم الحياة في بستان فرساي . وأقيمت الزهريات الضخمة كزهريّة الحرب التي صنعها كوازييفوكس في حوض ببتيون ، وعلى شرفة القصر ، ونحت الشقيقان جاسبار وبلتازار دمارسي « حوض باخوس » العظيم ، وأبرز جان باتست

من البحيرة تمثاله الرائع « مركبة أبولو » والإله الشمس فيه يرمز للملك ، ونحت فرانسوا جيراردون في الحجر من « الحوريات المستحلمات » ما لم يكن يرا كستليس ذاته ليأنف من نسبته إليه .

وتطلع جيراردون قرناً إلى الخلف ليرى كيف صور بريماتاشو وجوجون جسد الآتى في صورة كاملة . وعاد إليه ذلك الحسن الانسيابي الذى اتسم به الفن الهيلينى ، ريمافى إسراف ، ومهما بحثنا وفتشنا فإننا لم نجد إلى الآن إنانا كاملات الأجساد كأوائلئك الآتى نجبدهن فى تمثال « اغتصاب بروزيرين (١٧) » . ولكنه كان قادراً على التعبير عن حالات نفسية أقوى من هذه . وقد صنع لميدان فاندوم تمثالا للويس الرابع عشر محفوظا الآن فى اللوفر ، ونحت لكنيسة السوربون مقبرة نخمة لريشليو . وقد أحبه لبرون لأنه تجاوب فى لطف مع ذوق الأكاديمية وأهدافها . وخلف لبرون كبيراً لمثال الملك ، ورأس الأكاديمية بعد وفاة منيار . ومع أنه ولد قبل لويس بعشرة أعوام إلا أنه عمر بعده شهوراً ، ومات فى ١٧١٥ وهو فى السابعة والثمانين .

أما أنطوان كوازييفوكس فكان إنساناً أرق من اسمه ، محبباً إلى الناس كتمثاله «دوقة برجندية» . ولد بليون ، وكان ينحت لنفسه مكاناً بين المثالين حين دعاه لبرون ليساعد فى زخرفة فرساي . وقد بدأ بصنع نسخ أو مقتبسات رائعة من التماثيل القديمة . فنحت عن تمثال رخامى قديم فى فيللا بورجيزى « حورية المحارة » ، وعن تمثال فى قصر مديتشى بفلورنسة نقل « فينوس الجامعة » وكلا التمثالين محفوظ فى مستودع الفن المخطوط الذى نسميه اللوفر . وما زال فى مكانه بفرساي تمثاله « كاستور وبولكس » الذى نقله عن مجموعة بمقدائق لودوفيزى بروما . وما لبث أن ألتج أعمالاً أصيلة فيها قوة لا يستهان بها . فنحت لبستان فرساي تمثال كبيرة تمثل نهري الجارون والدوردون ، ولساحة قصر مارلى رمزين شبيهين بهذين لنهري السين ولمارن .



وفي حدائق التويلزي اليوم أربعة تماثيل رخامية نحتها لما رلى ، وهي فلورا ( ربة الزهر ) — والشهرة ، وهورية الغابات ، وعطارد راكبا بيجاسوس . وقد خرج من تحت إزميله الكثير من الزخارف للنحت في حجرات فرساي الكبرى .

وظل يكدهج في فرساي ثمانية أعوام ، وقضى خمسة وخمسين عاما في خدمة الملك . فنحت له اثني عشر تمثالا ، أشهرها تمثاله النصفى في فرساي ، وأصبح في النحت ما كان منيار في التصوير — أحب نحاتى الوجوه إلى الناس في فرنسا . وبدلا من أن يتشاجر مع منافسيه نحتهم في الرخام أو صلبهم في البرونز ، فوفر عليهم غرورهم ونقودهم . وحين تلقى ١٥٠٠ جنيه أجرا لتمثال النصفى الذى صنعه لسكولبير ، رأى الأجر مغالى فيه فرد منه سبعمائة جنيه (١٨) . وقد ترك لنا تماثيل كاملة الذهب بلبرون ، ولنوتر ، وآرنو ، وفوبان ، ومازارن ، وبوسويه ، وترك لنفسه ترجة بسيطة لوجه أمين أشعث مضطرب (١٩) ، ولكونديه العظيم تمثالين نصفين أحدهما في اللوفر ، والآخر في شانتى ، يتميزان بصدق وفحولة لامراء فيهما . ثم نحت بأسلوب مختلف تماما تمثالا رشيقا لدوقة برجندية في صورة ديانا (٢٠) ، والتمثال النصفى الجميل لنفس الأميرة في فرساي . وصمم مقابر رائعة لمازاران (٢١) وكولبير ، وفوبان ، ولبرون . ولأعماله ملمس الروح الباروكية في عاطفيتها للمسرحية ومبالغتها العارضة ، ولكنها في أحسن صورها تعبر تعبيرا حسنا عن المثل الكلاسيكى الذى استهدفه الملك والبلاط ، فهى راسين متمثلا في الرخام والبرونز .

وحوله وحول جيراردون تجمع سباعى من المثالين ، فرنسوا انجيه وأخوه ميشيل ، وفليب كوفيه وابنه فرانسوا ، ومارتان ديماردان ، وبير لجرو ، وجيوم كوستو ، الذى مازالت « خيل مارلى » التى نحتها تشب في الهواء بميدان الكونسكورد .

وفضلاً عن هؤلاء المثالين جميعاً ، وعلى مبعدة منهم ، وفي تمجد لمثالية  
النهضة الرسمية الناعمة ، أنطق بيير بوجيه إزميله بغضب فرنسا وبؤسها . وقد  
ولد في مارسيليا ( ١٦٢٢ ) وبدأ حياته الفنية حفاراً في الخشب ، ولكن  
نفسه تافت كما تافت نفس معبوده ميكلائيل من قبل لأن يصبح في وقت  
واحد مصوراً ومثالاً ومعمارياً . وقد أحس أن الفنان العظيم ينبغي أن يسيطر  
على هذه الفنون جميعاً . وإذا كان يحلم بأفذاذ الفنانين الإيطاليين فقد سار  
من مارسيليا إلى جنوة إلى فلورنسة إلى روما . وتلمذ في حماسة لببيترودا  
كورتونا في زخرفة قصر بارباريني ، وتشرب كل صدى وأثر لبوناروتي ،  
وحسد برنيني على شهرته المتعددة الجوانب . فلما عاد إلى جنوة نحت تمثال  
القديس سبستيان الذي أذاع اسمه لأول مرة ، فكلفه فوكيه ، الذي سبق  
لويس الرابع عشر في تبين مواهب هذا الفنان أيضاً ، بأن ينحت تمثال  
« هرقل » ( ٢٢ ) ، لقصر فو ، ولكن فوكيه سقط ، فهرع بيير إلى الجنوب  
ليمتكف في فقره ويمجتر همومه . ولما كلف بنحت مجموعة « أطلانطيس »  
— وهي تماثيل رخامية لأطلس ، ليحمل بها شرفة « الأوتيل دفييل » ، صاغ  
التمائيل على غرار الجمالين السكادحين في أرمغة الشحن ، وكان ينطق عضلاتهم  
للكدودة ووجوههم التي شوهها الألم بصرخة الثورة — ثورة الملحونين  
الذين يحملون العالم على أكتافهم . ولكن فنا كهذا ما كان ليعجب  
فرساي .

ومع ذلك فإن كولبير الذي فتح ذراعيه للمواهب طلب إليه أن ينحت  
تماثيل يؤثر أن تكون ذات مسحة أسطورية بريئة . فأرسل إليه بوجيه  
ثلاث قطع محفوظه الآن بالوفر : نحتاً قليل الغور لطيفاً يمثل الإسكندر  
وديوجين ، وتمثالاً فيه جهد وإسراف لبيرسيوس وألدروميديا ، وتمثالاً  
عنيفاً لميلو كورتونا — ذلك النباقي الجبار يحاول الخلاص من فكي أسد  
عنيد ومخالبه .

وفي ١٦٨٨ زار بوجيه باريس ، ولكنه وجد طبعه المتكبر وإزميله الغضوب يتنافران مع طرف البلاط وفنه ، فقل راجعا إلى مرسيليا ، وهناك صمم تمثالي « المبرة » و « سوق السمك » — ولا عجب ففي فرنسا حتى سوق السمك يمكن أن يكون عملا فنيا . ولعل أعظم تمثيله قصد به أن يكون تمليقا على مغامرات الملك الحربية ، وهو تمثال الإسكندر راكبا يبدو فيه وسيما مشرقا ، يحمل خنجره في يده ، ويدوس ضحايا الحرب (٢٣) في غير اكتراث تحت سنابك جواده . وقد أفلت بوجيه من رسمية لبرون وفرساي ، ولكنه أفلت أيضا من انضباطهما ، وافضى به طموحه لمنافسة براني ، وحتى ميكلانجلو ، إلى مبالغات في تصوير عضلات الجسد وتعبيرات الوجه ، ومن ذلك « رأس ميدوزا » الرهيب المحفوظ باللوافر . ولكنه كان على الجملة أقوى نحات في وطنه وفي جيله .

وإذ قارب العهد العظيم نهايته ، وجرت الهزائم فرنسا إلى حال من اليأس الشديد ، انصرفت كيرياء الملك إلى التقوى ، وانتقل الفن من خور فرساي إلى التواضع الذي يطالعنا في تمثال كوازفوكس لويس الرابع عشر راكما في النوتردام — هنا نرى الملك وقد بلغ السابعة والسبعين ، مزهوا إلى الآن بأثوابه الملكية ، ولكنه يضع تاجه في تواضع عند قدمي العذراء . في هذه السنوات الأخيرة تقلص الإنفاق على فرساي ومارلي ، ولكن خورس النوتردام رمم وجر . أما عبادة الفن القديم فقد فترت نتيجة لشططها ، وبدأ الطبيعي يجور على الكلاسيكي ، وقضى على دفعة الفن الوثنية إلغاء مرسوم نانت . وتسلط مدام دمانتون وتاييه على الملك . وشددت للموضوعات الزخرفية الجديدة على الدين لا على المجد ، فلمقد عرف لويس ربه أخيرا .

إن تاريخ الفن أبان حكم الملك العظيم يعذبنا بأسئلة عويصة . فهل كان تأميم الفنون نعمة أو نقمة ؟ وهل حول تأثير كولبير ولبرون والملك تطور

فرنسا من الاتجاه الأصيل والطبيعي ، إلى محاكاة موهنة لفن هلنستي حل به الضعف ، محاكاة شوشها إسراف باروكي في الزخرفة ؟ وهل تثبت هذه السنوات الأربعون من « طراز لويس الرابع عشر » أن الفن يزداد ازدهارا في ظل ملكية ترعاه بالثروة المركزة ، وتوجه المواهب في وحدة متسقة ؟ — أم في ظل ارسطراطية تصون ، وتوصل ، وتعديل في حذر ، معايير الجودة والذوق ، وأصول النظام والانضباط ؟ — أم في ظل ديمقراطية تفتح الطريق أمام كل موهبة وتطلق الكفايات من رتبة التقاليد ، وتلزم الفن بأن يعرض إنتاجه على الشعب ويكيفه وفق رأيه ؟ وهل كان ممكنا أن تغدو إيطاليا وفرنسا الوطنين المحظوظين للفن والجمال اليوم لولا أنهما جملتا بأموال وأذواق الكنيسة والنبلاء والملوك ؟ وهل كان ممكنا أن يوجد فن عظيم دون تركيز الثروة ؟

إن الجواب المتواضع المفيد عن هذه الأسئلة يقتضي حكمة طالية ، وأي جواب من هذا القبيل لابد أن يجعله التفريقات والشكوك جوابا ضامضا غير حاسم . ولعل الفن فقد شيئا في طبيعته ومبادرته ونشاطه نتيجة لما بسطته عليه القوة المركزية من حماية وتوجيه وهيمنة . صحيح أن فن لويس الرابع عشر كان فنا منظما ، أكاديميا ، جليلا بهائه المنسق ، لا يفوقه فن في صقله الفني ، ولكن السلطة عطلت قدرته على الابتكار ، وقد قصر دون ذلك الالتحام بالشعب الذي أضى الهدف والعمق على الفن القوطي . لقد كان اتساق الفنون في عهد لويس رائعا ، ولكنه كثيرا ما كان يعزف على نفس الوتر ، حتى لقد أصبح في النهاية تعبيرا لآعن جيل وأمة ، بل عن ذات وبلاط . صحيح أن الثروة لاغنى عنها للفن العظيم ، ولكن الثروة تكون عارا ، والفن يكون بغيضا ، إذا ازدهرا على حساب فقر شامل واعتقاد بالخرافات مذل ، فالجيل لا يمكن فصله طويلا عن الخبر . وقد تكون الارستقراطية حارسا وناقلا مفيدا للمعادات والمعايير والأذواق

إذا تيسرت الأسباب نفتحها أمام المواهب الجديدة، ولمنعها من أن تكون أداة للامتياز الطبقي وللترف الكاذب . كذلك تستطيع الديمقراطيات أن تجمع الثروة وتضفي عليها الكرامة بتغذيتها للمعرفة والآداب والبر والفن ، ومشكلات الديمقراطيات في معاداة الحرية غير الناضجة للنظام والانضباط ، وفي نمو الذوق نموا بطيئاً في المجتمعات الناشئة ، وفي ميل السكفويات غير المحكومة لأن تبدد نفسها في تجارب شاذة تخطئ الابتكار فتحسبه عبقرية ، والطرافة فتحسبها جمالا .

على أية حال كان رأى استقراطيات أوروبا في صف الفن الفرنسى دون ما تردد . فانتشر معمار القصور والنحت الكلاسيكى والأسلوب الأدبى والزخرفة الباروكية اللآثا والشباب — انتشر هذا كله من فرنسا إلى كل طبقة حاكمة تقريباً في غرب ، أوروبا حتى إلى إيطاليا وأسبانيا . وتطلعت قصور لندن وبروكسل وكولون ومينن ودرسدن وبرلين وكاسل وهيدلبرج وتورين ومدريد إلى فرساي مثلاً تحتذيه في السلوك والفن . وكلف المعمار يون الفرنسيون بتصميم القصور حتى مورافيا شرقاً ، وصمم لنوتر الحداثق في وندزور وكاسل ، ووفد رن وغيره من المعمارين الأجانب على باريس لينتقوا عنها الأفكار ، وانبث النحاتون الفرنسيون في جميع أرجاء أوروبا ، حتى أصبح لكل أمير تقريباً تمثال راكب كتمثال ملك فرنسا . وظهرت قصص لبرون الرمزية الأسطورية في السويد ، والدانمرك ، وأسبانيا ، وهامتن كورت . والتمس الملوك الأجانب أن يجلسوا إلى ريجو ليصورهم فإن لم يتيسر فإلى أحد تلاميذه . وأوصى حاكم سويدي بقطع من نسيج بوفيه المرسوم تخليداً لانتصاراته . إن التاريخ لم يشهد منذ انتشار الثقافة اللاتينية القديمة في غرب أوروبا غزواً ثقافياً أنجز بمثل هذه السرعة وهذا السكال .

## الفصل الرابع

موليير

١٦٢٢ - ٧٣

### ١ - المسرح الفرنسي

بقي الآن أن تخضع المسرحية والشعر الفرنسيان أوربا لسلطانهما .

ولقد شاء هوى التاريخ أن ينصرف الأدب الفرنسي في هذا العصر إلى المسرح ، وأن يشجع الكردينال ريشليو المسرحية التي ظلت الكنيسة تحرّمها طويلا ، وأن يستورد الكردينال مازارن الملهاة الإيطالية إلى فرنسا ، وأن يرث لويس الرابع عشر حب المسرح من هذين السكاهنين اللذين مهدا لسلطته أو حفظاها .

كانت المسرحية الحديثة قد بلغت الشكل الأدبي في إيطاليا برعاية بابوات النهضة الرفيعي الثقافة ، وكان ليوالعاشر يحضر التمثيليات دون أن يطالب بأن تكون صالحة للمذارى . ولكن الإصلاح البروتستنتي وجمع ترنت المترتب عليه وضعا حدا لهذا التساهل السكسي . وقال بنديكت الرابع عشر إن المسرحية لم يستمر السماح بها في إيطاليا إلا درءا لشروا أفدح ، وفي أسبانيا إلا لأنها تخدم الكنيسة . وأما في فرنسا فإن رجال الأكليروس ، اللذين صدمتهم الحرية الجنسية التي تمتع بها المسرح الهزلي ، نددوا بالمسرح عدوا للآداب العامة . وقضت سلسلة طويلة من الأساقفة واللاهوتيين بأن الممثلين محرومون بمحكم طبيعة الحالة ، أي بمحكم مهنتهم ذاتها ، وأنكر عليهم قساوسة باريس ، اللذين عبر عنهم بصوت بوسويه الأمر ، حق تناول الأسرار أو الدفن في أرض مكرسة إلا إذا تابوا وأقلموا عن مهنتهم . وإذ حرموا من مراسم

سر الزواج يقوم بها كاهن ، فقد كان عليهم أن يقنعوا بزيجات عرفية باللغة القلق وعدم الاستقرار ، كذلك وصم القانون الفرنسي الممثلين وأقصاهم عن كل وظيفة شريفة ، وحظر على القضاة حضور الحفلات التمثيلية .

ومن ملامح التاريخ الحديث البارزة أن المسرح استطاع التغلب على هذه المقاومة . ذلك أن المطلب الشعبي للتظاهر والادعاء تخففاً وثأراً من الواقع أوجب العدد العديد من الهزليات والملاهي ، وكان للآلام التي فرضها على الرجال الاقتصار على زوجة واحدة الفضل في إقبال جمهور سخى العطاء على مسرحيات الحب الحلال أو الحرام . ويلوح أن ريشليو وافق ليو العاشر على أن أيسر سبيل للهيمنة على المسرح هو رعاية أفضل المسرحيات لا رفضها كلها ، وبهذه الطريقة قد يتيح القدوة للذوق العام ، والعيش للفرق المسرحية المهددة . وليلاحظ القارئ تقرير فولتير الآتي : « منذ أدخل الكردينال ريشليو الأداء المنتظم للتمثيلات في البلاط ، الأمر الذي جعل باريس الآن منافسة لأثينا ، لم يقتصر الأمر على تخصيص مقعد يجلس عليه رجال الأكاديمية التي تضم نفرا من القساوسة ، بل خصص مقعد آخر للأساقفة (١) » . وفي ١٦٤١ ، ربما بناء على طلب الكردينال ، بسط لويس الثالث عشر رعايته على فريق من الممثلين عرفوا بعدها بالفرقة الملكية أو الكوميديين الملكيين ، وأجرى عليهم معاشا قدره ألف ومائتا جنيه في العام ، وأصدر مرسوما يعترف بالمسرح لونا مباحا من ألوان الترفيه ، وأعرب عن رغبة الملك في ألا تعتبر مهنة الممثل بعدها ضارة بمركزه في المجتمع (٢) . وأقامت الفرقة مسرحها في « الأوتيل دبورجون » ، وحظيت برعاية لويس الرابع عشر الرسمية ، واحتفظت طوال حكمه بتفوقها في أخراج المآسي .

ورغبة في رفع مستوى الملهاة الفرنسية ، دعا مازاران نفرا من الممثلين الإيطاليين إلى باريس ، ومنهم تيبيريو فيوريلى ، الذي أصبح أثرا لدى باريس والبلاط بأدائه دور المهرج الفشار « سكاراموتشا » . ولعله هو

وزملاؤه شاركوا في بحث همى المسرح في أوصال جان بوكلان الرابع ،  
وفي تعليمه فنون المسرح الهزلى (٣) . فلما طاد «سكاراموش» إلى إيطاليا —  
( ١٦٥٩ ) أصبح جان بوكلان ، الذى عرفه المسرح والعالم باسم موليير ،  
الممثل الهزلى الأول للملك ، وبعدها بقليل — فى رأى بوالو المولع به —  
أكبر كتاب العصر .

## ٢ - تلميذته

على المبنى رقم ٩٦ بشارع سانت — أونوريه كتابة بحروف من ذهب  
هذا نصها : —

شيد هذا البيت فوق موضع البيت الذى ولد فيه موليير

فى ١٥ يناير ، ١٦٢٢

وكان البيت بيت جان باتست بوكلان الثالث — منجد الأثاث والمزخرف .  
وكانت زوجته ماري كريسيه قد أتته بمهر قدره ٢٢٠٠ جنيه ، وأنجبت له  
ستة أطفال ، ثم ماتت بعد زواجهم بعشر سنوات ، ولم يكن طفلها الأول —  
جان باتست بوكلان الرابع — يتذكرها فى وضوح ، ولم يذكرها قط فى  
تمثيلياته وتزوج الأب ثايرة (١٦٣٣) ولكن زوجة الأب ماتت فى ١٦٣٧ ،  
فكان على الأب أن يحمل عبء عبقرية ولده ، وبوجه تعليمه ، ويفكر فى  
تشكيل مجرى حياته . وفى ١٦٣١ أصبح جان بوكلان الثالث « المشرف  
على تنجيد أثاث حجرة الملك » ومنح امتياز إعداد السرير الماسكى والسكنى  
فى البيت الماسكى ، لقاء راتب سنوى قدره ثلثمائة جنيه ، وهو مبلغ متواضع ،  
ولكنه لم يلزم الحضور فى أى طام أكثر من ثلاثة أشهر . وكان الأب قد  
اشترى الوظيفة من أخيه ، وأراد أن يورثها ابنه . وفى ١٦٣٧ أقر لويس



الرابع عشر حق جان بوكلان الرابع في وراثة الوظيفة ؛ ولو أن تطلعات الأدب  
تمحقت لعرف التاريخ مولير — إن عرفه إطلاقاً — بأنه الرجل الذي كان  
يعد سرير الملك . على أن جداً للصبي أولع بالمرح ، فكان يصطحبه إلى  
حفلات التمثيل بين الحين والحين .

وأعداداً لجان الرابع لتهيئة سرير الملك ، أرسل إلى كلية اليسوعيين في  
كليرمون ، وكانت الأم الحانية على المهرطقين . وهناك تعلم الكثير من  
اللاتينية ، وقرأ تيرنس وأفاد منه ، ولا شك أنه اهتم ، وربما شارك ، في  
المسرحيات التي عرضها اليسوعيون أداة لتعليم تلاميذهم اللاتينية والأدب  
والكلام ويقول فولتير إن جان تلقى كذلك تعليماً عن الفيلسوف جاسندي  
الذي كان قد عين معلماً خاصاً لزميل في فصل جان . على أية حال تعلم جان  
الكثير عن أبيقور ، وترجم شطراً كبيراً من ملحمة لوكريتيوس الأبيقورية  
*De rerum natura* (وبعض سطور مسرحيته « مبغض البشر »<sup>(٤)</sup> . تسكاد  
تكون ترجمة لفقرة في لوكريتيوس<sup>(٥)</sup> . والراجح أن جان فقد إيمانه  
قبل أن يختتم صباه<sup>(٦)</sup> .

وبعد أن قضى خمس سنين في الكلية درس القانون ، ويبدو أنه مارسه  
حقبة قصيرة في المحاكم . ثم اتخذ مهنة أبيه بضعة أشهر (١٦٤٢) . وفي  
ذلك العام التقى بمادلين بيجار ، وكانت وقتها سيدة مرحة في الرابعة والعشرين .  
وقبل ذلك بخمس سنين كانت خلية للسكوت دمودين ، الذي اعترف في  
سماحة بالطفل الذي ولدته له ، وأذن لابنه في أن يقف عراباً له عند صماده .  
وفتنت مادلين جان — وكان قد بلغ العشرين — وسحرته بجمالها وطبعها  
البشوش اللطيف . وأغلب الظن أنها قبلته عشيقاً . وقد حمله عشقها للمرح ،  
مع عوامل أخرى ، على اتخاذ قرار بأن يولى لتنجيد الأثاث ظهره ، وأن  
ينزل عن حقه في أن يخلف أباه مشرفاً على تنجيد حجرة الملك لقاء ٦٣٠ جنيه ،  
وأن يلتقي بنفسه في خضم التمثيل (١٦٤٣) . وذهب ليقم في بيت مادلين

بيجار<sup>(٧)</sup> . ثم دخل معها ومع أخويها وآخرين في تعاقد رسمي أنشأوا بمقتضاه « للمسرح الشهير » ( ٣٠ يولية ١٦٤٣ ) . ويعتبر الكوميدي فرانسيز ذلك العقد بداية لتاريخه الطويل الممتاز . واتخذ جان الآن اسماً مسرحياً جرياً على عادة الممثلين ، فأصبح يسمى مولير .

واستأجرت الفرقة الجديدة ملعباً للتنس مسرحاً لها ، وقدمت مختلف التمثيليات ، ثم أفلس ، وفي ١٦٤٥ قبض على مولير ثلاث مرات بسبب الدين ودفع أبوه عنه ديونه وحصل على أمر بالإفراج عنه معللاً نفسه بأن الفتى قد برىء من حمى المسرح . ولكن مولير أطاق تأليف « للمسرح الشهير » وانطلق في جولة بالأقاليم . ومنح الدوق ديبيرون حاكم جيين الفرقة تأييده . وتشكلت الفرقة في سلسلة مضنيه من النجاح والفشل بين ناربون ، وتولوز ، وألبى ، وكاركاسون ، ونانت ، وآجن ، وجرينوبل ، وليون ، ومونبلييه ، وبوردو ، وبزييه ، وديجون ، وأفنيون ، وروان . وارتقى مولير حتى أصبح مديراً لها ( ١٦٥٠ ) ، ووفق بعشرات الحيل في أن يحفظ للفرقة قدرتها على إيفاء ديونها ويكفّل لها طعامها . وفي ١٦٥٣ أعار الأمير ديكوتى ، زويه المدرسى القديم ، اسمه للفرقة وقدم لها المعونة ، ربما لإعجاب سكرتيره بالتمثلة الأنسة دوبارك . ولكن الأمير أصابته نوبة شلل دبنى في ١٦٥٥ ، فأخبر الفرقة بأن ضميره يمنعه من الاتصال بالمسرح ، ومالبت بعد ذلك أن ندد علانية بالمسرح ، وبمولير بصفة خاصة ، مفسداً للشباب وعدوا للفضيلة والمسيحية .

ووسط هذه التقلبات نهضت الفرقة شيئاً فشيئاً بكفايتها ودخلها و ذخيرتها من المسرحيات . وتعلم مولير فن المسرح وحيله . فما وافى عام ١٦٥٥ حتى كان يكتب التمثيليات كما يمثلها . وفي ١٦٥٨ آس في نفسه من القوة ما يكفي لتعهدى فرقتين احتلتا المسرح الباريسى ، فرقة ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، وفرقة خاصة تمثل فى مسرح ماريه . وحضر هو ومادلين بيجار

من روان إلى باريس ليمهدا الطريق لفرقتها • وزار أباه ، وظفر بعفو عن ذنوبه ومهنته . ثم أقنع فيليب الأول دوق أورليان بأن يبسط حمايته على الفرقة وأن يحصل لها على إذن بإقامة حفلة تمثيلية بالبلاط .

وفي أكتوبر ١٦٥٨ مثلت « فرقة المسيو » هذه أمام الملك في قاعة الحرس باللوفر مأساة كورنى « نيكوميد » ، ومثل مولير الدور الرئيسى دون توفيق كبير ، لأنه كما يقول فولتير كان يعانى « من ضرب من الفواق لا يلائم البتة الأدوار الجادة ، ولكنه يعين على جعل تمثيله فى الملهاة أكثر إمتاعا » (٨) . وقد أنقذ الحفلة بأن أتبع المأساة بملهاة فقدت الآن معالمها ، ومثل بحىوية ومرح ، وحاجب مرنوع وفهم مثرر جعل الجمهور يتساءل لم يمثل المأساة إطلاقا • وكان فى الملك من الصبى ما جعله يستمتع بهذا الهزل ، ومن الرجولة ما جعله يقدر شجاعة مولير • فأصدر تعليماته بأن تشارك فرقة المسيو فرقة سكاراموش الإيطالية فى قاعة البتى بوروبون، وهناك أيضا أخفق الممثلون الوافدون حين حاولوا تمثيل المأسى التى قصروا فى أدائها دون ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، ووفقوا فى التمثيليات الهزلية ، لاسيما التى ألفها مولير • ومع ذلك واصلوا إخراج المأسى • ذلك ان كبار الممثلات كن يشعرن بأنهن يتألقن أكثر فى الدراما الجادة ، ولم يكن • ولير نفسه راضيا قط بأن يكون كوميديا ، لأن صراعات الحياة وسخاقتها أورثته مسحة من الحزن ، وقد وجده أمرا فاجعاً له أن يكون على الدوام مضحكا •

يضاف إلى هذا أنه سئم هزليات المكائد الغرامية والشخصيات المبتذلة وكباش الفداء المألوفة ، وأكثرها أصداً لإيطاليا • وتلفت حوله فى باريس فرأى فيها أشياء لا تقل إضحاكاً عن بوليشينيل وسكاراموش • وروى عنه قوله « لم يعد بى حاجة إلى اتخاذ باوتس وتيرانس أساتذة لغنى أو إلى السطو على ميناندر • فما على إلا أن أدرس هذه الدنيا » (٩) •

### ٣ - مولير ونساء المجتمع

مثال ذلك « الأوتيل د'امبوييه » حيث كان الرجال والنساء يمجذون الآداب الرقيقة والحديث المعطر . فكتب مولير تمثيلية « المتحذلقات المضحكات » . وكان إخراجها ( ١٨ نوفمبر ١٦٥٩ ) فاتحة ملهاة العادات الفرنسية وبداية لحظ مولير وشهرته . وكانت الملهاة من القصر بحيث لم يستغرق تمثيلها أكثر من ساعة، وفيها من الحدة ما خلف لدعة طويلة الأيلام . استمع إلى ابنتي العم، مادلون وكاتوس، اللتين تلفهما سبعة أقنعة من التطرف، تحتجان على تلف الكبار، الواقعيين . المفلسين ، على تزويجها .

جرجيبوس : أى عيب تريان فيهما ؟

مادلون : يا لها من كياسة رائعة منها حقاً ماذا ، أنبدأ فوراً بالزواج . . . لو كان الناس جميعاً مثلك لفضى للتو على الرومانس . . . إن الزواج ينبغي ألا يتم أبداً إلا بعد مغامرات أخرى . فعلى العاشق إن أراد قبولاً أن يفهم كيف يعبر عن العواطف المهذبة ، وكيف يتأوه بالحديث الناعم ، الرقيق ، المشبوب ، ويجب أن يكون حديثه مطابقاً للقواعد . فعليه بأذى ذى بدء أن يرى في الكنيسة أو في الحديقة العامة أو في حفل طام تلك التى يشغف بها حبا ، وإلا وجب تقديمه إليها التقديم المحتوم بواسطة قريب أو صديق ، ثم عليه أن ينصرف عنها مكتئباً متأملاً . ثم يخفى عاطفته حيناً عن موضع حبه ، ولكنه يزورها مرات ، لا يعدم فيها طرح بعض الحديث عن مغازلة النساء على البساط تدريباً لعقول الجماعة كلها . . . ثم يأتى اليوم الذى يبوح فيه بحبه ، وينبغي أن يتم هذا طادة في ممشى حديقة بينما الجماعة على بعد منها . وهذا التصريح تقابله طادة بالاستياء ، الذى يبدو فى احمرار وجوهنا ، والذى يقصى العاشق عنا زمناً ، ثم يجد الوسيلة لمصالحتنا بعد حين ، ولتعويدنا أن نسمع حديث غرامه دون أن نعلم ، واستلال ذلك الاعتراف الذى يسبب لنا عرجاً شديداً .

ثم تتلو ذلك للمغامرات : المزاحون الذين يحبطون ميلا رسخ ، واضطهادات الآباء ، والغيرة للنسبة من المظاهر الكاذبة ، والشكاوى ، واليأس ، والهروب مع الحبيب ، وما يسفر عنه من عواقب . هكذا ينبغي أن تجري الأمور بأسلوب جميل ، وتلك هي القواعد التي لاغنى عنها للتودد المذهب الأنيق . أما الاندفاع رأسا إلى الرباط الزوجي ، وأما عدم مطارحة الغرام إلا بعقد الزواج ، والإمساك بالمغامرة الرومانسية من ذيلها — فرة أخرى أقول لك يا أبا العزيز إنه ما من شيء أكثر آلية من تصرف كهذا ، ومجرد التفكير فيه يشعري بالغثيان .

كاتوس : أما أنا يا صغاه فكل ما أستطيع أن أقوله هو إنني أرى الزواج شيئا مروعا جدا . فكيف أطيق فكرة الرقاد مع رجل عريان حقا (١٠) ؟

ويستعير خادما الخطيبين ملابس سيديهما ويتنكران كمر كيز . وجرال ، ويتوددان إلى السيدتين بكل ما يصاحب التودد من نظرف ومزاح . ويفاجئهما السيدان ، ويجردانهما من ملابسهما المزيفة ، ويتركان الشابتين أمام الحقيقة العارية تقريبا . وفي هذه الملهة ، كما في جميع ملاحى مولير الجنسية ، عبارات نابية وبعض المزاح الرخيص ، ولكن فيها هجوا لازما للحماقات الاجتماعية ، بلغ من حدته أن تأثيره أصبح حدثا في تاريخ عادات المجتمع . وقد نسبت رواية غير مؤكدة لامرأة من النظارة أنها وقفت وسط الجمهور وصاحت « تشجع ! تشجع ! هذه ملهة حسنة يا مولير » (١١) وروى أن واحدا من رواد صالون مدام درامبويه قال بعد خروجه من التمثيلية « بالأمس أعجبنا بكل السخافات التي تقدمت نقدا رقيقا معقولا جدا ، ولكن علينا الآن — كما قال القديس ريمى اسكلوفيس — إن نحرق ما عبدنا ، ونعبد ما أحرقنا » (١٢) . وقابلت المركيزة درامبويه الهجوم بمهذبة ، إذ اتفقت مع مولير على إحياء حفلة يخصص إيرادها لصالونها ، وقد رد على مجاملتها بمقدمة زعم فيها أنه لم ينج صالونها بل مقلديه . على أية

حال انتهى ملك « المتحذلقات » . وقد أشار بوالو في هجائيته العاشرة إلى تلك « العقول الجميلة التي كانت بالأمس ذائعة الصيت ، والتي فرغها مولير بضربة واحدة من فنه » .

وقد نجحت المسرحية نجاحا ضوعف معه أجر مشاهدتها عقب حفلة الافتتاح . وقد مثلت في عامها الأول أربعاً وأربعين مرة ، وأمر الملك بإحياء ثلاث حفلات للبلاط ، حضرها جميعا ، ونفخ الفرقة بثلاثة آلاف جنيه . وما وافى فبراير ١٦٦٠ حتى كانت الفرقة الشاكرة قد دفعت ٩٩٩ جنيها جملة للمؤلف . ولكنه كان قد ارتكب غلطة إذ ضمن المسرحية إشارة هجاءها ممثلي المسرح الملكي « فما من إنسان قادر على أن يشهر شيئا إلا هم ، أما غيرهم فقوم جهلاء يمثلون أدوارهم كأنهم يتحدثون . هؤلاء لا يفقهون كيف يجعلون أبيات الشعر تملجلا ، أو كيف يقفون عند فقرة جميلة . فكيف تعرف الأبيات الرائعة إذا لم يقف الممثل عندها ويخبرك بهذه الطريقة أن تصفق استعجابا (١٣) » .

وأعربت فرقة الأوتيل دوبربون عن احتقارها للسافر لمولير لعجزه عن إخراج المأساة ، ولقدرته على الملهاة الرخيصة دون غيرها . وعزز مولير حججهم بتأليفه وعرضه مسلاة « فارص » متوسطة الجودة سماها « الديوث بالوهم » ولو أن الملك سر بأن يشهدها تسع مرات .

وكانت التغييرات تجري خلال ذلك في مبنى اللوفر القديم ، فهدمت صالة البتي دوبربون في استهتار ، ولاح حيناً أن « فرقة المسيو » التي يرأسها مولير لن تجد لها مسرحا . ولكن الملك المملوف دائما بادر إلى إنقاذهم بأن خصص له في الباليه — رويال « الصالة » التي خصصها ريشايو لعرض التمثيليات . وهناك ظلت فرقة مولير حتى مماته وكأنها جزء من جسم البلاط . وكان أول عرض له في هذا المأوى الجديد آخر محاولاته في المأساة ، وهي « دون جراسي » . وكان رأيه — وله فيه بعض العذر —

أن أسلوب المأساة الخطابي الفخم كما طوره كورنبي ، ومثلته فرقة الأوتيل-دبورجون ، أسلوب غير طبيعي ، وكان يتطلع إلى أسلوب أبسط وأكثر طبيعية . ولو سمح له تسلط النزعة الكلاسيكية على المسرح ( وفواقه ) لجاز أن ينتج مزيجا موفقا من المأساة والمهابة كما فعل شيكسبير ، فإن في أعظم ملاحيه والحق يقال مسحة من المأساة . ولكن « دون جراسي » سقطت ، برغم جهود الملك لدعمها بحضور ثلاث حفلات ، لقد كان قدر مولير أن يكابد للمأساة لا أن يمثلها .

وعليه فقد عاد إلى المهابة . ولقيت « مدرسة الأزواج » نجاحا طيب خاطره إذ عرضت يوميا من ٢٤ يونيو إلى ١١ سبتمبر ١٦٦١ . وقد آذنت بزواج مولير الوشيك ، وكان وقتها في التاسعة والثلاثين ، من أرماند بيجار ، ذات الثمانية عشر ربيعا ، ومشكلة المسرحية هي : كيف ينبغي أن يروض الشابة على أن تكون زوجة صالحة أمينة ؟ فالشقيقان أريست وسجناناريل محظوظان لكونهما الوصيين على الفتاتين اللتين ينويان الزواج منهما أما أريست ، البالغ من العمر ستين عاما ، فيعامل فتاته القاصر ليونور ، ذات الثمانية عشرة ، بغاية اللين :

« لم أنظر إلى تجاوزاتها الصغيرة على أنها جرائم . ولقد لبيت على الدوام رغباتها الشابة ، ولست والله الحمد آسفا على ذلك . فقد أذنت لها بأن تخالط الأصحاب الطيبين ، وتشهد الملاحى ، والتمثيليات ، والمراقص ، فهذه أشياء أراها على الدوام صالحة لتربية عقول الشباب ، وما الدنيا إلا مدرسة أحسبها تعلم طريقة العيش خيرا من أى كتاب . إنها تحب أن تنفق المال على الثياب ، والقمصان ، والأزياء الجديدة . . وأنا أحاول أن أشبع رغباتها ، فهذه لذات ينبغي أن نتيحها للشابات متى استطعنا توفيرها لهن ( ١٤ ) » .

وأما الأخ الأصغر سجناناريل فيحترق أريست لأنه إنسان أحق ضلته أحدث الأوهام . وهو يأسف على زوال الفضائل القديمة وعلى انحلال الأخلاق .

الجديدة ، وعلى وقاحة الشباب المتحرر . وهو بنوى أن يأخذ فتاته القاصر  
إيزابيل بنظام صارم ليروضها على أن تكون زوجه مطيعة :

« لا بد أن ترتدى الملابس اللائقة . . . فإذا لزمت بيتها كما تلزمه للمرأة  
العاقة انصرفت بجمعها إلى شئون الزوجية ، فترفو الثياب في ساعات فراغها  
أو تحبك الجوارب لتتسلى بها . ولن تخطو خطوة خارج البيت إلا إذا قام  
عليها رقيب . . . إنني لن ألبس قروناً إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً » .

وبعد دسيسة بعيدة الاحتمال (منقولة عن ملهاة أسبائية) تهرب إيزابيل  
مع عاشق ذكى ، في حين تزوج ليونور من أريست وتظل وفية له إلى  
آخر النخيلية .

وواضح أن موليير كان يحاور نفسه . ففي ٢٠ فبراير ١٦٦٢ ، وهو في  
الأربعين ، تزوج بأمرأة تصغره بنصف عمره . أضاف إلى ذلك أن عروسه  
هذه — أرماند بيجار — كانت ابنة مادلين بيجار ، التي كان موليير يعاشرها  
قبل عشرين عاماً . وقد اتهمه خصومه بالزواج من ابنته غير الشرعية . وكتب  
مونفلورى ، رئيس فرقة الأوتيل دبورجون للمنافسة ، إلى لويس ينبئه بهذا  
في ١٦٦٣ ، وكان جواب لويس أن جعل نفسه عراباً لأول طفل ولدته أرماند  
لموليير . أما مادلين ، حين لقيها موليير ، فسكات أشد احتفالاً بشخصها من  
أن تتيح لنا أى معرفة يقينية بنسب أرماند . ويبدو أن موليير لم يعتقد أنه  
أبو الفتاة ، ولنا أن نفترض أن معلوماته في هذه النقطة كانت أفضل قليلاً مما  
يمكن أن تكون عليه معلوماتنا نحن .

كانت أرماند قد شبت كأنها حيوان الفرقة للدال . وكان موليير يراها  
كل يوم تقريباً ، وقد أحبها طفلة قبل أن يعرفها امرأة بزمان طويل . وكانت  
الآن قد أصبحت ممثلة مكتملة النضج . أما وقد نشأت في هذا الجو فأنها لم  
تخلق لتكون زوجة لرجل واحد ، لاسيما رجل قد أبلى روح الشباب .



لقد أحببت لذات الحياة واستغرقت في معاشات فسرّها الكثيرون على أنها خيانات للزوج ، وعانى مولير من جراء ذلك ، وكان أصدقاؤه وأعداؤه يلوكون الشائعات عنه . وبعد زواجه بعشرة أشهر حاول أن يهدى جراحه بنقد غيرة الرجال والدفاع عن تحرر النساء . لقد حاول أن يكون أريست ، ولكن أرمّاند لم تستطع أن تكون ليونور . ولعله أخفق في أن يكون أريست لأنه كان نافذ الصبر شأنه شأن أى مخرج مسرحى . وفى « تمثيلية فرساي المرتجلة » ( أكتوبر ١٦٦٣ ) وصف نفسه إذ يقول لزوجته « اسكتى أيتها الزوجة ، فما أنت إلا حمارة » . فتجيب « شكراً لك أيها الزوج الطيب . أنظر ما صار إليه أمرنا . أن الزواج بغير الناس تغييراً عجيباً ، فما كنت لتقول هذا قبل سنة ونصف (١٥) » .

وواصل تأملاته فى الغيرة والحرية فى مسرحيته « مدرسة الزوجات » التى عرضت أول مرة فى ١٦ ديسمبر ١٦٦٢ . ومنذ بدايتها تقريباً تراها تضرب على هذا الوتر — الزوج الديوث . فترى آرنولف الذى لعب مولير دوره هنا أيضاً طاغية من الطراز العتيق ، يؤمن بأن المرأة المتحررة امرأة فاسقة ، وأن السبيل الأوحى لضمان وفاء الزوجة هو ترويضها على الخدمة المتواضعة ، وعلى فرض الرقابة الصارمة عليها وإغفال تعليمها . وتشب أنيس ، القاصر التى كان وصيا عليها وعروسه المستقبل ، فى براءة حلوة ، حتى أنها تسأل آرنولف فى عبارة تردد صداها فى طول فرنسا وعرضها ، « أيولد الأطفال من الأذن (١٦) ، ؟ » . ولما كان آرنولف لم يتحدث إليها بشئ عن الحب ، فأنها ترحب فى سرور برى بتودد هوراس الذى يجد طريقة إليها أثناء غيبة قصيرة للوصى . فإذا عاد آرنولف قصت عليه وصفاً موضوعياً لمسلك هوراس :

آرنولف : حسناً ، ولكن ماذا صنع حين انفرد بك ؟  
آنيس : قال إنه يحبني حباً حاراً لا نظير له . وقال لى بالطف لغة فى

الدنيا أشياء لا يمكن أن يعد لها شيء . وقد أبهجنى لطف حديثه كلما استعمت إليه ، وأثار فى شيئاً لا أعرفه ، عاطفة سحررتنى تماماً .

آرنولف : ( جانباً ) ياله من تحقيق معذب فى سر قتال ، يعانى فيه المحقق كل الألم ! ( بصوت عال . ) ولكن علاوة على هذا الحديث كله ، وهذه الأساليب اللطيفة كلها ، ألم يقبلك بعض القبلات أيضاً ؟

أنيس : أوه ! إلى هذا الحد ! لقد تناول يدى وذراعى ولم يتعب قط من تقبيلها .

آرنولف : ألم يأخذ شيئاً آخر منك يا أنيس ؟ ( ملاحظاً حيرتها ) ها ؟  
أنيس : بلى ، لقد .

آرنولف : ماذا ؟

أنيس : أخذ .

آرنولف : كيف ؟

أنيس : الب .

آرنولف : ماذا تعنين ؟

أنيس : لا أجرؤ على إخبارك ، لأنك قد تغضب منى .

آرنولف : لا .

أنيس : نعم ، ولكنك ستغضب .

آرنولف : يا للهول ، لن أغضب .

أنيس : أحلف إذن .

آرنولف : أحلف .

أنيس : أأخذ سيثور غضبك .

آرنولف : لا .

أنيس : نعم .

آرنولف : لا ، لا ، لا . بحق الشيطان ما هو هذا السر ؟ ماذا أخذ منك ؟

أنيس : أنه —

آرنولف : ( جانباً ) إنى أقاسى عذاب الجحيم .

أنيس : أخذ الوشاح الذى أعطيتني ، أصدفك القول أننى لم أستطع منعه .  
آرنولف : ( متما لكاً نفسه ) : لا بأس بالوشاح . ولكنى أريد أن أعلم  
ألم يفعل شيئاً غير تقبيل يديك ؟

أنيس : أين فعل الناس أشياء أخرى ؟

آرنولف : لا ، لا . . . ولكنى باختصار لا بد أن أخبرك أن قبول  
علب الجواهر والاستماع إلى القصص العاطلة يقصها هؤلاء الغنادير للتبرجون ،  
والسماح لهم وأنت مسترخية بتقبيل يديك وفتنة قلبك بهذه الطريقة —  
هذا كله خطيئة مميتة ، بل أفضح خطيئة يمكن أن ترتكبها .

أنيس : تقول خطيئة ! والسبب من فضلك ؟

آرنولف : السبب ؟ لأنه مكتوب صراحة أن السماء تغضبها أفعال كهذه .  
أنيس : تغضبها ؟ ولكن لم تغضب السماء ؟ وأأسفاه ؟ إنه شيء حلو  
لذيذ ، تعجبني البهجة التى أجدها فيه ، ولم أعرف من قبل هذه الأشياء .

آرنولف : نعم ، هناك الكثير من اللذة فى هذه العواطف الرقيقة ،  
وهذه الأحاديث اللطيفة ، وهذه القبل الحارة ، ولكن ينبغى تذوقها  
بطريقة شريفة ، والزواج كفيل بأن يحو عنها الخطيئة .

أنيس : أفلا تعد خطيئة إذا كان الإنسان متزوجاً ؟

آرنولف : نعم .

أنيس : أرجوك إذن أن تزوجني حالا (١٧) .

وتهرب أنيس إلى هوراس بعد قليل طبعاً . ولكن آرنولف يقتنعها من جديد ويوشك أن يضربها حين يوهن من عزيمة حلاوة صوته وجمال جسدها ، وربما كان مولير يفكر في أرماند وهو يكتب عبارات آرنولف التالية :

« أن ذلك الحديث وتلك النظرة بمجردان غصبي من سلاحه ، ويعيدان إلى الحنان الذي يمحو ذنبها كله . فما أعجب أن يحب الإنسان ! وأن يكون الرجال عرضة لمثل هذا الضعف أمام هؤلاء الخائنات افسكنا يعرف نقصهن ، فما هن إلا التبذير والحماقة ، وذهنهن شرير وفهمهن ضعيف ، وما من شيء أو هن منهن ، ولا أقل ثباتاً ، ولا أكذب ، ومع ذلك كله فالرجل يصنع كل شيء في الدنيا من أجل هؤلاء الحيوانات (١٨) » .

وفي النهاية تهرب منه وتزوج هوراس ، أما آرنولف فيعزبه صديقه كريسالد بفكرة مؤداها أن امتناع الرجل عن الزواج هو الطريقة الأكيدة الوحيدة التي تقيه من أن يطلع له قرنان في رأسه .

وأبهجت التمثيلية جمهورها ، فثلاث إحدى وثلاثين مرة في الأسابيع العشرة الأولى ، وكان في الملك من الشباب ما سمح له بالاستمتاع بخلاعتها ، ولكن عناصر البلاط الأشد محافظة انتقدوا اللهاة لما فيها من جفافه للمفضيلة ، وكرهت السيدات فكرة الولادة من الأذن ، وندد الأمير كوتى بمنظر الفصل الثاني الذي سقنا حواراً من قبل بين آرنولف وأنيس زاحماً أنه أفضح ما عرض على خشبة المسرح . ولعن بوسويه التمثيلية برمتها ، ودعا بعض القضاة إلى حظرها باعتبارها خطراً على الأخلاق والدين ، وسخرت الفرقة المنافسة من ابتذال الحوار وتناقضات رسم الأشخاص وشططحات الحبكة المتعجلة . وظلت التمثيلية حيناً « حديث كل بيت في باريس (١٩) » .

وكان في مولير من حب النضال مالا يدعه يترك هذا النقد كله دون تعليق منه . ففي تمثيلية ذات فصل واحد مثلت في الباليه رويال في أول يونيو ١٦٦٣ ، واسمها « نقد مدرسة الزوجات » عرض لنا لقاء بين نقاده وتركهم يعربون بعنف عن اعتراضاتهم ، ولم يسكد برد عليها إلا بأن يدع النقد يضعف ذاته بمبالغته ، وأن يجريه على ألسنة شخصيات مثيرة للسخرية . وواصل الأوتيل دبورجون « الحرب الكوميديّة » بإخراجه هزلية قصيرة سماها « الناقد المعارض » ، وهجا مولير والفرقة الملكية في « تمثيلية قرساي المرتجلة » ( ١٧ أكتوبر ١٦٦٣ ) . وساند الملك مولير في وفاء ، ودعاه إلى العشاء ( ٢٠ ) ، ومنحه الآن معاشا سنويا قدره ألف جنيه ، لا بوصفه « ممثلا كوميديا » بل « شاعرا فذا » ( ٢١ ) . كذلك نصر الزمن مولير ، فمدرسة الزوجات تعتبر اليوم أول ملهاة عظيمة في المسرح الفرنسي .

## ٤ — غرام طرطوف

ولكن مولير دفع ثمن حظوته لدى الملك . فلقد أحب لويس ظرفه وشجاعته ، فجعله من كبار للنظمين للملاهى في فرساي وسان — جرمان . وقد ملا أحد هذه المهرجانات المسمى « مباحج الجزيرة المسحورة » أسبوعا ( ٧ — ١٣ مايو ١٦٦٤ ) بألعاب السيف والولائم والموسيقى والباليه والرقص والدراما — وكلها أقيم في حديقة فرساي وقصره تحت أضواء الشاعل والشمعدانات التي تحمل أربعة آلاف شمعة . وكوفيء مولير على جهوده في هذا المهرجان بستة آلاف جنيه . وقد أسف بعض الأدباء لإسراف الملك في استغلال عبقرية مولير لكي يوفر هذا اللهو الخفيف في البلاط ، وتصوروا تلك الروائع التي كان من الجائز أن يكتمل نضجها لو أن الشاعر الكامن في الكوميدي أتيح له مزيد من الوقت للتفكير والكتابة . غير أنه كان واقعا تحت ضغط من فرقته أيضا ، وما كانت شواغله ومسئوليته

١٢ — قمة الحضارة

مديرا للفرقة وممثلا بها لتسمح له على أية حال بالاعتكاف في أى برج حاجى .  
وما أكثر المؤلفين الذين يكتبون تحت ضغط ملع خيرا مما يكتبون في  
الفراغ ، فالفراغ يرخى الدهن ، والإلحاح يشحذه . ولقد أخرج مولير  
أعظم تمثيلياته أول مرة في ١٢ مايو ١٦٦٤ ، في قصة « مباحج الجزيرة  
المسحورة » ، وكانت جزءا من المهرجان .

في هذا العرض الأول لم تكن « طرطوف » بالتمثيلية المناسبة تماما  
للمهرجان ، لأنها فضحت في غير رحمة ذلك النفاق الذى يتخفى خلف رداء من  
التقوى والفضيلة . وكانت جماعة دينية من الإخوة العلمانيين تدعى « جمعية  
السر المقدس » ، وعرفت فيما بعد بـ « عصبة الورعين » قد قطعت العمود على  
أعضائها بأن يعملوا على حظر التمثيلية . أما الملك الذى كانت علاقته  
الغرامية بلافالير قد أثارت كثيرا من نقده هؤلاء الورعين ، فقد كان مزاجه  
يدعوه للاتفاق مع مولير ، ولكنه بعد أن شاهد الملهاة في عرضها الخاص  
بفرساي أوقف الأذن بعرضها على نظارة باريس في البالية — رويال .  
وطيب خاطر مولير بدعوته ليقرا « طرطوف » في فونتنبلو على نخبة  
مختارة تضم ممثلا للبابا لم يذكر التاريخ أنه اعترض عليها (٢١ يوليو ١٦٦٤) .  
في ذلك الشهر مثلت المسرحية في بيت دوق أورليان ودوقتها (هنرييتا آن) ،  
في حضرة الملكة ، والملكة الأم ، والملك . وبينما كان يجرى التمهيد  
لعرضها على الجماهير أذاع كاهن سان — برتلى ، بيير روليه ، في أغسطس  
ثناء على الملك لحظره التمثيلية ، واغتم هذه الفرصة ليرمى مولير بأنه  
« رجل ، بل شيطان متجسد في ثوب رجل ، وأشهر مخلوق فاسق منحل  
عاش إلى الآن » . ثم قال الأب روليه إن جزاء مولير على تأليف طرطوف  
« أن يحرق على الخازوق ليدوق من الآن نار الجحيم (٢٢) » . ووبخ الملك  
روليه ، ولكنه ظل يحبس الإذن بعرض طرطوف علنا . ولكن يظهر  
حقيقة موقفه رفع معاش مولير السنوى إلى ستة آلاف جنيه ، وتلقى

عن « المسيو » حماية فرقة موليير ، فأصبحت منذ الآن « فرقة الملك » .  
 وظل الجدل مضطرباً تحت الرماد طامين . ثم قرأ موليير على الملك نسخة  
 منقحة من التمثيلية ، أضاف إليها سطورا تذكر أن الهجاء ليس موجهاً ضد  
 الإيمان الصادق بل ضد الرياء . وأيدت مدام هنرييتا التماس المؤلف الإذن  
 بعرض المسرحية . ووافق لويس موافقة شفوية ، وبينما كان منطلقاً إلى الحرب  
 في فلاندر عرضت طرطوف لأول مرة على مسرح الباليه — رويال في ٥ أغسطس  
 ١٦٦٧ بعد مرور ثلاث سنين على أول عرض لها في البلاط . وفي الغد أمر  
 رئيس باريس ، وكان ينتمي لجماعة السر المقدس ، بخلق المسرح وتمزيق كل  
 لافتاته . وفي ١١ أغسطس حظر رئيس أساقفة باريس قراءة الملهاة أو سماعها  
 أو تمثيلها سرا أو علانية ، وإلا كان الحرم جزاء المخالف . وأعلن موليير  
 أنه سيعتزل للمسرح إذا استمر انتصار « الطراطيف » هذا . أما الملك الذي  
 عاد إلى باريس فقد أمر الكاتب للمسرحى الغاضب بأن يتذرع بالصبر ، ففعل ،  
 وأُثيب في النهاية برفع الحظر الملكي . وفي ٥ فبراير ١٦٦٩ بدأت التمثيلية  
 فترة عرض ناجحة اتصلت ثمانية وعشرين مرة . وبلغ من كثرة الراغبين في  
 دخول المسرح وتهافتهم عليه في أول حفلة علنية أن الكثيرين كادوا  
 يختنقون . لقد كانت « أشهر مسرحية » في حياة موليير المسرحية . وقد  
 حظيت دون جميع الدرامات الكلاسيكية الفرنسية بأكبر عدد من العروض  
 — بلغت ٢٦٥٧ ( حتى سنة ١٩٦٠ ) في مسرح الكوميدي —  
 فرانسيز وحده .

ولكن إلى أي حد تملل محتويات التمثيلية تأجيلها الطويل ، وشعبيتها  
 المتصلة ؟ أنها تملل التأجيل بهجومها الصريح على التظاهر بالتقوى ، وتعلل  
 الشعبية بقوة هجائها وبراعته . وكل ما في ذلك الهجاء مبالغ فيه بالطبع .  
 فقلما يكون الرياء مستهتراً كاملاً كما كان في طرطوف ، وقلما يكون القباء  
 منفرداً كما كان في أورجون ، وليس هناك خادمة نجحت في وقاحتها كما نجحت

دورين . وحل عقدة التمثيلية لا يصدق ، كما هي الحال عند مولير دائما تقريبا ، ولكن هذا لم يقلقه ، فبعد أن يقدم صورته واتهامه للنفاق ، تكفى أى حيلة مسرحية — كتدخل الإله أو الملك — لحل العقدة بإقتصار الفضيلة وعقاب الرذيلة . وأغلب الظن أن الهجاء قصد به جماعة السر المقدس الذين أخذ أعضاءه على طاقهم أن يوجهوا ضماير الناس ، حتى ولو كانوا علمانيين ، ويبلغوا الخطايا السرية للسلطات العامة ويتدخلوا في شئون العائلات لزيادة الولاء والإخلاص للدين . وقد أشارت التمثيلية مرتين إلى « عصابة » ( في السطرين ٣٩٧ و ١٧٠٥ ) ، وواضح أن هذا تلميح إلى عصابة الورعين . وعقب العرض الأول للتمثيلية حلت جماعة السر المقدس .

أما أوردجون ، البورجوازي الغني ، فيرى طرطوف لأول مرة في الكنيسة فينبره لمراه .

« آه لو رأيته . . . إذن لأحبته كما أحبه . . . كان يأتي كل يوم إلى الكنيسة هادئ الهيئة ثم يركع بجوارى . وقد لفت أنظار المصلين جميعا بحرارة الابتهالات التي رفعها إلى السماء . كان يتأوه ويئن أينما شديدا ، وفي كل لحظة يقبل الأرض في تذل . فإذا شرعت في الخروج تقدمني لي قدم إلى الماء المقدس عند الباب . وإذا أدركت . . . رقة حاله . . . كنت أهديه الهدايا ، ولكنه كان على الدوام يعرض أن يرد إلى بعضها . وأخيرا حفزني السماء على أن آخذه إلى بيتي ، وبدأ لي منذ تلك اللحظة أن كل شيء يزكو . وأنا أراه يلوم دون تفرقة بين الناس ، وألحظ أنه ، حتى فيما يتصل بزوجتي ، شديد الحرص على عرضي . فهو ينبثنى ممن يرمقها بنظرات الهيام (٢٣) » .

ولكن طرطوف لا يروع زوجة أوردجون وأبناءه كما راعه . ذلك أن شهيته الطيبة ، وولمه بأطياب الطعام ، وكرشه المكور ، ووجهه المتورد



كل أولئك يذهب في نظرهم بأثر عظاته . ويرجو كليات زوج أخته  
أورجون أن يميز بين الرياء والدين :

« كما أنني لا أعرف في الحياة خلقاً أعظم ولا أجل من التقوى الصادقة ،  
ولا شيئاً أنبل ولا أجل من حرارة الورع المخلص ، فإني لا أرى شيئاً أشد  
نكراً من طلاء الغيرة الزائفة ، ومن هؤلاء الدجالين ، هؤلاء الاتقياء  
مظهراً . . . الذين يتجرون بالتقوى ، ويريدون أن يشتروا أسباب  
التكريم وحسن الأحدوة برفع العيون إلى السماء في رياء ، وبانتشاءات  
القداسة المفتعلة » .

ولكن أورجون يمضى في تصديق مزاعم طرطوف ، ويخضع لأرشاده ،  
ويطلب له المعونة من الله إذا تجشأ ، ويقترح تزويجه من ابنته ماريان التي  
تؤثر عليه فالير في عنف أما بطللة التمثيلية الحقيقية فهي دورين ، خادمة  
ماريان ، التي يبدو — كما في كل الملاحى الكلاسيكية — أنها تثبت أن  
العناية الإلهية وزعت العبقرية توزيعاً يتناسب تناسباً عكسياً مع المال .  
وما أبهج استقبالها لطرطوف عند دخوله المسرح أول مرة :

طرطوف : ( يكلم خدمه بصوت عال حين يرى دورين ) . يا لورنس ،  
اقفل على وشاحى الوبرى وسوطى ، والتمس من السماء أن تنيرك بالنعمة  
دائماً . وإذا جاء أحد لزيارتى فقل إنى ذهبت إلى السجون لأوزع  
صدقاتى .

دورين : ( جانباً ) أى تصنع وأى لؤم !

طرطوف : ماذا تريدين ؟

دورين : أن أقول لك —

طرطوف : ( وهو يسحب منديل من جيبه ) أوه . باللاهول . أرجوك  
أن تأخذى هذا المنديل منى قبل أن تتسكلى .

دورين : ولم ؟

طرطوف : غطى ذلك الصدر الذى لا أطيق رؤيته . مثل هذه الأشياء تؤذى النفس وتغرى بالآفكار الآثمة .

دورين : إذن فأنت تذوب ذوبانا أمام التجربة ، ومنظر الجسد يؤثر فى حواسك تأثيراً شديداً ؟ الحق أننى لا أعرف أى حرارة تلهبك ، ولكنى عن نفسى لست عرضة مثلك لهذا التلهف على الجسد . فى وسعى الآن أن أراك طارياً تماماً من رأسك إلى قدمك ، دون أن يغرينى جلدك هذا كله أى أغراء (٢٤) .

والمنظر التالى لب الملهاة . ترى فيه طرطوف يطارح زوجة أورجون — ايلهير — الغرام ، ويستعمل لغة التقى فى توسلاته . وينبأ أورجون بخيائته ، ولكنه يأبى أن يصدق ، واطهاراً لثقتة بطرطوف ينزل له عن أملاكه كلها . ويستسلم طرطوف لقبولها قائلاً : لتكن مشيئة السماء فى كل شئ (٢٥) ، وتحمل ايلهير الموقف ، إذ تنجى زوجها تحت مائدة ، وترسل فى طلب طرطوف ، وتلوح له ببارقة تشجيع ، ثم توقعه فى محاولات للاستطلاع الغرامى . وتظهر بالرضى ، ولكنها تزعم أنها — تحس وخزات الضمير ، فيتناول طرطوف هذا الزعم بفتوى الخبير ، وواضح أن مولير قرأ من قبل رسائل بسكال الريفية واستطابها :

« طرطوف : إذا لم يكن غير السماء عقبة فى طريق رغباتى ، فما أيسر أن أزيح هذه العقبة — صحيح أن السماء تنهى عن لذات معينة ، ولكن هناك طرق لتسوية تلك الأمور . فشد أوتار الضمير وفق مقتضيات الحال ، وتصحيح فساد الفعل بطهارة النية — ذلك علم أى علم (٢٦) » .

ويظهر أورجون من مخمئه ، ويأمر طرطوف غاضباً بأن يخرج من بيته ، ولكن طرطوف يبين له أن البيت أصبح ملكاً له بحكم العقد الذى وقعه أورجون مؤخراً . ويقطع مولير هذه المقدمة ، دون كبير براعة ، بأن يجعل

عمال الملك يكتشفون في اللحظة المناسبة أن طرطوف مجرم تبحث عنه العدالة منذ زمن طويل . ويستعيد أرجون أملاكه ، ويظفر ظاير بمريان ، وتختتم التمثيلية بنشيد شكر شجى يشيد بعذل الملك وأحسانه .

## ٥ - الملحد العاشق

ولكن إحسان الملك لا بد قد أرهقته تمثيلية مولير الجريئة التالية . ففي ذروة الحرب المحتدمة حول « طرطوف » ، وبينما كانت جماعة الوريثين لا يزالون منتصرين في أمر حظر التمثيلية ، عرض مولير في الباليه — رويال ( ١٥ فبراير ١٦٦٥ ) مسرحية « وليمة التمثال الحجري » التي قص فيها بنثر يظفر مرحا قصة دون جوان القديمة المكرورة ، وجعل فيها ذلك الزير المستهتر ملحداً مغروراً . وقد أخذ شسكها الظاهر عن تيرسودي مولينا وغيره ، ولكنه ملأها بدراسة رائعة لرجل يلتذ الشر لذاته وتحمدياً لله . والمسرحية صسدي مدهش لذلك الجدل الكبير الذي تورط فيه الدين مع الفلسفة .

ودون جوان تينوريو مركز يسلم بالتزاماته قبل طبقة ، ولكنه فيما عدا ذلك يريد أن يستمتع بما يشتهي من لذات . ويخصى تابعه سجاناريل عدد النساء اللاتي أغواهن مولاة ثم هجرهن فيجدهن ١٠٠٣ ر٠ يقول جوان « إن الوفاء صفة لا تصلح إلا للحمقى . . فليس في وسعي أن أحرم قلبي من أي مخلوقة جميلة أراها ( ٢٢ ) » ومثل هذا الخلق يتوق إلى لاهوت يلائمه ، ومن ثم يصبح جوان ملحداً ابتغاء راحته . ويحاول خادمه أن يناقش الأمر معه :

سجاناريل : أممكن أنك لا تؤمن بالجنة ؟

جوان : انس الموضوع .

سجاناريل : أي أنك لا تؤمن . وما رأيك في جهنم ؟

جوان : إه !

سجناناريل : كلاً إيمانك بالجنة . وما رأيك في الشيطان من فضلك ؟

جوان : نعم ، نعم .

سجناناريل : قليلاً جداً كذلك . ألا تؤمن بحياة أخرى على الإطلاق ؟

جوان : ها ، ها ، ها .

سجناناريل : هذا رجل سيشق على هدايته . ولكن قل لي ، لا بد أنك

تؤمن بـ « الراهب الفظ » .

جوان : تباً للأحمق .

سجناناريل : أما هذا فلا أطيقه ، لأن ليس هناك كائن وجوده مؤكد

كـهذا الراهب الفظ ، وقاتلني الله أن لم يكن وجوده حقيقة . ولكن المرء يجب أن يؤمن بشيء ، فبأى شيء تؤمن ؟ . . .

جوان : أؤمن بأن اثنين واثنين يساويان أربعة ، وأربعة وأربعة

يساويان ثمانية .

سجناناريل : يا لها من عقيدة جميلة ومواد إيمان رائعة ! إذن فدينك —

على قدر ما أفهمه — هو الحساب ؟ أما أنا يا مولاي . . . فأفهم جيداً أن

هذا العالم ليس شيئاً كالقطر نَمَا في ليلة واحدة . أريد أن أسألك منذ الذي

صنع هذه الأشجار والصخور والأرض والسماء من فوقنا ؟ أهذا كله بنى

نفسه بنفسه ؟ أنظر إلى نفسك مثلاً ، فما أنتذا موجود ، أصنعت نفسك ،

والم يكن لزاماً أن يغشى أبوك أمك ليصنعك ؟ أتستطيع أن ترى كل

المخترعات التي تتألف منها الآلة البشرية دون أن تعجب كيف يشغل الجزء

منها جزءاً آخر ؟ ومهما قلت ، فإن هناك شيئاً معجزاً في الإنسان لن يستطيع

كل المتنطعين في العلم أن يفسروه . أليس عجيباً أن تراني هنا، وأن في رأسي

---

(●) شبح مزعوم تخوف به المرييات والأمهات الأطفال .

شيئا يفكر في مائة شيء مختلف في لحظة ويأمر بدني بأن يصنع ما أريد ؟  
أريد أن أصفق بيدي ، وأرفع ذراعي ، وأنظر بعيني إلى السماء ، وأخفض  
رأسي ، وأحرك قدمي ، وأمشي يمينا ، ويساراً ، وأماماً ، وخلفاً ، وأدور  
( يقع على الأرض وهو يدور ) .

جوان : هذا حسن ! أن لحجتك أنفماً مكسوراً ( ٢٨ ) .

وفي المشهد التالي تتخذ الخصومة بين جوان والدين صورة أخرى . فهو  
يلتقي بشعاذ يزعم له أنه يصلي كل يوم من أجل المحسنين إليه ، فيقول جوان :  
« أن رجلاً يصلي كل يوم لا بد أن يكون غنياً جداً » . ويجيب الشعاذ إن  
الأمر على العكس من ذلك « ففي أكثر الأحيان لا أجد حتى كسرة خبز »  
ويعرض عليه جوان جنيتها ذهبياً « شريطة أن يجدف ، ولكن الشعاذ  
يرفض « إنني أفضل الموت جوعاً » ويذهل جوان قليلاً لهذه الصلاة فيعطيه  
قطعة النقود وهو يقول « حبا في الإنسانية ( ٢٩ ) » . ويعرف كل رواد  
الأوبرات نهاية القصة ، إذ يصادف جوان تمثالاً للقائد الذي أغوى ابنته  
وأودى بحياته . فيدعوه التمثال إلى العشاء ، فيحضر ، ويناوله يده ، فيقوده  
إلى الجحيم . ويظهر الجهاز الشيطاني المهود في المسرح الوسيط ، « فينقض  
الرعد والبرق بضوضاء عظيمة على دون جوان ، وتغمر الأرض فها وتبتلعها ،  
وتندلع نار هائلة من المكان الذي سقط فيه » .

وقد صدم الجمهور في أول ليلة لما رأى من فضيح وليير لكفر جوان .  
ولعل هذا الجمهور لم يكن يرى بأساً بأن يفضح سفالة جوان وافتقاره إلى  
إلى اللاهوت ، وبأنه أمارط اللثام عنه وحشا لا ضمير له ولا حنو ، ينشر  
الخداع والحزن أينما ذهب ، ولعله لاحظ أن المؤلف عرض ضحايا الوغد  
بشكل ما فيه من عطف ، ولكنه لاحظ أن الرد على الكفر جاء على لسان  
أحمق يؤمن بالعقاريت إيماناً رسيخاً من إيمانه بالله ، ولم يخفف من وقع هذا  
الكفر القاء جوان في الجحيم أخيراً ، لأن الجمهور رآه يهبط إلى الجحيم

دون كلمة ندم أو خوف . وبعد العرض الأول خفف مولير من حدة أكثر الفقرات ايذاء ، ولكن هذا لم يهدىء نائرة الرأي العام . ففي ١٨ أبريل ١٦٦٥ نشر سيد روشمون ، المحامى فى البرلمان ، « ملاحظات حول مسرحية لمولير » فيها وليمة التمثال الجبرى بأنها « شيطانية حقاً . . . لم يظهر قط أفسق منها حتى فى العهود الوثنية » ثم أهاب بالملك أن يحظر التمثيلية :

« فبينما يحرص هذا الملك النبيل الحرس كله على صون الدين ، نرى مولير يعمل على هدمه . . . فليس فى وسع انسان مهما قل علمه بتعاليم الدين أن يؤكد بعد رؤية التمثيلية أن مولير أهل للمشاركة فى تناول الاسرار للقدسة مادام سادرا فى عرضها ، أو يستحق أن تقبل توبته دون عقاب على (٣٠) » .

ولكن لويس واصل رضاه عن مولير . ومثلت « وليمة التمثال الجبرى » ثلاثة أيام كل أسبوع من ١٥ فبراير إلى أحد السعف . ثم سحبت ، ولم تعد إلى خشبة المسرح إلا بعد موت مؤلفها بأربع سنوات ، ولم تعد إلا على صورة اقتباس شعرى بقلم توما كورنبي الذى حذف المشهد الغاضح الذى نقلناه . أما النسخة الأصلية فقد اختفت ، ثم اكتشفت ثانية فى ١٨١٣ طبعة مسروقة نشرت بأمستردام فى ١٦٨٠ . وظلت نسخة كورنبي تحتكر للمسرح حتى ١٨٤١ ، وهى لا تزال تحتل مكان الأصل فى بعض طبعات أعمال مولير (٣١) .

## ٦ - مولير فى أوجه

وكأن مولير لم يكفه ما أثار عليه من خصوم ، فراح يهاجم مهنة الطب . وكان قد صور دون جوان بأنه « فاجر فى الطب » ورأى أن الطب « من أكبر كبائر الإنسانية (٣٢) » وكان قد خير بنفسه ما فى أطباء القرن السابع عشر من قصور وغرور . وخيل إليه أن الأطباء قتلوا ابنه حين وصفوا له حجر السكحل (الأنثيمون) ، ورآهم يقفون موقف العاجز من قدره

الذى يسير بخطى حثيثة (٣٣) . كذلك كان الملك ساخطا على ما يعطونه من مسهلات وما يفقدون من دمه كل أسبوع . ويقول مولير إن لويس هو الذى أغراه بوضع الأطباء على السفود . وعليه فقد كتب فى خمسة أيام تمثيلية « الحب خير طبيب » مستعيرا من الملاحى القديمة فى هذا الموضوع القديم . وقد أخرجت بفرساي فى ١٥ سبتمبر ١٦٦٥ فى حضرة الملك الذى « ضحك لها من قلبه » ولقيت الترحيب الحار حين مثلت بعد أسبوع فى الباليه — رويال . وهى تحكى قصة مريضة يدعى لفحصها أربعة أطباء . فيختلون للمداولة ، ولسكنهم لا يناقشون إلا شئونهم الخاصة . فإذا أصر والد المريضة على قرار وعلاج ، وصف أحدهم لها حقنة شرجية ، وأقسم الآخر أن الحقنة ستقتلها لا محالة . ثم تتعافى المريضة بغير دواء ، الأمر الذى يثير سخط الأطباء ، فيصيح الدكتور بايز « خير لها أن تموت طبقا للقواعد من أن تشفى مخالفة لها (٣٤) » .

وفى ٦ أغسطس ١٦٦٦ عرض مولير مسرحية قصيرة أخرى هى « الطبيب برغم أنه » مقدمة مسرحية لمسرحيته « مبعض البشر » قصد بها أن يخفف من كآبة هذه التمثيلية التى تتغنى بالتشاؤم . وهى لا تجزى جهد قارئها اليوم لأن مولير لم يقصد أن تؤخذ هجائياته للطب مأخذ الجدل . ويلاحظ أنه غال على علاقات طيبة جداً مع طبيبه الخاص ، المسيو دمو فلان ، وأنه توسط لدى الملك ليجد وظيفة شرفية لابن هذا الطبيب (١٦٦٩) وقد شرح مرة كيف كان هو ومولان مذسجين تمام الانسجام فقال « إننا نناقش الأمر ، ويصف هو العقاقير ، وأنا أغفل تعاطيها ، ثم أشفى (٣٥) » .

وبينما كان مولير لا يزال فى وطيس المعركة حول طرطوف ، قدم فى ٤ يونيو ١٦٦٦ هجائية أخرى لم يقصد بها أن يسر الجمهور ولا الحاشية . وإذا كانت الحركة روح المسرحية ، فإن هذه المسرحية « مبعض البشر » أقرب إلى الحوار الفلسفى منها إلى التمثيلية . وتسكنى جملة واحدة لتلخيص القصة ، فالسيست ، الذى يطالب نفسه وغيره بالفضيلة الصارمة والصراحة

الكاملة يحب سيليمين التي تؤثره ، ولكن بطيب لها أن ترى العدد العديد من الخطاب وتسمع الكثير من المديح . ويجد مولير في هذا مجرد ذريعة لدراسة الفضيلة . فهل من واجبنا أن نقول الصدق دائما ، أم نحمل المجاملة محل الصدق لكي نتقدم في هذه الدنيا ؟ أما السيست فيرفض أنصاف الحلول التي يتراضى بها المجتمع مع الصدق ، ويندد برياء البلاط ، حيث يتظاهر كل إنسان بأسمى المواقف و « أحر التحيات » في حين يكيد كل لغيره سرا لتحقيقا لمصلحته الشخصية ، ويغتابهم جميعا ، ويستعين بالتملق على نيل الخطوة أو السلطة . وألسيست يحترق هذا كله ، ويريد أن يكون صادقا ولو أفضى به الصدق إلى الانتحار . ويعصر شويعر من رجال البلاط يدعى أوروبات على قراءة أشعاره على ألسيست ، ويطلب إليه أن ينقدها نقداً مخلصاً ، وينال ما طلب ، فيهدد ويتوعد بالانتقام . وتغازل سيليمين الرجال ، فيوبخها ألسيست ، فتصفه بأنه إنسان متزمت مغرور ، ونسكاذنسمع مولير يوبخ زوجته المرحلة ، والواقع انه هو الذي لعب دور ألسيست ، وهي التي مثلت سيليمين :

ألسيست : سيدتي ، أسمعيني لي أن أكون صريحا معك ؟ إنني لشديد الاستياء من تصرفاتك . أنا لا أشاجر معك ، ولكن مسلكك ياسيدتي يفتح لأول وافد أرحب سبيل إلى قلبك . إن لك عددا هائلا من العشاق الذين نراهم يحاصرونك ، ونفسى لا تستطيع الرضى بهذا .

سيليمين : أتلوهني لأننى أجدب العشاق ؟ أهو دني أن الناس يجدوني جديرة بالحب ؟ وإذا بذلوا المحاولات اللطيفة لرؤيتي آفأخذ عصا وأطردهم خارجا ؟ .

ألسيست : لا ، ليست العصا هي ما يجب أن تستعمليه ، بل روحا أقل استسلاما وذوبانا أمام عهودهم . أعرف أن جمالك يتبعك في كل مكان ولكن ترهيبك يزيد من تجتذبه عيناك تملقا بك ، وتلطفك مع جميع من يستسلمون لك يكمل في قلوبهم فعل مقاتلك (٣٦) .



والنقيض الفلسفي لأليست هو صديقه فيلانت ، الذي ينصحه بأن يلائم في لطف بين نفسه وبين ما في البشر من نقائص فطرية وأن يعترف باللطف ميسراً للحياة . وسحر للمسرحية في قصة مولير عواطفه بين السيست وفيلانت . فالسيست هو مولير الزوج الذي يخشى أن يكون ديوثا ، ومنجد حجرة الملك الذي عليه — لكي يعد سرير الملك — أن يتصدى لمائة نبيل يفاخرون بنسبهم مفاخرته بعقريته . وفيلانت هو مولير الفيلسوف ، الذي يأمر نفسه بأن يكون معقولا متسامحا في الحكم على البشر . يقول فيلانت — مولير لمولير — أليست في فقرة لنا أن نعتبرها عودجا من مولير الشاعر :

« رباه : فلنقل من ضيقنا بعبادات العصر ، ولتسامح قليلا مع الطبيعة البشرية ، ولا نفحصها بصرامة شديدة ، بل ننظر إلى عيوبها بشيء من التساهل . فالحياة في هذه الدنيا تتطلب فضيلة مرنة طيعة ، وقد يخطئ المرء بغلوه في الحكمة ، فالمقل الكامل يتجنب كل تطرف ، ويريدنا أن نكون حكماء في اعتدال . إن التزمت الشديد في فضائل القدماء يصدّم كثيراً عصرنا والعرف السائد بيننا : فهو ينشد في البشر كمالا مفرطاً ، علينا أن نأين للزمن دون تصلب ، والحماسة كل الحمقة في أن نورط أنفسنا في تقويم أخطاء العالم . إلى الحظ كما تلاحظ كل يوم عشرات الأشياء التي كان يمكن أن تكون خيراً مما هي لو أنها سلكت طريقاً غير طريقها ، ولكن مهما تكشف لي في كل خطوة ، فإن الناس لا يروني ساخطاً مثلك . أنتى أتعجب الناس على علائهم في هدوء كثير ، وأروض نفسي على التجاوز مما يفعلون ، وأعتقد أن في برودة طبعي من الفلسفة قدر ما في مرارة طبعك ، سواء كنت في البلاط أو في المدينة » (٢٧).

وفي رأى نابليون أن حجة فيلانت هي الأرجح ، أما جان جاك روسو فرأيه أن فيلانت كذاب ، وهو يحبذ فضيلة السيست الصارمة (٣٨) . وفي النهاية يهجر السيست العالم كما هجره جان جاك ويمتسكف في عزلة معقة .

ولم تحقق الفخيلية من النجاح إلا قدراً معتدلاً . فالحاشية لم تسخ هجو  
تظرفها ، وجمهور الصالة لم يتحمسوا لرجل كألسيست يحقر كل شيء  
صراحة إلا نفسه . ولكن النقاد — الذين لأم من جمهور الصالة ولا من  
الحاشية — صفقوا للمسرحية استحساناً ، وقالوا إنها محاولة جريئة لتأليف  
مسرحية الأفكار ، أما النقاد المحدثون فيرونها أكمل عمل كتبه مولير .  
وبعضى الزمن ، وبعد أن مات جيلها الذى شهرت به ، لقيت قبولا عاماً ،  
ففيما بين عام ١٦٨٠ و ١٩٥٤ مثلت ١٥٧١ مرة في السكوميدي فرانسير —  
ولم يفتقها في حفلات تمثيلها سوى طرطوف والبخيل .

ولما عجز مولير عن المعيش في سلام مع زوجة شابة بدا لها الاقتصار  
على زوج واحد ، والجمال ، أمرين متناقضين ، هجرها ( أغسطس ١٦٦٧ )  
وذهب ليعيش مع صديقه شابلان في أونوى بالطرف الغربى لباريس . وقد  
استخف به شابلان في رفق لأنه يأخذ الحب مأخذ الجد إلى هذا الحد ،  
ولكن مولير كان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . وقد اعترف بهذا ( إذا  
صدقنا شاعراً يروى عن آخر ) :

« لقد صممت على أن أعيش معها كأنها ليست زوجتى ، ولكن  
لو علمت ما أكابد لأشفقت على . فلقد بلغ بي الغرام بها مبلغاً يجعله  
يتغلغل بمطف في كل اهتماماتها . وحين أتأمل استحالة تغلبى على ما أحس  
به نحوها ، أقول لنفسى إنها ربما تكابد نفس المشقة في التغلب على ميلها  
لأن تكون لعوبا ، وعندها أجد نفسى أميل للشفقة عليها منى للومها .  
ستقول لى ولا ريب إن الرجل لابد أن يكون شاعراً لكي يحس بهذا ،  
ولكنى شخصياً أحس أنه ليس هناك سوى نوع واحد من الحب ، وأن  
أولئك الذين لم يحسوا بهذه الخلجات لم يحبوا حباً صادقاً قط . فكل الأشياء  
في الدنيا مرتبطة بها في قلبى . . . . . وحين أراها يجر دنى من كل قدرة على  
التفكير ضرب من الانفعال ، بل نشوات تحس ولا تروى ، فلا تعود لى عينان

تبصران سوءاتها ، ولا أرى غير كل جميل محبب فيها . أليس هذا منتهى الجنون (٢٩) ؟

وقد حاول أن يسلوها باغراق نفسه في عمله . ففي ١٦٦٧ شغل نفسه بتنظيم حفلات الترفيه للملك في سان — جرمان . وأحيت ملهاته « أمفيتريون » ( ١٣ يناير ١٦٦٨ ) من جديد غراميات جوبيتر الذي يغوى الكين زوجة أمفيتريون . وحين قال لها جوبيتر « إن مقاسمة المرأة جوبيتر فراشه ليس فيها أى غض من شرفها » فسر كثير من السامعين العبارة بأنها تصفح عن غرام الملك بدم دمونتسبان ، فإذا كان هذا التفسير صحيحاً فهو تعلق غاية في السخاء ، لأن موليير لم يكن مزاجه آنذاك يسمح له بالتعاطف مع من يغوون الزوجات . لقد كان ككل إنسان آخر يداهن الملك بعبارات الزلى كما فعل في خاتمة طرطوف . وفي ملهاة أخرى مثلت أمام البلاط في ١٥ يوليو ، واسمها « جورج داندان ، أو الزوج المبلبل » تطالعنا مرة أخرى قصة الزوج المبلبل ، الذى يتهم زوجته بالزنا ولكنه لا يستطيع إثبات التهمة فياً كل قلبه بالشك والغيرة ؛ لقد كان موليير يسكب الملح في جراحه .

وكان عاماً حافلاً بالعمل ، فبعد بضعة أشهر لا أكثر ( ٩ سبتمبر ) أخرج واحدة من أشهر تمثيلياته وهى « البخيل » ، وقد اتخذت موضوعها وجزءاً من حبسكتها من مسرحية بلوتوس « أولولاريا » ولكن بلوتوس كان قد نقل مسرحيته عن « للملهة الجديدة » عند اليونان . وأغلب الظن أن البخيل وهجوه قديمان قدم للمال ، ولكن أحداً لم يتناول هذا الموضوع بحيوية وقوة أكثر من موليير . فتدري أرباجون يتعلق بماله تعلقاً يحمله على ترك خيله تتضور جوعاً وتسير بغير حوافر ، وهو يسكره العطاء كراهية تجعله لا « يعطيك » نهراً سعيداً ( أى يقرئك التحية ) بل « يقرضك نهراً سعيداً » . وحين يرى شمعتين موقدتين استعداداً للعشاء يظن أحدهما .

وهو يرفض أن يمنح ابنته مهرآ ، ويثق أن ابنه وابنته سيموتان قبله (٤٠).  
واللهجوهنا ، كما هو في مولير عادة ، يقرب من السكاريكاتور . ولم ينسخ  
الجمهور الصورة ، وبعد أن مثلت المسرحية ثمانى مرات سحبت ، ولكن ثناء  
بوالو عليها أعان على نفخ الحياة فيها ، فعرضت سبعة وأربعين مرة في سنواتها  
الأربع الأولى ، ولا يفوقها في عدد عروضها غير طرطوف .

أما مسرحية « البورجوازي مدعى النبل » فكانت أقل جودة وأكثر  
توفيقاً . وقصتها أنه في ديسمبر ١٦٦٩ قدم إلى فرنسا سفير تركي . واتخذ  
البلاط كل أبهته ليقع من نفس السفير ، ولكن السفير استجاب في جهود  
وصلف . وبعد رحيله دعا لويس مولير ولولي إلى تأليف كوميديا تجمع بين  
الباليه والمهابة وتحاكي الأتراك محاكاة ساخرة . ووسع مولير الخطه  
جعلها هجائية تدمر العدد المتعاضم من فرنسيي الطبقة الوسطى الذين  
يجاهدون للباس والحديث كما يلبس ويتحدث الأرستقراطيون بالمولد . ومثلت  
المهابة أول مرة أمام الملك والبلاط بشامبور في ١٤ أكتوبر ١٦٧٠ . ولما  
عرضت بالباليه — رويال في نوفمبر ، عوضت الخسارة المالية التي الحقها بالفرقة  
عروض « البخيل » . ومثل مولير دور مسيو جوردان ، ومثل لولي دور  
المفتي . ورغبة في خلع النبالة على مظهره ، يستأجر مسيو جوردان معلما  
للموسيقى ، وآخر للرقص ، وثالثا للمبارزة . ورابعا للفلسفة . ويتعارك  
هؤلاء ويتضاربون على أهمية فنونهم — فأياها أهم ، تحقيق التناغم ، أم الخطو  
الموقع ، أم القدرة على القتل المحكم ، أم الحديث بالفرنسية الرشيدة ؟ ونلاحظ  
في مزاعم معلم الموسيقى غمزة خبيثة قصد بها لولي المتفاخر المتساق . ويعرف  
نصف العالم ذلك المشهد الذي يتعلم فيه جوردان أن اللغة كلها إما نثر  
وإما شعر :

مسيو جوردان : ماذا ؟ إذا قلت « إيتني نخني يا نيكول » ، و « ناولني  
طاقيتي » أيسكون هذا نثراً ؟ .

معلم الفلسفة : نعم يا سيدي .

مسيو جوردان : عييناً ، لقد ظلمت أربعين سنة أتكلم النثر وأنا لا أدري . إنني والحق مدين لك جداً يا نبأني بهذا (٤١) .

على أن بعض رجال الحاشية الذين كانوا غير بعيدى العهد بالتخرج من التجارة إلى النبالة أحسوا أنهم للقصودون بهذا الطبعاء ، فسخروا بالتمثيلية زاعمين أنها لغو فارغ ، ولكن الملك قال لموليير ، « أذكرك أنك لم تكتب في حياتك شيئاً أمتعنى كهذا » . يقول جيزو « إن البلاط تملكته نوبة من الأعجاب بمجرد سماعه هذا الثناء (٤٢) » .

وتعاون موليير ولولى ثانياً ومثلاً أمام البلاط ( يناير ١٦٧١ ) « بسيشيه » ، وهى مزيج من الباليه وللاأساة ، شارك بيير كورني وكنو بأكثر أبياتها . وكان لولى يسكسب المعركة ضد موليير ، فالمهابة تخلى مكانها للأوبرا ، والحوار للآلات ، وكان لازماً إنزال الأرباب والرباب من السماء أو رفعهم من الجحيم واقتضى الأمر إعادة بناء المسرح فى الباليه — رويال لهذه التمثيلية ، وكلف هذا ١٩٨٩ و١٠ جنيهات . ولكن الأخراج حقق نجاحاً مالياً .

بيد أن الرومانس لم تكن أقوى جوانب موليير ، وكان أكثر إطلاقاً ويسراً حين يهزأ بسخافات جيله . وقد خيل إليه أن المرأة المتعلمة شذوذ متعب وعقبة فى طريق الزواج . ولقد سمع هؤلاء النسوة يشذبن الألفاظ ، ويناقشن دقائق النحو ، ويقتبسن من الآداب القديمة ، ويتكلمن فى الفلسفة ، ووقر هذا فى إذن موليير كأنه انحراف جنسى ، أضاف إلى ذلك أن رجائز — هما الأب كوتان والشاعر ميناج — كانا يهاجمان بعنف مسرحيات موليير ، فها هى ذى الفرصة قد لاحت لوخزهما . وعليه فى ١١ مارس ١٦٧٢ قدم مسرحية « النساء العالمات » . ففيلامنت تطرد خادمة لا تستعملها لفظاً رفضه المجمع اللغوى ، وابنتها أرماند ترفض الزواج لأنه اتصال مقزز بين الأجساد لا امتزاج بين العقول . ويقرأ تريسوتان شعره الكريه على هاتين

للرأتين المتكافئتين المعجبتين . ويملاً قاديوس الشعر بالألغاز والمعميات ، ويقرأ المزيد من شعره وشعر تريسوتان . ويدافع مولير عن هنرييت ضد هؤلاء جميعاً ، لأنها تستهجن أبيات الشعر ( السداسية ) وتريد زوجاً يمنحها الأبناء لا الإيجرامات . ترى هل أصبحت أرماند بيجار إحدى المتحذقات ؟ أم أن مولير كان يعرض عصره ؟

## ٧ - ستار

إنه لم يجاوز الخمسين الآن ، ولكن حياته المحمومة ، وتدره ، وزواجه ، وأحزانه لفقد أحبائه ، استنزفت حيويته . إن مينار رسمه في ريمان شبابه : أرف كبير وشفتان شهوانيتان وحاجبان مرفوعان بشكل مضحك ، ولكن له إلى جانب هذا جبهة متجمدة وعينين حزينتين . ذلك أن انهماكه في دوامة المسرح من بلد إلى بلد ، يوماً بعد يوم ، وتعامله مع الممثلات الأوليات المتوترات الأعصاب ، ومع زوجة منعمة بالحياة ، ومع ملك حساس ، ورؤيته اثنين من أطفاله الثلاثة يموتان — كل هذا لم يكن طريقاً مفروشاً بالرياحين إلى التفاؤل ، بل طريقاً عريضاً لسوء الهضم والموت المبكر . لا عجب إذن أن يصبح مولير « بركانا يلبثهم ذاته » ( ٤٣ ) ، إنسانا مسكتئباً ، حاد الطمع ، نقاداً في غير مجاملة ، ولكنه رغم ذلك كريم النفس عطوف . وقد فهمته فرقة وأخلصت له الود ، موقنة أنه يفتي نفسه ليوفر لها القوت ويسكفل لها النجاح . وكان أصدقاؤه على استعداد دائم لخوض المعركة دفاعاً عنه — لا سيما بوالو ، ولا فونتين ، اللذين كتباً مع مولير ، بمشاركة راسين أحياناً ، « الأصدقاء الأربعة » المشهورة . ولقد وجدوا فيه التعاليم الحسن والاطلاع الواسع ، وعرفوه ذكياً ظريفاً وإن قن مرحه ، لقد كان المهرج الساخر على خشبة المسرح ، ولكنه في حياته الخاصة أشد حزناً من جاك ( في مسرحية شكسبير « كما تشاء » ) .

ويعد أن انفصل عن زوجته أربع سنوات ونصفاً عاد إليها (١٦٧١) .  
ومات الطفل الذي أثمره هذا التصالح بعد شهر من ولادته . وكان يعيش في  
أوتوى قبل ذلك على اللبن كما أوصاه طبيبه ، فعاد الآن إلى شرب النبيذ على  
عادته ، وحضر سهرات العشاء المتأخر ارضاء لأرماند . وقرر أن يمثل الدور  
الأول برغم تفاقم سعاله ، دور أرجان ، في آخر تمثيلياته « المريض بالوهم »  
( ١٠ فبراير ١٦٧٣ ) .

وأرجان هذا يتوهم أنه مصاب بالعديد من الأمراض ، وينفق نصف  
ثروته على الأطباء والعقاقير . ويحتقره أخوه بيرالد :  
« أرجان : فما الذى يجب أن نصنعه حين نمرض ؟

بيرالد : لا شيء يا أخى . . . علينا أن نحتفظ بهدوئنا لا أكثر .  
والطبيعة ذاتها إذا تركناها وشأنها ، كفيلة بأن تخلص نفسها بلطف من  
الخلل الذى وقعت فيه . إن الذى يفسد كل شيء هو نكراننا لصنيعها ونفاد  
صبرنا ، وكل الناس تقريباً يموتون بالدواء لا بالداء (٤٤) » .

ولمزيد من السخرية بمهنة الطب يقال لأرجان إن فى استطاعته هو نفسه  
أن يصبح طبيباً بإجراء مختصر ، وأن يجتاز بسهولة الامتحان للحصول على  
الأجازة الطبية . وبلى ذلك الامتحان المزيف الذى تسأل فيه اللجنة  
أرجان (\*) .

وكاد موت مولير أن يسكون جزءاً من هذه التمثيلية . ففى ١٧ فبراير

---

(\*) يحاول بيرالد فى هذا الفصل الأخير من المهمة أن يسلى الأسرة ، فيكاف أصحابه  
الممثلين بقاقل يمثل قبول أرجان طبيباً فى الفيزياء على أنغام الموسيقى والرقص ، ويقترح  
اشتراك الجميع فى الممثلة ، وأن يمثل أرجان الدور الرئيسى فيها . ويدخل موكب الصيادلة  
والجراحين والأطباء ، ويجلس أرجان عند قدمى الرئيس الذى يخاطب لجنة الامتحان  
بتخليط لغوى هازل طالباً إليهم أن يوجهوا استئذانهم لأرجان . فيسألونه عن العقاقير  
والأمراض وعلاجها ، وعتب كل جواب يبدى الخورس استحسنه وجدارة أرجان  
بالمهنة ، فيحلفه الرئيس ويجيزه ، ويهتف الخورس بحياته داعياً له بطول العمر . ( المترجم )

١٦٧٣ طلبت إليه أرماند وغيرها ، حين رأوا اعياءه ، أن يغلق للمسرح أياما حتى يتعالتك صحته . فسألهم ، ولكن كيف أصنع هذا ؟ إن هنا خمسين طاملا فقيرا ينقدون أجرهم يوما بيوم ، فماذا هم فاعلون إذا توقفنا عن التمثيل ؟ انني لألوم نفسي على انني أهملت توفير القوت لهم يوما واحدا مادام في طاقتي أن أمثل (٤٥) . وفي الفصل الأخير من التمثيلية ، وبينما كان موليير ، في دور أرجان ( الذي تظاهر بالموت مرتين ) يلفظ بكلمة Juro ( أحلف ) وهو يقسم بعين المهنة ، أخذته نوبة سعال مقترنة بتقلصات . فداراها بضحكة كاذبة وأنهى التمثيلية . وهرعت به زوجته والممثل الشاب ميشيل بارون إلى بيته . وطلب كاهنا ، ولكن أحدا لم يحضر . واشتد سعاله ، وانفجر فيه عرق ، فاختنق بالدم في حلقه ومات .

وقضى آرلى دشانفالون رئيس أساقفة باريس بأنه يستحيل دفن موليير في أرض مسيحية مادام لم يتب توبته النهائية ويتلقى غفران الكنيسة . أما أرماند ، التي كانت تحبه على الدوام حتى وهي تخدعه ، فذهبت إلى فرساي ، وارتمت عند قدمي الملك ، وقالت في غير حكمة ، ولكن في شجاعة وصدق « إذا كان زوجي مجرما ، فإن جلالتهكم باركتم جرائمه بشخصكم (٤٦) » . وبعث لويس بكلمة إلى رئيس الأساقفة سرا ، ولان آرلى ، وأمر ألا يؤخذ جثمانه إلى كنيسة لإجراء الشعائر المسيحية ، ولكنه سمح بدفنه في هدوء بعد الغروب في ركن قصي من جبانة سان جوزيف في شارع مونمارتر .

وما زال موليير بإجماع الناس علما من أعظم أعلام الأدب الفرنسي ، لا بكمال تكنيكه المسرحي ولا بأي روعة تميز بها شعره . فأكثر حبهاته مستعارة ، ومعظم نهاياتها مفتعلة وغير معقولة ، وجل شخصياته صفات مجسدة ، والعديد منها كأرباجون مبالغ فيه إلى حد السكاريكاتور ، وكثيرا ما تهبط ملاحيه إلى درك الفارص ( الهزلية الصاخبة للمهرجة ) .



وقد قيل إن الحاشية والجمهور أحبوه أكثر مما أحبوه حين يفرق في هذا الفارص ، ولم يستطيعوا أهاجيه اللاذعة للمثالب التي يشارك فيها الناس عموماً . وأغلب الظن أنه كان مفضلاً هذا اللون من الهزلية لولا شعوره بأنه مضطر إلى الحفاظ على قدرته فرقة على الوفاء بديونها .

وكما أسف شيكسبير على اضطراره أن يجعل من نفسه مهرجاً للناظرين كتب مولير يقول : « أرى أن من العقوبة الفادحة في الفنون الحرة أن يعلن الفنان عن نفسه للحمقى وأن تعرض ثمرات أقلامنا للحكم الهمجى الذى يحكم به عليها الأغبياء (٤٧) » . وقد حز في نفسه أن يطالب على الدوام بإضحاك الناس ، فهذا كما قال أحد شخوصه « مطلب غريب (٤٨) » . وكان يتطلع لكتابة المأسى ، ومع أنه قصر دون هذا الهدف ، فإنه وفق في أن يضفى على أعظم ملاحيه مغزى وعمقا مأساويين .

إذن فالفلسفة التي تنطوى عليها تمثيلياته ، وفكاهتها وهجوها اللاذع - هذه هي التي تجعل كل قارئ فرنسى تقريباً يقرأ مولير (٤٩) . وهي في صميمها فلسفة عقلانية ، أبهجت قلوب « فلاسفة » القرن الثامن عشر . « فليس في مولير أثر لمسيحية الخوارق » و « الدين الذى عرضه لسان حاله كليات ( في طرطوف ) يمكن أن يصدق عليه فولتير (٥٠) » . إنه لم يهاجم قط العقيدة المسيحية ، وقد سلم بفضل الدين في حياة الكثيرين جداً ، واحترم التقوى الصادقة المخلصة ، ولكنه احتقر الورع السطحي الذى يخفى أنانية أيام ستة وراء نقاق اليوم السابع ( يوم الأحد ) .

وكانت فلسفته الأخلاقية وثنية بمعنى أنها أباحت اللذة ولم يكن فيها إحساس بالخطيئة . كان فيها رائحة أبيقور وسنيكا لا القديس بولس أو أوغسطين ، وقد انسجمت مع تحمل الملك أكثر من انسجامها مع زهد البور - رويال . وكان يستنكر الغلو حتى في الفضيلة . كان يعجب بـ « الرجل الفاضل » ، رجل الدنيا المعقول الذى يسلك باعتدال مائل

وسط السخافات المتعارضة ، ويوائم في غير ضجة بين نفسه وبين  
نقائص البشر .

ولم يبلغ مولير ذاته ذلك المستوى من الاعتدال . فقد أكرهته مهنته  
مسرحيا هازلا على الهجو ، وعلى المبالغة أحيانا كثيرة . وقد عنف على  
النساء المتعلمات ، وغلا في هجومه على الأطباء دون تفريق ، ولعله كان  
يخلق به أن يبدي احتراما أكثر للحقن الشرجية . ولكن الغلو كائن في دم  
الهجو ، وقل أن تبلغ المسرحيات هدفها بدونه ، ولعل مولير يكون أجل  
وأعظم قدرا لو أنه وجد سبيلا لهجو الشر الأساسى الذى لوث ذلك العهد -  
ونعنى ذلك الجشع الحربى والاستبداد المدمر الذى ابتلى به لويس الرابع  
عشر ، ولكن هذا المستبد المنعم هو الذى حماه من أعدائه ويسر له أن  
يشن الحرب على التعصب . وما أسعده لأنه مات قبل أن يصبح سيده  
أشد هؤلاء المتعصبين كلهم تدميرا !

إن فرنسا تحب مولير ، وما زالت تمثل مسرحياته ، كما تحب انجلترا  
شيكسبير وتمثل مسرحياته ، ولا نستطيع كما يريد بعض الغاليين ( الفرنسيين )  
المتحمسين أن نسوى بينه وبين شاعر انجلترا ، فلقد كان جزءا فقط من  
شيكسبير ، الذى كان جزءا من الآخرين راسين ومونتيني . كذلك لا نستطيع  
كما يفعل الكثيرون أن نضعه على قمة الأدب الفرنسى . لا بل إننا لسنا على  
يقين من أن بوالو كان على حق حين قال للويس الرابع عشر إن «وايير كان  
أعظم شعراء عهده ، فحين قال بوالو هذا لم يكن راسين قد كتب « فيدر »  
ولا « آتالى » . ولكن فى مولير ، ليس السكائب فقط هو الذى ينتهى  
لتاريخ فرنسا ، بل الإنسان : مدير الفرقة المرهق الوفى ، والزوج المخدوع  
الصفوح ، والمسرحى الذى يخنى أحزانه بالضحك ، والممثل العليل الذى  
يوصل حتى الموت حربه على الفقر ، والتعصب ، والخرافة ، والنفاق .

## الفصل الخامس

### أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي

١٦٤٣ - ١٧١٥

#### ١ - جو الكلاسيكية

لم يكن أوج الأدب الكلاسيكي الفرنسي مواكباً تماماً لعصر لويس الرابع عشر ، بل جاء إبان وزارة مازاران وفي الربيع المشرق لهذا العصر ( ١٦٦١ - ٦٧ ) ، قبل أن ينحى مارس ( إله الحرب ) ربّات الفنون إلى المؤخرة . أما أول حافز للتفجير الأدبي فقد انبعث من تشجيع ريشليو للدراما والشعر ، وجاء الثاني من الانتصارات الحربية التي حققها الفرنسيون في روكروا ( ١٦٤٣ ) ولنز ( ١٦٤٨ ) ، وانساب الثالث من انتصارات فرنسا الدبلوماسية في معاهدتي وستفاليا ( ١٦٤٨ ) والبرانس ( ١٦٥٩ ) ، وأتى الرابع من اختلاط الأدباء بالنبل والمثقفات من النساء في الصالونات ، والحافز الأخير فقط هو الرعاية التي حظي بها الأدب من الملك والحاشية . وكثير من روائع ذلك العهد - كرسائل بسكال ( ١٦٥٦ ) وخواطره ، وطرطوف مولير ( ١٦٦٤ ) ومسرحية وليمية التمثال الحجري ( ١٦٦٥ ) ومبغض البشر ( ١٦٦٦ ) ، وأمثال لاروشفوكو ( ١٦٦٥ ) وهجائيات بوالو ( ١٦٦٧ ) وأندروماك راسين ( ١٦٦٧ ) - هذه كلها كتبت قبل ١٦٦٧ بأقلام رجال نموا وترعرعوا أيام ريشليو ومازاران .

ومع ذلك كان لويس أسخى راع للأدب عرفه التاريخ كله . فما مضت سنتان على تسلمه مقاليد الحكم ( ١٦٦٢ - ٦٣ ) - أي قبل هذه الآثار

الأدبية كلها باستثناء اثنين منها — حتى طلب إلى كولبير وغيره أن يسكفوا أشخاصاً أكفاء بوضع قائمة بأسماء المؤلفين والأدباء والعلماء من أى بلد ممن يستحقون أن تقدم إليهم يد المعونة . ومن هذه القوائم تلقى خمسة وأربعون فرنسياً وخمسة عشر أجنبياً معاشات ملكية (١) . وأدهش الأدبيين الهولنديين هاینسيوس وفوسيوس ، والفزيائي الهولندي كرستيان هويجنس ، والرياضي الفلورنسى فيفيانى ، وكثيراً غيرهم من الأجانب ، أن يتلقوا رسائل من كولبير تنبئهم بقرار الملك الفرنسى أن يمنحهم معاشات إذا وافقت حكوماتهم . وبلغ بعض هذه المعاشات ثلاثة آلاف من الجنيهات فى العام . فعاش موالو صيد الشعر غير الرسمى ، على معاشاته كأنه إقطاعى كبير ، وترك لورثته ٢٨٦.٠٠٠ فرنك نقداً ، وتلقى راسين ١٤٥.٠٠٠ فرنك طوال عشر سنين بوصفه المؤرخ الملكى (٢) . ولعل المعاشات الدولية كان بعض الدافع إليها الرغبة فى كسب أرباب الأقلام خارج فرنسا ، أما الهبات فى الداخل فهدفها إخضاع الفكر ، كما أخضعت الصناعة والفن للتنسيق والإشراف الحكوميين . وتحقيق هذا الهدف ، فأخضع النشر كله لرقابة الدولة ، وأذعن الذهن الفرنسى للإشراف الملكى على تعبيره المطبوع ، باستثناء مقاومة متفرقة ضئيلة . يضاف إلى هذا أن الملك اقتنع بأن هذه الأقلام المأجورة ستعنى بمدحهم ثراً وشعراً وتختلف للتاريخ صورة مشرقة له . وقد بذلوا فى هذا قصاراهم .

ولم يكتف لويس بصرف المعاشات للأدباء ، بل إنه حماهم واحترمهم ، ورفع مقامهم الاجتماعى ، ورحب بهم فى القصر . قال مرة لبوالو « تذكر أننى سأفرد لك دائماً نصف ساعة من وقتى (٣) » . وربما كان ذوقه الأدبى مسرف الانحياز إلى الخصائص الكلاسيكية ، خصائص النظام ، والوقار ، وجمال الشكل ؛ ولكن هذه الفضائل لم تكن فى رأيه معينة على توطيد الحكم فحسب بل على إضفاء النبل على فرنسا . وكان من بعض الوجوه

متقدما على شعبه وبلاطه في أحكامه الأدبية . وقد رأيناه يحكى مولير من  
غدر النبلاء ورجال الدين ، وسنراه يشجع أشد شطحات راسين .

وصحلا باقتراح آخر من كولير ، وترسما لخطى ريشليو مرة أخرى ،  
أعلن لويس أنه الراعى الشخصى للأكاديمية الفرنسية ، ورفعها إلى مرتبة  
المؤسسات الحكومية الكبرى ، ووفر لها الأموال الكافية ، وهيا لها  
مكنا في اللوفر . وأصبح كولير نفسه عضوا فيها . ولما أمر عضو ، كان  
إقطاعيا كبيرا في الوقت ذاته ، بأن يوضع له مقعد وثير في الأكاديمية ،  
أرسل كولير في طلب تسعة وثلاثين مقعدا على شاكلته حفاظا على المساواة  
في الكرامة قبل الفوارق الطبقيّة ، وهكذا أصبحت « المقاعد الأربعون »  
مرادفا للأكاديمية الفرنسية ، وفي ١٦٦٣ نظمت أكاديمية فرعية للنقوش  
والرسائل لتسجل أحداث العهد .

واستوثق كولير من أن « الخالدين الأربعين » يكسبون رواتبهم  
بالانتظام في الحضور وبالجهد في تصنيف القاموس . وكان مشروع هذا  
القاموس الذى بدأ في ١٦٣٨ يتقدم في ببطء شديد ، حتى استطاع بواروير  
أن يعبر أبجديا عن أمنيته في طول العمر ، « لقد أنفقوا ستة شهور وهم  
مشغولون بحرف F ، فليت قد رى يمهلى حتى حرف G (٤) » .

كانت خطة القاموس معقدة شديدة التفصيل ، فقد رأت تتبع كل كلمة  
مسموح بها طوال تاريخ استعمالها وهجاءاتها ، ويشفع هذا بالكثير من  
الشواهد التوضيحية ، وهكذا انقضت ست وخمسون سنة بين بدء المشروع ،  
ونشر القاموس لأول مرة ( ١٦٩٤ ) . ولقد أسرف في فحص لغة الشعب ،  
والمهن ، والفنون ، وشذب رابليه ، وآميو ، ومونتيني ، ورفض مئات  
التعبيرات التى تعين على الحديث الحى . فذات المنطق ، والدقة ، والوضوح  
الذى جعل من الهندسة المثل الأعلى لعلم القرن السابع عشر وفلسفته ، وذات  
السلطان والانضباط اللذان هيمن بهما كولير على الاقتصاد ولبرون على

الفنون ، وذات الوقار والتأنق اللذان سيطرا على بلاط الملك ، وذات التشبث الكلاسيكي بالقواعد الذي شكل أسلوب بوسويه ، وفينيلون ، ولا روشفوكو ، وراسين ، وبوالو — كل أولئك أملى قاموس الأكاديمية .

ولقد نقح وأعيد نشره دورياً ، وكافح للاحتفاظ بالنظام في جسم نام حين ، وبماجت قلعه الكلاسيكية المرة بعد المرة ، وكثيراً ما افتحمتها ، أخطاء الشعب ، ومصطلحات العلوم ، ورطانة الحرفيين ، وعامية الشوارع ، واققاموس ، شأنه شأن التاريخ والحكومة ، مزاج من القوى بين ثقل الكتلة وقوة القلة . وقد خسرت اللغة شيئاً من حيث الحيوية ، وكسبت الكثير من حيث النقاء ، والدقة ، والأناقة ، والمساكنة . أنها لم تنجب شيكسبيراً هائجاً مائجاً ، ولكنها أصبحت أعظم لغات أوربا احتراماً ، وغدت أداة الدبلوماسية ، ولسان الارستقراطيات . وظلت أوربا قرناً وأكثر تهفو إلى أن تكون فرنسية .

### ٣ - تذييل لكورني : ١٦٤٣ - ٨٤

بلغت اللغة أوجها في السهولة المرنة التي اتسم بها حوار مواير ، وفي بلاغة كورني الطنانة ، وفي تأنق راسين الشعبي .

أما كورني فكان يبدو في ربيع أدبه - وهو في السابعة والثلاثين - حين اعتلى لويس العرش : وقد بدأ العهد بملهاة « الكذاب » التي رفعت نبرة الملهاة الفرنسية كما رفعت « السيد » نبرة المأساة . ثم راح يدفع إلى المسرح بالمآسى كل عام تقريباً بعد ذلك ، رودوجون ( ١٦٤٤ ) ، وتيودور ( ١٦٤٥ ) ، وهيراقليوس ( ١٦٤٦ ) ودف سانشو الأراجوني ( ١٦٤٩ ) وأندروميد ( ١٦٥٠ ) ونيكوميدي ( ١٦٥١ ) وبرتاريت ( ١٦٥٢ ) . ولقى بعض هذه التمثيليات استقبالا حسنا ، ولكن حين تعاقبت كل منها سريعا خلف سابقتها ، وضع أن كورني يتمجل الإنتاج ، وأن عصارة

عبقريته آخذة في النضوب . وضاع ولعه بتصوير النبالة وسط بحر من الجدل ، وهزمت بلاغته ذاتها باستمرارها دون توقف . قال مولير « إن لصديقي كورني رفيقا يلهمه أروع شعر في الدنيا . ولكن يحدث أن يتركه رفيقه ليرعى شؤنه ، وعندها يتعثر شر تعثر (٥) . » وقد لقيت « بارتاريت » من سوء الاستقبال ما حمل كورني على أن يعتزل المسرح ست سنوات (١٦٥٣ — ٥٩) ، وتناول نقاده في سلسلة من « الفحوص » ، وفي ثلاثة أحاديث عن الشعر المسرحي . وقد دلت هذه الأحاديث على صعود موهبته النقدية بهبوط ملكته الشعرية ، وأصبحت يذبوا للنقد الأدبي الحديث ، واتخذها درايدن نماذج حين دافع عن شعره المتوسط الجودة في نثر رائع .

وفي ١٦٥٩ ردت كورني إلى خشبة المسرح لفترة تلقاها من فوكيه . وظفرت مسرحيته « أوديب » ببعض الاستحسان عقب ثناء الملك الشاب عليها ، ولكن المسرحيات التي تلتها — سرتوريوس (١٦٦٢) ، وسوفونيسب (١٦٦٣) ، وأوتون (١٦٦٤) ، وأجيسيلاس (١٦٦٦) وأتيلا (١٦٦٧) — هذه كلها كانت قاصرة قصورا لم يستطع فولتنبل إزاءه أن يصدق أن كاتبها هو كورني ؛ وقال بوالو في بيت ساخر :

« بعد أجيسيلاس ، وأأسفاه ! ولكن بعد أتيلا ، قف ! » وزادت مدام هنرييتا الطين بلة ، مع أنها كانت طادة آية العطف والركة ، حين دعت كلا من كورني وراسين ، بعلم من كل ، إلى أن يكتب تمثيلية في ذات الموضوع — وهو بيرنيس ، الأميرة اليهودية التي وقع في حبها تيطس الإمبراطور القادم . ومثلت بيرنيس التي ألفها راسين في الأوتيل دبورجون في ٢١ نوفمبر ١٦٧٠ بعد خمسة أشهر تقريبا من موت هنرييتا ، ولقيت نجاحا كاملا . أما مسرحية كورني « تيطس وبرينيس » فقد مثلتها فرقة مولير بعد ذلك بأسبوع ، ولم تلق غير استقبال قاتر : وحطم فشلها روح كورني . وجرب حظه ثانية بمسرحيتي « بولشيري » (١٦٧٢) و« سورينا » (١٦٧٤) ،

ولكن الفشل كان نصيبهما أيضا . وأنفق كورني بعد ذلك السنين العشر التي بقيت له من أجله في تقوى هادئة مكتئبة .

وكان متلافا ، مات فقيرا رغم ما أجرى عليه لويس الرابع عشر من معاش وما نفحه به من هبات ، وقد قطع معاشه دون قصد أربع سنوات ، فلجأ كورني إلى كولبير ، فأمر برده إليه ، ولكنه انقطع ثانية بعد موت كولبير . فلما نمت الأمور إلى بوالو أعلم به لويس الرابع عشر ، وعرض أن ينزل عن معاشه لكورني . ولكن الملك بادر بإرسال مائتي جنيه للشاعر المجوز ، الذي مات بعدها بقليل ( ١٦٨٤ ) بالغا الثامنة والسبعين وأبنه في الأكاديمية الفرنسية مزاحمة الذي كان قد خلفه ، ورفع المسرحية والشعر الفرنسيين إلى ذروة تاريخهما ، والتأبين مازال مذكورا لما حوى من سماحة وبلاغة .

### ٣ — راسين : ١٦٣٩ - ٩٩

ولد مثل موليير في أسرة متوسطة . وكان أبوه مراقبا لاحتسار الدولة للملح في لافيرتي — ميلون ، على نحو وخمسين ميلا شمال شرق باريس ، وكانت أمه ابنة محام في فيليه — كوترية . وقد مات عام ١٦٤١ وجان لم يبلغ الثانية بعد ، وبعد سنة مات أبوه ، فكفل العبي جده لأبيه . وكان في الأسرة نزوع قوى إلى الجانسانية ، فقد التحقت جدة وعمة لراسين بأخوات البور — رويال ، وأرسل جان نفسه حين ناهز السادسة عشرة إلى « المدرسة الصغيرة » التي يديرها « المتوحدون » . وقد تلقى عنهم تعليمها مركزا في الدين واليونانية — وهما مؤثران قدر لهما أن يسيطرا الواحد بعد الآخر على حياته . واستهوته تمثيلات سوفوكليس ويوريبيديس فترجم بعضها بنفسه . ثم تعلم شيئا من الفلسفة ومزيذا من الثقافة الكلاسيكية في كلية آركور بباريس ، واكتشف المفاتيخ الخفية للألوانة الشابة ، الجديد منها



والمستعمل . وعاش طامين على شاطئ « الجزائر » أوجوستان مع ابن عمه نيكولا فيتار ، الذي كان يتردد بين البور — رويال والمسرح . واستمع راسين إلى عدة تمثيليات ، وكتب تمثيلية ، وعرضها على مولير . ولم تكن من الجودة بحيث تستحق الأخراج ، ولكن مولير نفحه بمائة جنيه ذهبي ، وشجعه على أن يعيد الكرة . واستقر رأى راسين على اتخاذ الأدب حرفة له .

وهال هذا الجنون أقرباءه ، وراعهم ما نعى إليهم من أنباء غرامياته ، فأرسلوه إلى أوزيريس بجنوبي فرنسا ( ١٦٥٩ ) مساعداً لعم له كان كاهناً لكتد رائية ، فوعده بوظيفة كنسية ذات وقف إن هو درس اللاهوت ورسم قسا . أما الشاعر الشاب ، الذي ما زال باطنه يضطرم بنار باريس ، فقد هل طاماً يسدل على هذه النار عباءة سوداء ، وقرأ القديس توما الأكويني . وقليلاً من أريوستو ويوريبيديس بجانبه . وكتب الآن إلى لافونتين يقول :

« كل النساء رائعات . . . لحم غض طرى ، ولكن بما أن أول شيء قيل لي هو أن آخذ حذري ، فليست أريد أن أقول المزيد عنهن . أضف إلى ذلك أنه سيكون امتهاناً لبيت كاهن ذي وقف أعيش فيه أن أخوض في حديث طويل عن هذا الموضوع ، « بيتي بيت الصلاة يدعى » . . . لقد قيل لي « كن أهمي » فإذا لم أستطع أن أكون ذلك كلية ، فإني أستطيع على الأقل أن أكون أبكم . . . لأن على المرء أن يسكون راهباً مع الرهبان ، كما كنت ذئباً معك ومع غيرك من ذئاب قطيعك ( ١٦ ) » .

ولقي الكاهن شداً وأصبحت الوظيفة الكهنوتية الموعودة أملاً بعيداً وتبين راسين أنه لا يملك موهبة القسوسية . فبدل ثوبه ، وطوى كتاب « خلاصة اللاهوت » وعاد إلى باريس ( ١٦٦٣ ) .

فلما بلغها نشر نشيداً أتاه بمائة جنيه من جيب الملك . واقترح عليه مولير موضوعاً حوله راسين إلى تمثيليته الثانية « طيبة » ( التيبايد ) . وأخرجها

موليير في ٢٠ يونيو ١٦٦٤ ، ولكنه اضطر لسحبها بعد أربعة عروض .  
على أنها أحدثت من الضجة ما كفى لسماحها في البور - رويال - دوشان .  
وأرسلت إليه صمته من هناك رسالة تستحق أن نوردتها باعتبارها جزءاً من  
دراما تعدل في بلاغتها وتأثيرها في النفس أي شيء كتبه راسين :

« حين نبي إلى أنك تنوى الحضور إلينا طلبت إلى أمنا الإذن لي  
برؤيتك . . . . . ولكنني صممت مؤخراً خبراً أثار في أشجاننا صميقة ، وأنى  
أكتب إليك في مرارة قلبي ، وأذرف الدمع الذي أرجوان أسكبه غزيراً  
أمام الله لأنال منه خلاصه الذي أتوق إليه أشد مما أتوق لأي شيء آخر في  
العالم . فقد علمت بالأسف أنك تخالط أكثر من أي وقت مضى معشراً  
اصمهم بحق رجس عند كل من له أي نصيب من تقوى ، لأنهم محرومون  
من دخول الكنيسة ، أو تناول الأسرار المقدسة . . . فالظر الآن يا ابن أخي  
إلى أي حال صرت ، لأنك لا بد عليم بما أشعر به نحوك من حنان ، وبأنه  
لم يكن لي من سؤال إلا أن أتبع الله في وظيفة شريفة . لذلك أتوسل  
إليك يا ابن أخي العزيز أن ترحم نفسك ، وتفحص قلبك ، وتتأمل بمجد أي  
هوة تردت فيها . أنني لأرجو ألا يكون صحيحاً ما أثبتت به ، ولكن إذا  
كان سوء طالعك قد بلغ مبلغاً يحملك على مواصلة تجارة تشينك أمام الله  
والناس ، فعليك ألا تفكر في المجيء لرؤيتنا ، لأنك تفهم جيداً أنني لن  
أستطيع في هذه الحالة أن أكلّمك لعلّي بأنك في حالة مؤسفة جداً ،  
مناقضة كل المناقضة للمسيحية . ولن أكف في الوقت نفسه عن التضرع لله  
ليرحمك ، فيرحمني برحمته إياك ، لأن خلاصك عزيز على جداً (٧) » .

فها هنا عالم شديد الاختلاف عن ذلك الذي تسجله صفحاتنا طادة - طالم  
من الإيمان العميق بالمقيدة المسيحية ، والولاء المحب لدستورها الأخلاقي .  
ونحن لا نملك غير التعاطف مع امرأة استطاعت أن تكتب بمثل هذا  
الأخلاص في العاطفة ، ولم تخل من العذر لرأيها في المسرحية الفرنسية كما

كانت في شبابها . ولم تبلغ عبارة نيسكول العلنية التالية هذا المبلغ من الرقة والحنو ، وكان قد علم راسين في البور — رويال :

« كل الناس يعرفون أن هذا السيد قد كتب .. تمثيليات للمسرح ... وهذه المهنة في نظر ذوى العقول الراجحة ليست في ذاتها مهنة شريفة جداً ، ولكن إذا نظر إليها في ضوء الدين المسيحي وتعليم المسيح كانت في الحق مهنة رهيبة . قالوا أيون تجار سموم يقتلون نفوس الناس لا أجسادهم (١) » .

واجاب كل من كورني وموليير وراسين على هذا الاتهام على حدة ، وكان في جواب راسين من العنف الغاضب ما جعله يندم عليه أشد الندم في سنوات لاحقة .

وتلا خصامه مع البور ... رويال خصام مع موليير بعد قليل . ففي ديسمبر ١٦٦٥ قدمت فرقة موليير تمثيليه راسين الثالثة « الإسكندر » وكان موليير كريماً كمادته ، فهو عليم بأن راسين لم يعجب به ممثلاً تراحيدياً ، وان المؤلف الشاب بهيم بأجل ممثلاته وإن لم تكن أكفأهن ، لذلك اخرج نفسه والمراأتين بيجار من شخصيات المسرحية ، واعطى الدور النسائي الأول لترز دبارك ، ولم يرض بمال على الأخراج . وقد لقيت استقبالا حسنا ، ولكن راسين لم يرض عن التمثيل . فرتب حفلة خاصة مثلت الفرقة الملكية فيها المسرحية ، وحمله سروره بهذا التمثيل على سحبها من موليير واعطائها لهذه الفرقة المنافسة . وأقنع الأنسة دبارك التي أصبحت عشيقته بأن تترك فرقة موليير وتنضم إلى الفرقة الأقدم وعرضت المسرحية في مكانها الجديد بالأوتيل دبورجون ثلاثين مرة في أكثر قليلا من شهرين . ولم تسكن من روائع راسين ، ولكنها وطدت مكاته خلفا لسكرورني ، وأكسبته صداقة الناقد بوالو المرشدة . فحين قال له راسين منفاخراً « انى أنظم شعري في يسر مدهش » أجابه بوالو « أريد أن أعلمك كيف تنظمه في عسر (١) » . ومنذ ذلك الحين علم الناقد العظيم الشاعر قواعد الفن الكلاسيكي .

ولا علم لنا بمدى العصر الذي نظم به راسين « أندروماك » ، على أية حال بلغ فيها أوج قوته المسرحية وأسس له به الشعرى . وهو يذكر في إهدائه المسرحية إلى مدام هنرييتا أنه قرأها عليها ، وأنها بسكت . ومع ذلك فهي مسرحية رعب لا مسرحية عاطفة ، وفيها كل الكارثة المحتومة التي تتوقعها في إسخيلوس أو سوفوكليس . والحبكة شبكة معقدة من العلاقات الغرامية . فأوريسيت يحب هرميون ، التي تحب بيروس ، الذي يحب أندروماك ، التي تحب هكتور ، الذي مات . وقد منح بيروس بن أخيل ثلاث جوائز لما أبلى في انتصار اليونان على طرواده : منح أبيروس ملكة له . وأندروماك ( أرملة هكتور ) أسيرة له ، وهرميون ( ابنة منيلاوس وهيلانة ) زوجة له . أما أندروماك فلا تزال شابة جميلة ، وإن لم تكف عن الكاء ، وهي لا تمحيا إلا لتذكر زوجها النبيل ، وتخاف على طفلها أستيانا كس ، الذي ينقذه راسين — بالتحراف مسرحي عن القاءه — من الموت الذي كان يصيبه في يوريبديدس ليستخدمه هنا أداة في يد القدر . ويفد أوريسيت — بن كليتمنسترا وقتلها — على أبيروس مبعوثا من اليونان ليطلب إلى بيروس تسليم أستيانا كس وموته باعتباره المنتقم المحتمل لطروادة في المستقبل . ويرفض بيروس الاقتراح في فقرة تمتنع موسيقاها على الترجمة . يقول ما معناه :

« إنهم يخشون أن تولد طروادة بهكتور من جديد ، وأن ابنه قد ينزع مني الحياة التي حفظتها علي . سيدي ، إن الأفراط في التدبر يحرق أفراطا في الحذر . إنني لا أستطيع أن أبصر المآل من هذا البعد الكبير . وأنا أفكر فيما كانت عليه هذه المدينة ( طروادة ) فيما مضى ، جبارة في حصونها ، شديدة الخسوبة في أبطالها ، سيدة على آسيا ، ثم أتأمل في النهاية ما صارت إليه وما انتهى إليه حظها — فلا أرى غير أبراج غطتها الرماد ، ونهر صبغت مياهه الدماء ، وحقول هجرت ، وطفل مقيد بالأغلال ، واستأظن أن طروادة تقوى على الثأر وهي على هذه الحال . آه ، لو كان ابن

هــكتور قدر عليه الموت ، فلم أبقينا عليه طاما كاملا ؟ ألم نكن قادرين على تقديمه قربانا على صدر يريام ؟ كان يجب أن يسحق تحت مئات القتلى في طروادة ؛ يومها كان كل شيء مباحا ، وعبثا كانت تحتج الشيوخ والطفولة بضغفهما في الدفاع عن نفسيهما ، فالنصر والقدرة . وهما أشد منا قسوة ، حرمانا على القتل وأفقدانا التمييز في ضرباتنا . إن غضبي على المغلوبين جاوز حد الصرامة ، ولكن أيجب أن تبقى قسوتي بعد غضبي ؟ أينبغي أن أغتسل متلبثا في دم طفل برغم ما يتملكني من شفقة عليه ؟ لا يا سيدي ، قليبحث اليونان عن فريسة أخرى ، وليلاحقوا ما بقي من طروادة في غير هذا المكان . لقد بلغت نهاية الشوط في عدائي . إن ابيروس ستمنقذ ما أبقت عليه طروادة » (١٠) .

هنا مأخذ واحد ، ذلك أن ابيروس ، وربما راسين ، لا يدركان مبلغ ماتدين به شفقة الفاتح لغرامه بأم الطفل — إلى حد عرضه الزواج منها ( مع أنه كان يستطيع أن يتخذها جارية له ) ، واتخاذها أستياناكس ولدا ووريثا له . ولكنهما ترفضه ، فهي لا تستطيع أن تنسى هـكتور ، الذي قتله أبو ابيروس . وهو يهدد بأن يسلم الطفل لليونان ، قيروعها تهديده ، وترضى بالزواج منه ، ولكن هرميون — وهي في تصور راسين لها تضارع الليدي مكبث قوة — ، تشتعل غضبا لأنها ابذت ، فهي تعزم قتل ابيروس رغم أنها لا تزال تحبه ، وتقبل ما يعرضه أوريسث من حب وولاء ، شريطة أن يقتل ابيروس . فيوافق كارها . وفي كل خطوة وكل شخص من أشخاص هذه المسرحية صراع في الدوافع يرقى إلى أدق العقد النفسية المعروقة في الأدب . ويقتحم الجند اليونان الهيكل ويقتلون ابيروس عند المذبح الذي يتبادل فيه عهود الزواج مع أندروماك . وتحتقر هرميون أوريسث ، وتجرى إلى المذبح ، وتغمد مدية في جسد ابيروس الميت ، ثم تطعن نفسها وتموت . هذه أعظم مسرحيات راسين ، وهي خليقة بأن تثبت للمقارنة مع شيكسبير

١٤ — قصة الحصار

أو يوريبيديس : حبسكة متينة البناء ، وشخص كشف عنها في عمق ،  
ومشاعر مدروسة في كل تعقيدها وحدتها (\*) ، وشعر فيه من الروعة  
والتناغم ما لم تسمعه فرنسا منذ رونسار .

واعترف الناس بأن دروماك للتو رائعة من روائع الأدب ، فوطدت  
مقام راسين خليفة لسكورني وربما متفوقا عليه . ودخل الآن أسعد عقد  
في عمره ، متنقلا من نصر إلى نصر ، بل متحديا مولير بملهاة من قلمه .  
والملهاة ، واسمها « المتخاصمون » ، وهي تقليد ساخر ( برلسك ) للمحاميين  
الjšعين ، وشهود الزور ، والقضاة الفاسدين — هذه الملهاة كانت صدى  
لتجربة راسين مع القانون . ذلك أنه التمس دهنًا على دحل دير وحصل  
عليه ، ولكن راهبا نازعه دعواه ، وتلا ذلك دعوى قضائية امتد بها  
الأجل حتى ضاق بها راسين ذرعا فتغلى عنها وتأر لنفسه بكتابة المسرحية .  
ولم تسر النظارة في أول عرض لها ، ولكن حين مثلت في البلاط ضحك  
لويس الرابع عشر من قلبه على نسكتها ضحكا جعل الجمهور يغير رأيه ، وأدت  
هذه الملهاه المتوسطة الجودة دورها في ملء جيب راسين .

على أن نعمة صغيرة قطعت عليه هناءه . ذلك أن خليلته دبارك ماتت في  
ظروف غامضة — سن فصلها في موضع لاحق — في ١١ ديسمبر سنة ١٦٦٨ .  
وبعد أن توقف فترة مناسبة اتخذ ممثلة أخرى تدعى ماري شانمسلية . وكان  
لها زوج يقظ وصوت ساحر ، وتحاشى راسين الأول واستسلم للآخر .  
واتصل هذا الغرام من برينيس حتى فيدر ، وبعد ذلك اتزعا الكونت  
دكليرمون — توير من جذورها ( déracinée أي من راسين ) كما قال  
أحد الظرفاء .

ومسرحية إراسين « بريتانيكوس » ( ١٦٦٩ ) في رأيه أكثر أعماله  
اتقانًا ، وكثيرا ما تفضل على اندروماك ، شأنها شأن « فيدر » و « اتالي » .

---

(هـ) انفجر عرق في مونفلوري وهو يمثيها ومات بعد قليل .

على أن القاريء المعصرى لن يبتذنها في أغلب الظن مهما كان غارقاً في تاسيتوس  
ففيها أجربين السليطة ، وبريتانيكوس الشكاء وبوروس المتخبط ، ونارسيس  
القذر ، ونيرون الممتلىء شراً — فما من شخص هنا يظهر لنا تعقداً أو تطوراً ،  
أو يبدي لنا أثراً من نبل خليق بأن يخفف في موضع ما من أى مأساة  
جديرة بقلم شاعر .

وكما أن بريتانيكوس فتشت عن قصتها في « قاعة الفظائع » التي ذكرها  
تاسيتوس ، فكذلك أخذت برينيس ( ١٦٧٠ ) قصة غرام امبراطور عن  
سطر موجز لسويتون يقول فيه « فأرسل لتوه كارها برينيس السكرهة من  
المدينة ( ١٢ ) » وتفصيل المسرحية أن تيطس الذي كان يحاصر أورشليم ( ٧٠ م )  
كان قد أغرم بالأميرة اليهودية . ومع أنها تزوجت من قبل ثلاث مرات ،  
إلا أنها تتبعه إلى روما خليعة له ، ولكنه حين برث العرش يدرك أن  
الإمبراطورية لن تسمح بملكة أجنبية ، فيصرفها بعبارات ملكية متدفقة  
تتميز بالإدراك السليم . وقد حفلت المسرحية بالعاطفة الحارة وحظيت  
برضاء الجمهور والملك ، الذي لا يدقد استشف بسرور بلاطه وانتصاراته  
في وصف برينيس لعظمة الإمبراطور الشاب :

« أرايت بهاء هذه الليلة ؟ ألا تمتلىء عيناك بعظمتها وأبهتها ؟ هذه  
المشاعل ، وهذا الخطب ، وهذا الليل ذو اللهب المقدس ، وهاتيك النور ،  
وتلك الشعارات ، وهذا الجمع من الناس ، وهذا الجيش ، وذلك الحشد من  
الملوك ، هؤلاء القناصل ، وهذا السناتو — أولئك الذين قبسوا نورهم  
الساطع من حبيبي ، وهذا الأرجوان والذهب الذي يزداد تألقاً بمجده ،  
وهذا الغار الذي مازال يقوم شاهداً على انتصاره ، وهذه العيون التي تراها  
قادمة من كل فج لتلتقي فيه وحده نظراتها الملهوفة ؛ هذه الطلعة الجليلة ،  
وهذه الحضرة الحلوة . وحق السماء ! بأى اجلال وبأى رضى تؤكد له كل  
القلوب سرائقها به ! تسكلم : أيستطيع إنسان أن يراه دون أن يخطر له

كما يخطر لي ، أنه لو كان القدر قضى ، بأن يولد مغموراً لتبين فيه العالم سيده .  
بمجرد النظر إليه (١٣) .

امن العجب إذن ان نرى راسين ، وهو على هذا الحدق في التلقي ، ينال  
الحظوة السريعة عند الملك ؟

ونعمر في احترام ببعض مسرحياته الأقل شأنًا ، وكلها ما يزال يحتل خشبة  
المسرح الفرنسي : بايريد ( ١٦٧٢ ) ، ومتردات ( ١٦٧٣ ) التي فضلها لويس  
على كل مسرحياته ، وإفجيني ( ١٦٧٤ ) ، التي وضعها فولتير في صف واحد  
مع أتالي باعتبارها من أروع ما كتب من الشعر (١٤) . وقد عرضت أفجيني  
أول مرة في حدائق فرساي على ضوء الشمعدانات البلورية المعلقة في أشجار  
البرتقال والرمان ، وعزف العازفون على السكمان وانعطفت قلوب نصف النخبة  
للتفرجة ، وتقدم راسين ليشكر النظارة على أغلى تصفيق لقيه في حياته .  
وحين أخرجت في باريس امتد عرضها أربعين مرة في شهر ثلاث . وكان قد  
انتخب أثناء ذلك عضواً في الأكاديمية الفرنسية (١٦٧٣) . وبدأ أن سعادته  
قد اكتملت .

على أن السعادة لم تكتب إلى الآن للشعراء ، إلا أن يكون الجمال  
فرحة لا تنتهي ، والثناء لا يقطعه صوت ناشز . قال راسين لابنه « لقد طالما  
أبهجني جداً ذلك الاستحسان الذي قوبلت به ، ولكن أقل لوم ناقد . . .  
كان يسبب لي دائماً من الضيق قدراً أكبر من كل السرور الذي يدخله علي  
المدح (١٥) » . فهو لم يكن شديد الحساسية لحسب ، كما لم يكن بد من أن  
يكون ، بل ضيق الخلق ، يرد على كل كلمة نابية . وفي ذروة مجاهده وجد  
نصف باريس تنتقده ، لا بل تعمل على إسقاطه . كان كورني قد عمر فوق  
ما ينبغي ، ولكن مريديه تذكروا ما اتسمت به مآسيه الأولى من نبرة  
بطولية وموضوعات ملحمية ، وما شاع في بلاغته من نبل ، وذلك المستوى  
السامي الذي رفع إليه دواعي الشرف والدولة ، فوق أهواء القلب . واتهموا  
راسين بتلوين المسأسة بعواطف نصف مجنونة تنفعل بها مخلوقات خسية ،



وبادخال مغازلات حب القصور إلى المسرح ، وإغراقه بدموع بطالته ،  
فصعدوا على إسقاطه .

فلما عرفت أنه يكتب « فيدر » أقنع فريق من خصومه نيكولا برادون  
بأن يكتب مسرحية منافسة في الموضوع نفسه . وكان للمسرحيتين نفس  
العنوان في الأصل — فيدر وهيبوليت — وانبثقتا من أسطورة رواها  
يوريديس من قبل بما عهد فيه من قصيد كلاسيكي في العاطفة . ففيدر ، زوجة  
ثيسيوس ، تولع ولعاً شديداً بهيبوليت بن ثيسيوس من زوجة سابقة ،  
ولكنها تجده بارداً للعاطفة نحو النساء فتشنق نفسها بعد أن تترك خطاباً اتهمته  
فيه بمحاولة الاعتداء على عفافها انتقاماً منه ، ونفى ثيسيوس ابنه البريء ،  
الذي لم يلبث أن قتل وهو يسوق الخيل على شواطئ تروزين . ولكن  
راسين غير ترتيب الأحداث ، فجعل فيدر تنجرع السم بعد سماعها بموت  
هيبوليت . ومثلت مسرحية راسين في الأوتيل دبورجون في أول يناير سنة  
١٦٧٧ ، ومثلت مسرحية برادون بعد يومين على مسرح جينييجو . ولقيت  
التمثيلتان نجاحاً متكافئاً إلى حين ، ولكن تمثيلية برادون طواها النسيان ،  
في حين تعتبر تمثيلية راسين طادة رائعته الكبرى ، ودور فيدر تصبو إلى  
تمثيله كل الممثلات الفرنسيات ، كما يستهوى دور هاملت الممثلين التراجيدين  
في المسرح الإنجليزي\* . ولقد بارى راسين الرومانسيين مع أنه المثل المحتذى  
في الأسلوب الكلاسيكي ، في عاطفية غرام فيدر ، وجعل هيبوليت يتحرق  
شوقاً للأميرة أريسيا ( وهذا مناقض الأسطورة ) . وتعلم فيدر بنياً هذا  
الغرام ، ويعطينا راسين في تفصيل منفصل دراسة للمرأة إذا ازدرت . وهو  
يخفف من هذه التحليلات الرومانسية بوصف قوى تحليل هيبوليت المذعورة  
وهي تجرده حتى يلتقي حتفه .

وفي المقدمة التي يصدر بها راسين تمثيلته فيدر ( إذ بدأ يشتد فيه

---

(\*) هند آدم سميك أن فيدر « ربما كانت أروع مأساة في أي لغة » (١٦) .

الحافظ الدينى كلما ضعف الحافظ الجنىسى) يلوح بغصن الزيتون للبور —  
رويال فيول :

« لست أجروء على أنى أوكد لنفسى أن هذه . . . خير مآسى . . .  
ولسكنى وأثق أننى لم أكتب مأساة عرضت فيها الفضيلة فى ضوء أفضل .  
فأتفه الذنوب تعاقب هنا عقاباً صارماً ، ومجرد التفكير فى الجريمة ينظر إليه  
هنا نظرة الاستهجان التى ينظر بها إلى الجريمة ذاتها ، وعثرات الحب ينظر  
إليها هنا كأنها عثرات حقيقية ، والمواطن المشبوبة لا تعرض على الأنظار  
إلا لترى الخلل التى هى السبب فيه ، والذيلة مصورة فى المسرحية كلها بألوان  
تتيح لنا أن نراها ونسكده شكها الشائى . وتلك هى الغاية الصحيحة التى  
ينبغي أن يستهدفها كل من يعمل لجمهور الشعب . ولعل هذه أن تكون  
وسيلة المصالحة بين الدراما المأساوية ، وكثيرين من الأشخاص المعروفين  
بتقواهم وتعاليمهم ، والذين أدانوها مؤخراً ، ولكنهم سيحكمون عليها حكماً  
أكثر عطفاً لوعنى المؤلفون بتعليم جمهور النظارة عنايتهم بالترفيه عنهم ،  
ولو ترسموا فى هذا التعليم القصد الصحيح من المأساة (١٧) » .

ورحب آرنو ، المعروف بتقواه وتعاليمه ، بهذه النعمة الجديدة ، وأعلن  
رضاءه عن فيدر . ولعل راسين وهو يكتب المقدمة ، وقد بلغ الثامنة  
والثلاثين ، كان يتطاع إلى حياة من الاستقرار يسكن فيها إلى امرأة واحدة  
بدل النساء الكثيرات . وفى أول يونيو سنة ١٦٧٧ تزوج زوجة أخته بمار  
كبير . وقد اكتشف ما فى الحياة العائلية من أسباب الراحة ، ووجد من  
البهجة فى ابنه البكر أكثر مما وجد فى أكثر مسرحياته توفيقاً . وكانت  
غيرة مزاحميه ودسائسهم قد نفرت من المسرح ، فألقى جانباً الخطط والمذكرات  
التي كان قد أعدها لأربع مسرحيات ، واقتصر طوال اثني عشر عاماً على  
كتابة الشعر والنثر بين الحين والحين . لاسيما تأليف تاريخ للبور - رويال  
طابعه التبجيل والولاء البنوى .

ونعص عليه هذا الهدوء المثالى حادث مؤسف أليم . ذلك أن المحكمة

الخاصة التي كانت تحقق عام ١٦٧٩ في تهم التسميم للموجهة ضد كاترين موفوازان استملت منها اتهاماً لراسين بأنه سمم خليلته ترين دبارك . وأدات «لأفوازان» بتفاصيل الاتهام ولكن لم يكن هناك ما يعززه . وإذا كانت واثقة من أنه سيحكم عليها بالأعدام ، فأنها لم تكن تخسر شيئاً باتهام غيرها زوراً ، وقد لوحظ أن إحدى زبائنها وصديقاتها هي الكونتيسة سواسون ، وكانت عضواً في العصبة التي قاومت راسين في «غرام فيدر» (١٨) . ومع ذلك كتب لوفوا في أول يناير سنة ١٦٨٠ إلى المفوض بازان ديزون يقول «إن الأمر الملكي بالقبض على السيد راسين سيرسل إليك حالما تطلبه» ولكن حين تقدم التحقيق وبدأ أنه سيورط مدام دمونتسبان ، أمر الملك بحظر نشر سجل المحاكمة ، ولم يتخذ أى إجراء ضد راسين (١٩) .

وأظهر لويس ثقته المستمرة في الكاتب المسرحي . ففي سنة ١٦٦٤ رتب له معاشاً ، وفي سنة ١٦٧٤ خلع عليه وظيفة شرفية تغل له ٢٤٠٠ جنيه في العام في إدارة المالية ، وفي سنة ١٦٧٧ عين راسين وبوالو مؤرخين رسميين للبلاط ، وفي سنة ١٦٩٠ أصبح الشاعر موظفاً دائماً في معية الملك ، فأثته الوظيفة بمورد إضافي قدرة ألفان من الجنيهات . وفي سنة ١٦٩٦ بلغ من الثراء مبلغاً أتاح له شراء وظيفة سكرتير الملك .

وقد أمان اداؤه النشيط لواجباته مؤرخاً ملكياً على مسرحه من المسرح . وكان يرافق الملك في حملاته ليسجل الأحداث تسجيلاً أدق . وفيما عدا ذلك كان يلزم داره شاغلاً نفسه بتربية ولديه وناته الخمس ، وكان يود أحياناً ، وسط صخبهم وضجيجهم ، لو أنه كان راهباً . وما كان ليكتب أى مسرحية أخرى لولا أن مدام دمانتون لجأت إليه في أن يكتب مسرحية دبلية بريئة ، من كل ما يتصل بالغرام ، تمثلها الفتيات اللاتي جمعتن في أكاديمية سان سير . وكانت أندروماك قد مثلت هناك من قبل ، ولكن دمانتون الفاضلة لاحظت أن الفتيات استمتعن بالفقرات الغرامية الحارة . ورغبة في ردهن إلى التقوى كتب راسين مسرحيته «إستير» .

ولم يسكن قد اقتبس موضوعاً من الكتاب المقدس من قبل ، ولكنه درس الكتاب أربعين سنة ، وأحاط بكل التاريخ المعقد للدون في العهد القديم . وقام هو نفسه بتدريب الفتيات على أدوارهن ، وتبرع الملك بمائة ألف فرنك لتوفير الملابس الفارسية المطلوبة . فلما أخرجت ( ٢٥ يناير سنة ١٦٨٩ ) كان لويس أحد الرجال القليلين الذين شهدوها بين النظارة . واشتد الطلب على مشاهدتها ، من الكهنة أولاً ، ثم من الحاشية ، وعرضتها أكاديمية سان - سير اثنتي عشرة مرة أخرى . ولم تصل إستير إلى جماهير المتفرجين إلا سنة ١٧٢١ بعد موت الملك بست سنين ، وعندها ( بعد أن فقد الدين الرعاية الملكية ) لم تلق إلا نجاحاً متوسطاً .

وفي ٥ يناير سنة ١٦٩١ أخرجت سان - سير أحدث مسرحيات راسين وهي « أتالي » . وأتاليا هي الملكة الشريرة التي ظلت ست سنوات تقود يهوداً كثيرين إلى عبادة البعل الوثنية ، حتى عزلتها ثورة قام بها الكهنة ( ٢٠ ) وجعل راسين من القصة مسرحية لا يشعر بقوتها غير أولئك الذين يشهدونها وهم على علم بقصة الكتاب المقدس ، يدفء صدورهم الإيمان اليهودي أو المسيحي الأصيل ، أما غيرهم فسيجدون أحاديثها الطويلة وروحها القائمة مثبطة لهم . وبدأ أن التمثيلية صفت لطردها طيجوتوت وانتصار الكهنوت الكاثوليكي ، ولسكنها من جهة أخرى حوت - - في إنذار رئيس الكهنة للملك الشاب جود - - تنديداً قوياً بالحكم المطلق :

« إنك وقد نشئت بعيداً عن المرش لم تشعر بفتنته السامة ، إنك لا تعرف الانتشاء بالسلطان المطلق ، وسحر المثملقين الجبناء . مما قليل سيقولون لك إن أقدم القوانين ٠٠٠ ينبغي أن تطيع الملك ، وأنه لا ضابط للملك غير مشيئته ، وأنه يجب أن يضحى بكل شيء في سبيل مجده الأعلى . . . وأأسفاهم ! لقد ضلوا أحكام الملوك ( ٢١ ) » .

وقد ظفرت هذه الآيات بالأداء تحسان الكثير إبان القرن الثامن عشر ،

ولعلها حدث بقولثير وغيره (٢٢) إلى اعتبار أنالى أعظم الدرامات الفرنسية .  
على أن الأبيات التالية لهذه توحى بأن رئيس الكهنة إنما كان يحاج دفاعاً  
عن خضوع الملوك للكهنة .

أما لويس ، الذى بن الآن راسين فى تقواه وورعه ، فلم ير بالتمثيلية  
بأسا . وواصل استقبال راسين فى انقصر رغم ما عرف عن الشاعر من  
تعاطف مع البور — رويال . ولكن فى سنة ١٦٩٨ حجب الملك رضاه .  
ذلك أن راسين ، بناء على طلب مدام دمانتون ، وضع بياناً بألوان العذاب  
الذى ابتلى بها الشعب الفرنسى فى أواخر الحكم . وفأجأها الملك وهى تقرأ  
الوثيقة ، وأخذها منها ، وانزع منها اسم كاتبها ، وأخذته سورة الغضب  
وقال « السكونه شاعراً فخلاً يحسب أنه يعرف كل شىء ؟ ألا نه شاعر كبير  
يريد أن يسكون وزيراً أيضاً ؟ » أما دمانتون فقد أكدت لراسين وهى  
تفيض فى الاعتذار له أن الزويدة ستمر سريعاً . ولقد مرت ، ومالبت راسين  
أن عاد إلى البلاط واستقبل استقبالاً كريماً ، وإن بدا له أقل حرارة من  
ذى قبل (٢٣) \* .

أما الذى قتل الشاعر فلم يكن نظرة فاترة من الملك بل خراجاً فى  
الكبد . وقد أجريت له جراحة ، وخف ألمه فترة ، ولكنه لم يكن واحداً  
حين قال : لقد أرسل الموت لى كشف حسابه (٢٦) وجاء بوالو ، وهوىشكو  
المرض ، ليلازم صديقه العليل . وقال راسين « إنى مغتبط لأنه سمح لى أن

(\*) يقول ابن راسين : « لقد عاد إلى القصر فبر مرة ، وكان على الدوام ينشرف  
بالحدوث إلى حاناته (٢٤) » أما سان — سيمون فيروى قصة غير هذه : فهو يزعم أن راسين  
فقد الحظوة لأنه انتقد ملاحى سكارون فى حفرة مدام دمانتون والملك « وهنا احمر  
وجه الأرملة المسكينة ، لا لانيلى من سمعه الرجل المشاغل ، بل لسماها اسمها بنطق به فى  
حفرة خلفه . كذلك ارتبك الملك ... وانتهى الأمر بأن صرف الملك راسين زامما أنه  
ذاهب إلى عمله ... ولم يكلم الملك لا مدام دمانتون بمدىها راسين حتى ولا نظرا إليه .  
وهذا التعليل لسخط الملك على راسين مرفوض الآن عموماً (٢٥) .

أموت قبلك (٢٧) » وكتب وصية بسيطة كان أهم فقرة فيها هذا الرجاء إلى البور - رويال :

« أود أن تحمل جثتي إلى البور - رويال - دي - شان ، وأن تدفن في مقبرته .. إنني بكل تواضع التحس من الأم الرئيسة والراهبات أن يمنحنني هذا الشرف ، وإن كنت عليماً بأنني لا أستحقه ، سواء لما شاب حياتي الماضية من مخاز ، أو لتقصيري في الإفادة من ذلك التعليم الممتاز الذي تلقيته من قبل في ذلك الدير ، وما رأيت فيه من مثل رائعة في التقوى والتوبة ... ولكن كلما ازدادت إساءتي لله ازدادت حاجتي لصلوات هذه الجماعة العظيمة الورع (٢٨) » .

ومات في ٢١ إبريل سنة ١٦٩٩ وقد بلغ التاسعة والخمسين . وأجرى الملك معاشاً على أرملته وأبنائه حتى مات آخرهم .

وتضع فرنسا راسين في صف أعظم شعرائها ، لأنه هو وكورني يمثلان أرقى ما وصلت إليه الدراما الكلاسيكية الحديثة من تطور . ولقد تقبل بناء على حض بوالو ... تفسيراً دقيقاً للوحدات الثلاث : فبلغ بذلك تركيزاً لا يبارى للوجدان والقوة من خلال مهمل واحد يقع في مكان واحد ويكمل في يوم واحد . وقد تجنب تطفل الحبكات الثانوية - وكل مزج بين المأساة والمهابة ، وأخرج العامة من مآسيه ، ولم يتناول عادة غير الأمراء والأميرات والملوك والملكات . وقد اتقى لغته من كل الألفاظ التي قد تعد نابية في الصالونات أو البلاط ، أو تكون محل استنكار في الأكاديمية الفرنسية . وشكا من أنه لا يجزئ على أن يورد في تمثيلاته عملية مبتذلة كعملية تناول الطعام ، وإن حفل بها شعر هومير وس (٢٩) ، وكان الهدف هو بلوغ أسلوب يعكس في الأدب حديث الأرستقراطية الفرنسية وطاقتها . وقد حدث هذه القيود من مجال راسين . وكانت كل درامة من دراماته قبل إستير ، على شاكلة سابقاتها - وفي كل منها كانت العواطف واحدة .

على أن راسين شارف الرومانسية في طابع المشاعر التي عبر عنها وفي حدتها ، وذلك رغم الفكرة الكلاسيكية ، فكرة العقل يطفى على الحياة . ويضبط العاطفة والحديث . وبينما نجد العاطفة في كورنبي تؤكد على الشرف ، والوطنية ، والنبالة ، نجدها في راسين تتركز إلى حد كبير حول الحب أو العاطفة المشبوبة ، ونحن نحس فيه تأثير رومانسيات دورفيه ، ومدام دسكو ديري ، ومدام دلافايت . وكان سوفوكليس أكثر من يعجب بهم من المسرحيين قاطبة ، ولكنه يذكرنا أكثر بيوربيديس ، الذي تحول فيه قصد سوفوكليس وجلال عبارته بين الحين والحين إلى إفراط في الحماسة والوجدان . وفي هاملت أو مكبث من القصد في الحديث أكثر مما في أندروماك أو فيدر . وقد أعرب راسين صراحة عن رأيه في أن « أول قاعدة » للدراما « هي أن تسر وأن تمس القلب » (٣٠) وقد فعل هذا بتعامله مع القلب ، وباختياره شخصه الرئيسيين من بين أفراد — كانوا عادة من النساء — مرهفي العاطفة ، وتحويله تمثيلياته إلى سيكولوجية العاطفة .

وقد وافق على الحظر الكلاسيكي للحركة العنيفة على المسرح ، ومن ثم أخذ نفسه بالتعبير عن العاطفة بالكلام فقط . وألقى هذا عبئاً ثقيلاً على أسلوبه ، فأصبحت المسرحية سلسلة من الخطب ، وكان استرساله في الأبيات السكندرية المتتالية — وهي ذات المقاطع الاثني عشر والقوافي المزدوجة — هذا الاسترسال أشرف بشعره على الرتبة المملة ، فنحن نفتقد في راسين وكورنبي ما يطالعنا في الشعر الإليزابيثي المرسل من مرونة ، وطبيعية ، وتنوع لا آخر له . وياله من جهد عبقرى ذلك الذي اقتضاه رفع هذا الشكل الضيق من تمثله الممل ، بقوة الأسلوب وجماله ! أن راسين وكورنبي ينبغي ألا يقرأ ، بل يجب أن يسمعا ، وحبذا أن يكون ذلك ليلاً في فناء الأنفاليد أو اللوفر .

والمفاضلة بين راسين وكورنبي هواية قديمة لدى الفرنسيين . أما مدام دسفينيه ، فأنها بعد أن شهدت « بايزيد » وقبل أن تمثل — إفجينى

أوفيدر — انحازت إلى كورني بحماسة للسألفة • وقد تنبأت في تهور ،  
ولكن ربما بحق ، بأن :

« راسين لن يستطيع أبدا أن يتجاوز .. أندروماك ... فتمثلياته مكتوبة  
للأنسة شانمسليه . . وسوف يتضح حين يكبر ، ويكف عن الحب ، هل  
أخطأت الحكم أم أصبت . إذن فليعش صديقنا كورني طويلا ، واغتفر له  
الآبيات الرديئة التي نصادفها في شعره من أجل تلك الفقرات الإلهية التي  
كثيراً ما تنتشى بها » . . .

وهذا على العموم رأى كل ذى ذوق سليم (٣١) • ولكن فولتير الذي  
اضطلع بنشر أعمال كورني والتعليق عليها ، صدم الأكاديمية الفرنسية بنقده  
لأخطاء المسرحى الكبير وفجائحاته ولغته الطغاة • كتب يقول « أعترف  
أننى بنشرى كورني أصبحت من عباد راسين (٣٢) » وقد أقر الزمن بهذه  
الأخطاء ، واغتفرها لرجل لم يحظ بما حظى به راسين من ميزة الجبى • بعد  
كورني . فالارتفاع بالدراما الفرنسية من مستواها السابق إلى مكانة « السيد »  
« وبوليوكت » كان إنجازاً أشق من بلوغ النشوات المشبوبة والجمال المنغوم  
الذى نجمده فى « أندروماك » « وفيدر • إن كورني وراسين هما  
الموضوعان الذكر والأنثى فى شعر القرن العظيم — التعبير القوى عن الشرف  
والحب • • • وعلينا أن نأخذهما معاً إن أردنا أن نحس باتساع الدراما  
الكلاسيكية الفرنسية وقوتها ، تماماً كما يجب ان نأخذ ميكلائخلو ورفائيل  
معاً إن أردنا ان نحكم على النهضة الإيطالية ، او بيتهوفن وموتسارت إن  
أردنا ان نفهم الموسيقى الألمانية فى ختام القرن الثامن عشر .

قال ديفدهيوم ، وكان اسكتلنديا حكيما ، ضليعاً فى لغة الفرنسيين  
وآدابهم ، « فى المسرح تفوق الفرنسيون حتى على اليونان ، الذين تفوقوا  
كثيراً على الإنجليز (٣٣) » وذلك حكم كان خليقاً بأن يدهش راسين ذاته ،  
الذى عبيد سوفوكليس باعتبارها الكمال مجسماً ، وان جرؤ على منافسة



يوريبيديس . وفي هذا نجاح ، وهو ما يستحق عليه الثناء حقاً . فلقد احتفظ بالدراما الحديثة على مستوى لم يبلغه سوى شيكسبير وكورنبي ، ولم بدن منه إنسان بعد ذلك سوى جوته .

#### ٤ - لافونتين : ١٦٢١ - ١٦٩٥

في ذلك العصر ، عصر الخصومات الأدبية الصارخة ، يطيب للمرء أن يسمع بتلك الصداقة المشهورة ، نصف الأسطورية ، بين بوالو ، وموليير ، وراسين ، ولافونتين — « شلة » الأصدقاء الأربعة .

أما جان دلافونتين فكان العضو المغمور بين الجماعة . ولد كأصحابه لأسرة متوسطة ، ولا غرو فالاستقراطية في شغل بفن الحياة عن الفن . وكان مسقط رأسه شاتو — تيميرى في شمبانيا ، وأبوه المدير المحلي للمياه والغابات ، لذلك شب جزءاً حساساً من الطبيعة المحيطة به ، وعشق الحقول ، والغابات ، والأشجار ، والأنهار ، وكل ساكنيها ، وتعلم طادات العشرات من أنواع الحيوان ، وتكهن في تعاطف بغاياتها ، وهوومها ، وأفكارها ، فكان كل ما عليه أن يفعله وهو يكتب أن يجري الكلام على السنة هؤلاء الفلاسفة متعددي الأرجل ، وأصبح « إيزوباً » آخر مذبذباً بقصصه الخرافية في ذاكرة الملايين .

وكانت نية أبويه أن يعداه للكهانة ، ولكن لم يكن به ميل للخوارق . وحاول ان يمارس القانون ، ولكنه وجد الشعر أيسر فهما . وتزوج فتاة غنية ( ١٦٤٧ ) وأنجب منها ولداً . ثم اتفق مع زوجته على الانفصال ( ١٦٥٨ ) وذهب الى باريس ، وأبهج فوكيه ، وتلقى من ذلك المختلس اللطيف معاشا قدره ألف جنيه ، شريطة ان يتخفه بأشعاره اربع دفعات في السنة . فلما سقط فوكيه وجهه لافونتين الى الملك التماساً شجاعاً يرجوه فيه الصفح عن رجل للمال . وكانت النتيجة انه لم يصطل قط بعدها في شمس الملك . فلما جرد من

معاشه ولم يكن لديه اى فكرة عن كسب قوته ، آوته واطعمته الدوقة دويون التى التقينا بها من قبل فى صفوف الفرونديات ، واصدر وهو مستظل بجناحها ( ١٦٦٤ ) أول كتاب فى « حكاياته » وهو مجموعه من الأقاصيص الشعرية ، مكشوفة على الطريقة البوكاشية ، ولكنها مروية فى بساطة ساحرة . ما لبثت ان جعلت نصف فرنسا ، حتى العذارى الخجولات ، يقرأنها (٥) .

وبعد قليل أسكنته مارجريت اللورينية ، دوقة أورليان الارملة ، قصر الكسمبورج بوصفه وصيفاً لها . وهناك كتب مزيداً من حكاياته ، ومن هناك دفع الى المطبعة بالكتب الستة الاولى من قصصه الخرافية ( ١٦٦٨ ) . وقد زعم انها صياغة جديدة لخرافات إيزوب اوفيدروس ، وكذلك كان بعضها ، وبعضها اخذ عن قصص الهند الاسطورية Bidpai وبعضها من خرافات فرنسا ، ولكن اكثرها خلق من جديد فى ذلك الغدير الذى يتدفق فى ذهن لافونتين وشعره . وكانت اول قصة خرافية تاخيصاً غير مقصود لحياته الخلية الطروب :

« بعد أن أنفقت الجراداة الصيف كله غناء ، ألقت نفسها حين أقبل الشتاء مملكة لاتملك ذبابه ضئيلة ولادودة حقيرة ، فضت تشكو جوعها لجارتها النملة وتسألها ان تقرضها شيئاً من الحب تقنيات به حتى يقبل الموسم الجديد . وقالت « سأرد لك دينى قبل الحصاد ، واقسم على ذلك بدين الحيوان ومصلحته ومبدئه . اما النملة فلم تكن ممن يقرضون ، وهذا اقل عيوبها . لذلك قالت للسائلة « أو ماذا كنت تفعلين فى الصيف ؟ » (٥)

---

(٥) نزل مثلاً قصة « صانع الأذان » . قالسبر وليم بندهم لقضاء مصلحته فى المدينة وترك زوجته أليكس حبلى . وبذلها قريبها أندريه بأنه يستنتج من لون وجهها أن طفلها سيولد ناقصاً أذناً . ومرض عليها أن يسكون جراحاً لها ، ويفهمها أن نوبة هرام كفيالة بترويد الطفل بالأذن النانسة . وتقبل الوصفة ، وتتناول منها عدة جرعات ، حتى ليخطر لها أن الطفل سيكون له من الأذان أكثر من اثنين . فاذا عاد وليم صحيح التوازن الأخلاقى بالغرائز ، زوجة أندريه ( ٣٤ ) .

« كنت أغنى ليل نهار لكل وافد ، فلايسؤك هذا » . « كنت تغنين : يسعدنى أن أسمع هذا . عليك اذن أن ترقصى الآن » .

كان لافونتين أحكم من ديكارت ، الذى ظن أن كل الحيوانات كائنات آلية لا تفكر ؛ فقد أحبها الشاعر ، وأحس بتفكيرها ، ووجد فيها كلها دروس الفلسفة العملية . وافتتنت فرنسا بتلقى الحكمة فى جرعات سهلة الهضم كهذه . وأصبح كاتب هذه الخرافات اكثر المؤلفين قراء فى بلاده . واتفق النقاد مرة فى حياتهم مع الشعب ، وأثنوا عليه فيمن أثنوا ؛ ذلك أنه برغم بساطته الخالصة كان عايما بالفرنسية فى لونها الرابى ورأى تحتها الترايبية ، وقد خلع على شعره من الرشاقة الطيبة ، وطرق التعبير الحلوة ، والصورة الحية المحكمة ، ماجعل كل البورجوازيين مدعى النبى فى فرنسا يغتبطون لأن حيواناتهم ، بل حشراتهم ، تنطق بالشعر طوال الوقت . قال فونتين « إني استخدم الحيوانات لتعليم الناس (٣٥) » .

وفى ١٦٧٣ ماتت مرجريت اللورينية وألغى الشاعر نفسه غارقا فى الديون ، وهو الذى كان يغنى فى غير تدبير للمستقبل ، ولم يحسن التصرف فى الأجور المتواضعة التى أتت بها كتيبه . على أنه كان اكثر حظا من جرادته ، لأن مدام دلاسا بليير ، المرأة المثقفة العطوف ، آوته وأطعمته ورعته بحمدب الأم الرعوم فى بيتها بشارع سانت - أوثورية ، وهناك طاش فى قناعة هادئة الى أن ماتت فى ١٦٩٣ . يقول إن وقته كان قسمة بين شطرين : اولهما ينام فيه ، والاخر لا يعمل فيه شيئا . ووصفه لايروبير بأنه رجل يستطيع أن ينطق الحيوان والهجر والحجر بكلام رشيق أنيق ، ولكنه (٣٦) هو نفسه كان « متبلدا ، ثقيلا » ، غبيا فى الحديث (٣٧) . على أن هناك روايات مناقضة زعمت أن فى وسعه أن يسكون محدثا مرحا إذا وجد آذانا تلائم مزاجه (٣٨) . وقد أذاعت شروود ذهه عشرات النوادر ، الأسطورية الى حد كبير . من ذلك أنه قال مرة ممتذرا عن وصوله الى العشاء متأخرا « عدت لتوى من جنازة

نملة ، وقد سرت وراء الموكب حتى المقبرة ، ثم رافقت الأسرة في رجوعها  
للبيت . (٣٩) »

وقد قاوم لويس الرابع عشر انتخابه عضوا في الأكاديمية بحجة أن حياة  
الشاعر وحكاياته لم تكن بالمثل الذي يحتذى ، ثم لانت قناته في النهاية (١٦٨٤) ،  
وقال ان لا فوتين وعد بأن يصلح من سلوكه . ولكن الشاعر الهرم لم يعرف  
فرقا بين الفضيلة والخطيئة ، انما عرف الفرق بين الطبيعي وغير الطبيعي ، فقد  
تعلم أخلاقياته في الغابات . وكان كموليير لا يشعر بأى انجذاب للبور —  
رويال ، هؤلاء « المجادلون البارعون » كما وصفهم ، الذين « تبدو لي  
دروسهم باعثة على الغم بعض الشيء » (٤٠) . وانضم حيناً إلى « شلة » أحرار  
الفكر في « التامبل » ، ولكن حين أصيب بنقطة كادت توقعه على  
الطريق ، لاح له أن قد آن الأوان ليصلح ما بينه وبين الكنيسة ، ومع  
ذلك فقد تساءل « أكان القديس أوغسطين حكيما حكمة رابليه (٤١) ؟ »  
ومات في ١٦٩٥ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وكانت مرضته على ثقة من  
خلاصه الأبدى ، لأنه على حد قولها « كان فيه من البساطة ما يجعل الله  
يتردد في الحكم عليه بالهلاك » (٤٢) .

## ٥ - بوالو : ١٦٣٦ - ١٧١١

في اللقاءات التي جمعت الأصدقاء الأربعة في شارع فيو كولومبييه كان  
فيقولا بوالو المسيطر عادة على الحديث ، وهو الذي وضع قواعد الأدب  
والأخلاق بكل سلطان الدكتور جونسون وثقته في حانة « رأس التركي »  
بمجي سوهو . وكان كجونسون محدثاً أهم منه مؤلفاً ، وخير أعماله شعر  
وسط ، ولكن أحكامه كان لها في ميدان الأدب أثر أبقي مما كان لأحكام  
لويس الرابع عشر في السياسة . وقد أعانت صداقته وتقريره الناقد لموليير  
وراسين على التغلب على مكائد الجماعات المعادية لها .

كان الطفل الرابع عشر لكاتب في برلمان باريس • وإذ كان منذور  
للكهانة فقد درس اللاهوت في السوربون • ولكنه تمرد ، ودرس القانون  
وكان على وشك الاشتغال بالمحاماة حين مات أبوه ( ١٦٥٧ ) ، خلفا لـ  
ميراثا يكفيه وهو يقرض الشعر • وأنفق عشر سنين يشحذ قلمه ، ثم راح  
يصدر أحكامه على زملائه في اثنتى عشرة هجية ( ١٦٦٦ وما بعدها ) • ذلك  
أن هذا الحشد الرهيب من النظامين الجياع<sup>(٤٣)</sup> روعه ، فهاجمه كأنه جيش من  
الجراد ، وسمى بعضهم بأسمائهم ، فخلق له أعداء بقوافيه • وجر على رأسه  
أيضا سخط النساء بسخريته من القصص الرومانسية التي كانت السيدتان  
سكوديرى ولافايت تضيغان بها ورق فرنسا ووقتها • وقد امتدح القدامى ،  
وامتدح من بين المحدثين ماليرب وراكان ، ومولير وراسين • قال « أحسبه  
من حقنا أن نسمى الشعر الرديء رديئادون أن تؤذى الضمير أو الدولة ، وأن  
يكون لنا مطلق الحق أن نستشعر الضمير من قراءة كتاب غي<sup>(٤٤)</sup> » • على  
أن هذه الأهاجى تضجرتاها الأخرى لأن هديتها قد تحقق : فالشعراء الذين  
أدانتهم هدموا هدمًا لم يبق على أثر لهم في ذا كرتنا أو في اهتمامنا ، يضاف  
إلى هذا أن أصحاب العقول الغضة منا ، لاسيما إذا كنا مؤلفين ، يؤثرون  
النقاد الذين يرشدوننا إلى الطيب على أولئك الذين يسخرون من الخبيث •  
وبعد أن ذهب بوالور في أهاجيه مذهب جوفينال الصارم ، خفف من  
غلوانه بالتزام مذهب هوراس الأكثر اعتدالا ، ووصل إلى أسلوب ألين  
في سلسلة من الرسائل ( ١٦٦٩ - ٩٥ ) • وهذه الرسائل الشعرية هي التي  
أغرت لويس بدعوته إلى البلاط • وسأله الملك ما أفضل شعره في ظنه •  
أما بوالوالدى كان يترقب فرصته الكبرى فلم يقرأ شيئا من شعره المنشور ،  
ولكنه تلا بعض شعره في مدح الملك العظيم ، وكان أبياتا لم تطبع بعد قال  
عنها إنها أقل شعره رداة • وأجازه لويس بمعاش قدره ألفسان من  
الجنهات<sup>(٤٥)</sup> ، وأصبح شخصا « مرضيا عنه » في البلاط • قال لويس  
« أحب بوالوالده سوط تأديب ضرورى نصلته على ذوق كتاب الدرجة

الثانية السقيم (٤٦) . وكما أن لويس ساند مولير في حملة على المتعصبين ، كذلك لم ينفه بأى احتجاج حين نشر بوالو ملحمة ساخرة سماها « لوتران » ( ١٦٧٤ ) ، هزأ فيها برجال الكنيسة الغافلين النهمين . وفي ١٦٧٧ عين الشاعر الهجاء مؤرخا رسميا مسع راسين ، وفي ١٦٨٤ قبل نهائيا في الأكاديمية بأمر صريح من الملك ، ورغم احتجاجات أولئك الذين سلخ جلودهم .

أما القصيدة التي طفت به فوق دوامات الزمن فهي « فن الشعر » ( ١٦٧٤ ) التي ضارعت في تأثيرها النموذج الذي نسجت على منواله ، وهو كتاب هوراس Ars poetica ، ويستهل بوالو قصيدته بتنبيه شباب الشعراء الى أن « بارناس » جبل وعز ، فليستوثقوا اذن قبل أن يشرعوا في ارتقاء جبل ربات الشعر والفن أن لديهم شيئا يستحق أن يقال ، شيئا يميز الحقيقة ويعين على الادراك والذوق السليمين . وهو يقول لهم ناصحا : نوعوا حديثكم ، فان أسلوبا بالغ التكافؤ شديد التماثل ( كأسلوب بوالو ) يحملنا على النوم ، و « حبذا الشاعر الذي ينتقل ، بلمسة رقيقة ، من الخطير الى الخفيف ، ومن السار الى العنيف » ( ٤٧ ) . « وأرهفوا آذانكم لايقاع ألفاظكم . واتبعوا قواعد ما يرب في اللغة والأسلوب . وادرسوا القدامى لا المحدثين : هومر وفرجل في شعر الملاحم ، وسوفوكليس في المأساة ، وتيرانس في الملهاة ، وهوراس في الهجاء ، وتيوقريطس في شعر الرعاة » . « اسرعوا في بطن ، وضعوا انتاجكم على السندان عشرين مرة دون أن يفت ذلك في عضدكم . . . وأضيفوا اليه قليلا ، واخذفوا منه ( ٤٨ ) كثيرا . أحبوا من ينتقدونكم ، وصححوا أخطائكم دون تذمروا أنتم تنحنون لحكم العقل ( ٤٩ ) . واعملوا للمجد ، ولا تجعلوا الكسب الخسيس هدفا لجهدكم ( ٥٠ ) . فاذا كتبتم درامات فراعوا الوحدات ، واجعلوا الفعل الواحد ، المكتمل في مكان واحد ويوم واحد ، يبق المسرح ممتلئا بمجهوره الى النهاية ( ٥١ ) . ادرسوا البلاط وتعرفوا على المدينة ،

فكلامهما غنى بالنماذج ، ولعل هذا هو السر في الفوز الذي حققه مولير  
لفنه (٥٢) .

وانضم بوالو الى مولير في السخرية من « المتحذلقات » واحتقر شعر  
الحب المتكلف الذي أضعف الشعر الفرنسي وقابل بين هذه العاطفية الكاذبة  
وبين تمجيد ديكارت للعقل وغرس الاداب القديمة لضبط المشاعر . وصاغ  
مبادئ « الأسلوب الكلاسيكي » وأجملها في بيتين شهيرين « أحبوا العقل اذن ،  
ولتقبس كتاباتكم منه بهاءها وقيمتها (٥٣) » فلازيف في العاطفة ،  
ولا انفعال ، ولا كلام طنان ، لا تحذلق ، لا تسكف ، ولا غموض التباهي  
والغرور . فالمثل الأعلى في الأدب ، كما في الحياة ، هو ضبط رواقى للنفس ،  
و « لا تزيد أو افراط » .

وقد أحب بوالو مولير ، ولكنه أسف على هبوطه الى درك المسلاة  
« الفارص » . وأحب راسين ، ولكن يبدو أنه لم يفتن الى تمجيده  
الرومانسى للوجدان ، ولم يلحظ بطلاته المتفجرات بالانفعالات - هرميون ،  
وبرينيس ، وفيدر . والمقاتل لابد مبالغ في نصيبه من الحقيقة . ولقد  
كان في بوالو من قوة المحارب ما أعجزه عن فهم ما قاله بسكال من أن للقلب  
دواعيه التي لا يفهمها الدماغ ، وأن الأدب بغير وجدان قد يكون له ملامسة  
الرغام وبرودته . لقد سمح هوراس بالوجدان فقال « إن أردتني أن أبكى »  
أي أن أحس مما تكتب ، « فعليك أن تبكى أنت أولا » أي عليك أن  
تحس أنت بالأمر . ان فن المصور الوسطى وأدبها ظلا محجوبين  
عن عين بوالو .

وكان اثر تعليمه هائلا . فقد حاول الشعر والنثر الفرنسيان التزام  
قواعده الكلاسيكية طوال قرون ثلاثة . وشاركت هذه القواعد في تشكيل  
أسلوب الأدب الانجليزي في « العصر الأغسطي » الذي قلد شاعره بوب  
في صراحة « فن الشعر » في كتابه « مقال في النقد » . وكان تأثير  
بوالوضارا ونافعا . فهو باستنكاره الخيال والوجدان ، وضع صامتا

على الشرفى فرنسا بعد راسين ، وفى انجلترا بعد درايدن . واتخذ الشرفى أفضل نماذجه شكل النحت بالازميل ، ولكنه فقد هدف التصوير ولونه . ومع ذلك كان من الخير أن يدخل هدف العقل الى ساحة الأدب المحض ، فقد كتب الكثير جدا من اللغو عن الحب والرعاة ، واحتاجت أوروبا الى احتقار بوالو الغاضب حتى تظهر ذلك الجو الأدبى ، جو السخف والتكلف والعاطفة السطحية . وربما كان الفضل لبوالو فى ارتفاع مولير من « الفارص » الى الفلسفة ، وفى محاولة راسين البلوغ بفنه الى مرتبة السكالم .

وكان مما يتلادم وطبيعة بوالو تماما مسلكه بعد أن اشترى بيتا وحديقة فى أتوى بفضل نفقة من نفقات الملك ( ١٦٨٧ ) ، فهو لم يذكر شيئا فى كتاباته عن الطبيعة المحيطة به اللهم الا أنه من تلك الحقول اتخذ الآن اسم « دسبريو » . هناك عاش أكثر ما بقى له من أجل فى هدوء بسيط ، لا يزور البلاط إطلاقا ، ويرحب ترحيبا حارا بأصدقائه . وقد لاحظ الناس ان « له أصدقاء كثيرين رغم أنه تكلم بسوء عن كل انسان ( ٥٤ ) » . وكان فيه من الشجاعة ما جعله على الإعراب عن عطفه الى البور رويال ، وعلى أن يخبر يسوعيا بأن رسائل بسكال الاقليمية احدى روائع النشر الفراسى . وقد صهر بعد موت جميع أفراد الجماعة التى كان منظرها المرموق : فولير لقي ربه منذ أمد بعيد ، ثم لحق به لافونتين فى ١٦٩٣ ، ثم راسين فى ١٦٩٩ ، وتحدث الهجاء المعجوز العليل بتأثر عن « الأعراء الذين فقدناهم ، والذين اختفوا كأنهم حلم انسان استيقظ من نومه ( ٥٥ ) » . وحين دنت منيته غادر أتوى وذهب لموت ( ١٧١١ ) فى مسكن كاهن اعترافه بصومعة النوتردام ، مؤملا ألا يجرو الشيطان على أن يمسه بسوء هناك .



## ٦ - الاحتجاج الرومانسي

لم تقبل سيدات المجتمع على القواعد الكلاسيكية - قواعد العقل ، والاعتدال ، وضبط النفس - إقبال كورني المعجوز وراسين الشاب . ذلك أن طامهن كان عالم الوجدان والرومانس ، وقد حفزت « زيجات المصلحة » التي كن يعقدنها أو هام الغرام أكثر مما صدتها . ومن ثم نرى الرواية الرومانسية تنمو - جنباً إلى جنب مع الدراما الكلاسيكية - حتى تتفخم حجماً وتلقى استحساناً واسماً وتؤثر تأثيراً دولياً . ولم تكن سيدات المجتمع في فرنسا ليشبعن من مثل هذه الروايات ، ولا كن يجدنها مفرطة في الطول ، وآية ذلك أنه حين توقف « جوتييه دلا كالبرويد » عن المضي في روايته « كليوبطرة » بعد أن كتب فيها عشرة أجزاء ( ١٦٥٦ ) ، رفضت خطيبته أن تزوجه إلا إذا ختمها بجزأين آخرين ( ٥٦ ) .

وقد استرقت الأنسة مادلين دسكوديري قلوب نصف فرنسا بروايتها « آرتامين أو كورش الكبير » ( ١٦٤٩ - ٥٣ ) ، و « كليلى » ( ١٦٥٤ - ٦٠ ) وكلاهما في عشرة مجلدات . وأشبع غرور المجتمع الفرنسي أن يجد الشخص في هذا الإنتاج الرومانسي العزيز ، تحت أسماء مستعارة ، تصف أعلام العصر وأقطابه المشهورين وتميط اللثام عنهم . وما لبثت سيدات الصالونات وسادته أن أطلقوا على أنفسهم أسماء من هذه الروايات ، وتعلموا فنون التشهد والإنكار شأن أبطالهم وبطلاتهم ، وأصبحت الأنسة دسكوديري نفسها تسمى « سافو » ، وكذلك كانت تنادى في الصالونات إلى نهاية صهرها الذي بلغ أربعة وتسعين عاماً . وقد كتبت لتسر أخاها جورج ، ونشرت كتبها تحت اسمه ، وآثرت أن ترطاه على أن تزوج . وظل سلطانها على النساء المثقفات والرجال للمطربين إلى أن غيرت مسرحيتها مولير « المتحذلقات للضحكات » و « النساء العالمات » من اتجاه الأفواق الأدبية ، وهنا حبست سادلين في هجاعة آخر مجلد من مجلداتها التسعين عن النشر ، والذين يشكون

الفراغ قد يجدون إلى اليوم في صفحات « كورش الكبير » الخمس عشرة ألف ، أو صفحات « كليلى » ، العشرة الآلاف ، فقرات تتميز بركة العاطفة ، أو تنفرد بتحليل الخلق . كذلك تستحق لا سكوديرى أن تتذكرها لما قامت به من جهد فى سبيل النهوض بتعليم النساء فى فرنسا .

وأما « ماري مادلين بيوش دلايرن » ، التى أصبح اسمها بعد الزواج الكونتيسة لافاييت ، فهى شخصية أكثر فتنة ، لأنها لم تكتب قصة رومانسية شهيرة فحسب ، بل عاشت أيضاً قصة أشهر . وقد أتيح لها تعليم مكتمل على غير العادة ، ثم ذهبت لتعيش فى أوفرن بعد زواجها ( ١٦٥٥ ) . ولسكنها حين وجدت الحياة هناك مملة اتفقت مع زوجها على الانفصال ( ١٦٥٩ ) ، وذهبت إلى باريس ، وانضمت إلى الجماعة التى تلتقى فى قصر رامبوييه . ثم أصبحت وصيفة الشرف لمدام هنرييتا ، وخلقتها بعد حين فى مذكرات تفيض محبة . وكانت قريبة وصديقة لمدام دسفينيه التى كتبت تقول فيها بعد عشرة أربعين عاماً « لم تحجب معاً صداقتنا أقل سحابة ، ولا أبلى طول الألفة من فضائلها فى نظرى ، فقد كان شذاها على الدوام فضراً جديداً ( ٥٢ ) » . وتلك تحية للطرفين قل أن تجد لها نظيراً ، لأن الصداقات تبلى كالحب الرومانسى . وسنلتقى بمزيج نادر من الحب والصداقة فى علاقات مدام دلافايت بلاروشفوكو .

وقد وقعت على الجديد الثورى حين قررت أن تبارز بقلمها الأنسة سكوديرى . ذلك أنها كتبت رواية فى مجلد واحد لا يزيد طولها على مائتى صفحة . واعتنقت مبدأ مؤداه أنه إذا تساوت كل الاعتبارات الأخرى فإن خير الكتب ما حذف أكثر ما فى نصه الأسمى ، فكل جملة تحذف تضيف جنيها ذهبياً لقيمة الكتاب ، وكل كلمة تحذف تضيف عشرين فلساً . وبعد أن نشرت أصحالا صغيرة ألفت ( ١٦٧٢ ) ونشرت ( ١٦٧٨ ) راعيتها للسهم « أميرة كليف » . وحبكة الرواية ( إن شئنا أن نخططين الاستمارات ) هى .

مثلث ذو مماس . فالآنسة شارتر فتاة بارعة الجمال ولكن في تواضع يجعل من أمير كليف عبداً لها لأول نظرة . وتنزوجه عملاً بنصيحة أمها ، ولكنها لا تشمر نحوه شعوراً أحر من الاحترام . وما يلبث دوق نيمور أن يراها فيهم بها لتوه ، وتصده هي في إحساس بالفضيلة ، ولكن الحاحه المحموم يس قلبها ، وشيئاً فشيئاً تتحول الشفقة فيها حباً . وتعترف بهذا التطور لزوجها ، وتتوسل إليه أن يبعدها عن القصر وعن التجربة ، ولكنه لا يستطيع أن يصدق أنها وفية له ، فيخترمه الهم حتى يقتله ، وكأن قرنيه الوهميين خرقا حلقة . أما الأميرة فتصعد الدوق وضميرها يبكتها على موت الأمير ، وتكرس ما بقي لها من عمر لأعمال البر . وقد علق « بيل » الشكاك على القصة بقوله : لو أن امرأة بهذا الطهر والوفاء وجدت في فرنسا لمشى ألفاً ومائتي ميل . ليراها ( ٥٨ ) .

ونشر الكتاب غفلاً من اسم المؤلفة ، ولكن سرعان ما استقر رأى الأوساط الأدبية على أنه إحدى ثمرات علاقة حميمة مشهورة آنذاك . قالت الآنسة سكوديرى : ( لقد كتب مسيو دلاروشفوكو ومدام دلافاييت رواية ... قيل لي أنها كتبت على نحو يشير الإعجاب ( ٥٩ ) ) ، ولكنها أضافت « أنهما لم يعودا في سن تسمح لهما بالاشتراك معاً في أى عمل غير هذا ( ٦٠ ) » . ولكن كلا المؤلفين المزعومين أنكر تأليف الزواية . وكتبت لاسكوديرى تقول « إن الأميرة كليف أرملة مسكينة تبرا منها أبوها وأمها » . أيا كان الأمر ، فقد أجمع الكل على أنها أروع رواية كتبت في فرنسا إلى ذلك الحين . واعترف فونتنيل بأنه قرأها أربع مرات ، وكان رأى بوالو ، عدو الرومانس ، في مدام دلافاييت أنها « ابداع عقل وافضل كاتبة بين نساء فرنسا » . ويقر التاريخ للأميرة كليف بأنها من اول الزوايات السيكلوجية وما زالت من أفضلها . وهى الرواية الفرنسية الوحيدة من روايات ذلك العصر التى ما زال فى الإمكان قراءتها دون ما ألم .

٧ - مدام دسفينيهيه

١٦٢٦ - ٩٦

ولكن بقي من آثار ذلك العصر عشرة مجلدات — من تأليف امرأة أيضا — في الامكان قراءتها في بهجة مستسلمة حتى في نبض زماننا السريع . والمؤلفة ، وهي ماري درا بوتان — شانتال ، فقدت أبويها في طفولتها وورثت ثروتهما الكبيرة . وقد شارك في تعليمها نفر من خيرة العقول في فرنسا ، ونشأتها خيرة الأسر في فرنسا على فنون الحياة . فلما بلغت الثامنة عشرة تزوجت هنري ، مركيز دسفينيهيه ، ولكن هذا الزير كان يحب مالها أكثر من شخصها ، وبدد بعضه على خليلانه ، وبارز خصما بسبب إحداهن ، وقتل في المبارزة (١٦٥٩) . وحاولت ماري أن تنساه ، ولكنها لم تتزوج بعده ، بل فرغت لتربية ابنها وابنتها . ولعلها كما أُلحح ابن عمها الحقود بوسى — رابوتان كانت ذات مزاج بارد ، (٦١) أولعلها تعلمت أن الجنس يستنزف الذات أما الامومة فتحققها . وخطاباتها تفيض سعادة ، كلها تقريبا سعادة الامومة .

ولقد أحببت المجتمع بقدر ما تشككت في الزواج . وكان لها ، وهي الارملة الشابة التي تملك ثروة بلغت ٣٥٠.٠٠٠ جنيه (٦٢) ، خطاب كثيرون من النبلاء — تورين ، وروهان ، وبوسى . . . ولم ترمعني لطردهم جميعا الا واحدا ، ومع ذلك لم تلوث سمعتها كلمة فضيحة أو علاقة محرمة واحدة . وكان اصداؤها يحبونها باخلاص أكثر صدقا — ومنهم دريتز ، ولا روشفوكو ، ومدام دلافايت ، وفوكيه . أما الأول والثاني فقد أقصيا عن القصر لاشتراكهما في حرب الفروند ، وأما الأخير فلثروته التي لم يستطع تعليمها ، ولم تلق مدام دسفينيهيه ، الوفية وفاء حارا للاربعة على السواء ، ترحيبا في الرحاب الملكية المقدسة وإن نالت كلمات متفضلة من الملك في حفلة مثلت فيها مسرحية إستير بسان - سير . أما في خارج البلاط فكانت دوائر كثيرة

تبتهج بصحبتها ، لأنها كانت تملك كل مفاتيح المرأة المنقفة ، كانت تتكلم  
بنفس الحيوية التي تكتب بها ، وذلك اطراء يناقض اطراء ألفناه أكثر  
منه ، فطالما يسدى إلينا النصح ، ربما في غير تبصر ، بأن نكتب كما نتكلم .  
وقد بقي من رسائلها أكثر من ألف وخمسمائة ، وجلها موجه لابنتها ،  
فرنسواز مارجريت . التي تزوجت الكونت دجرينيان ( ١٦٦٩ ) ،  
وسرعان ما رحلت إلى بروفاس لتعيش معه ، وكان نائباً لحاكمها . فظلت  
الأم من ١٦٧١ إلى ١٦٩٠ تبث بخطاب مع كل بريد تقريباً — وأحياناً  
مرتين في اليوم — إلى هذه الزوجة الشابة التي فصلتها عنها أرض فرنسا كلها  
طويلاً . كتبت تقول لها : ان مراسلاتي لك هي عافيتي ، ولذة حياتي  
الوحيدة ، وكل اعتبار آخر يتضاءل بالقياس إلى هذا (٦٣) . ذلك أن  
الحب الذي لم يجد رجلاً يشبعه أصبح غراماً مشبوباً بآبنة أحست أنها غير  
جديرة به ، لأن فرنسواز كانت ذات خلق أكثر تحفظاً ، ولم تعرف كيف  
تعرب عن مشاعرها بحرارة . ثم كان لها زوج وأطفال يتطلبون العناية بهم ،  
وكانت أحياناً تصبح ضيقة الخلق أو مكتئبة المزاج ، ومع ذلك ظلت طوال  
خمس وعشرين سنة ، إلا في فترات مرضها ، تكتب لأمها مرتين في  
الأسبوع ، لا يفوتها بريد إلا نادراً ، حتى لقد أطلق لأم المتيمة بها ان  
تكون قد جارت على وقت ابنتها .

وأبلغ ما في هذه الرسائل تأثيراً في النفس ما روى حياة طفلة مدام  
جرينيان البكر ونهاية هذه الحياة في الدبر . ذلك أنها قدمت باريس لتلد في  
كنف أمها . وما لبثت أن أرسلت إلى زوجها اعتذاراً لأنها ولدت بنتاً —  
لأبد من تربيتها بمجد أليم ، ومهرها بمهر غال ، ثم فقدها ، ولما طادت  
فرنسواز إلى بروفاس تركت ماري بلاش الصغيرة حيناً مع جدتها التي  
افتتنت بها . وكتبت مدام دسغنييه للآب تقول : ان كنت تريد ولداً  
طامعكف على صنعه (٦٤) ، كتبت للوالدين اللذين لم يقدر أطفالتهما تفاصيل  
نشوانة عن العجوبة التي أنجبها كارهين :

« ان ابنتكما الصغيرة تغدو محبة للنفس . . . بيضاء كالنارج ، ضاحكة على الدوام . . . ولون بشرتها ، وعنقها ، وجسدها الصغير - كلها عجيب . وهي تقوم بعشرات الحركات الصغيرة - تثرثر ، وتلاطف ، وتضرب ، وترسم علامة الصليب ، وتطلب العفو ، وتنحني ، وتقبل يدها ، وتهز كتفها ، وترقص ، وتتملق ، وتشد الأذن . . . وأنا ألهمومها ساعات بطواما (٦٥) » .

وقد ذرفت الجدة دموا كثيرة لتدع هذه العجيبة الريانة البدن تذهب الى بروفانس ، ودموا أكثر حين أودعها الأبوان ديرا وهي لم تتجاوز الخامسة . ولم تعد الطفلة بعدها ، ففي الخامسة عشرة قطعت على نفسها عهد الرهبنة واختفت من العالم .

وكان نائب الحاكم رجلا متلافا ، يولم الولاثم فوق ما يسمح به مركزه . وكانت زوجته تنبئ أمها بانتظام بما تتوقعه من قرب إفلاسهما ، أما الأم فكانت توبخهما في محبة وترسل لهما المبالغ الكبيرة من المال « كيف ، بحق محبة الله والناس ، يستطيع انسان أن يحتفظ بهذا القدر الكبير من الذهب والفضة والحلى والأثاث وسط الفقر المدقع الذي ابتلى به من يحيط بنا من الفقراء في هذه الأيام (٦٦) » . ورغبة في الاحتفاظ بقدرتها المالية بعد هذه الاستقطاعات ، كانت مدام دسفينيه تعنى بتتقيد أملاكها في لي روشيه باقليم بريتنى لتستوثق من أنها تلقى الرماية الواجبة ، ومن أن ريعها يصلها بعد اختلاسات معقولة . ووجدت سعادة جديدة في الحقول ، والغابات ، وفلاحى بريتنى ، وكتبت عنهم بنفس الحيوية التى كتبت بها عن المجتمع الباريسى الذى كانت له أشبه برسالة نصف أسبوعية لابنتها .

وكان ابنها مشكلة من نوع آخر . فهي شديدة التعلق به لأنه فتى طيب ، يملك كما قالت « معينا من الذكاء وروح الفكاهة . . . وقد ألف أن يقرأ علينا فصولا من رابليه يسكاد يموت السامع من الضحك عليها » (٦٧) . وكان شارل ابنا مثاليا ، الا اذا استثنينا ترميمه خطى أبيه في التنقل من اغراء إلى اغراء ، الى أن - ولكن لنضع مدام دسفينيه ، وهي تكتب

لا ينتها ، تتحمل تبعه باقى القصة ، فلا شىء أكثر ايضا للطابع العصر :  
 « بقيت كلمة أو كلمتان عن شقيقك . . . فبالأمس أراد أن يقص على  
 نبأ حادث مروع وقع له . ذلك أنه صادف لحظة سعيدة ، ولكن حين  
 وصل إلى بيت القصيد — كان شيئاً عجيباً ! فإن الفتاة المسكينة لم يرفه عنها  
 أحد فى حياتها قط بمثل هذا . أما الفارس فقد تقهر بعد أن هزم شرهزيمة ،  
 وظن أن سحرا التى عليه ، وألطف ما فى القصة أنه لم يشعر بالراحة إلا بعد  
 ان انبأنى بكارثته . وضحكنا عليه حتى استلقينا ، وقلت له اننى مغتبطة  
 جداً لأنه عوقب حيث أثم . . . . . لقد كان منظرا يستحق أن يسجله  
 مولير (٦٨) » .

وأصيب الفتى بالزهرى ، فعنفته ، ولكنها مرضته فى حب . وحاولت  
 أن تبث فيه شيئاً من الدين ، ولكن نصيبها من الدين كان من الضلالة  
 بحيث لم تستطع أن تعطيه الكثير منه . وقد تأثرت بمواعظ بوردالو ،  
 وخبرت دقات فجائية من التقوى ، ولكنها كانت تبتم حين ترى المواكب  
 الدينية التى أبهجت أهل المساكن الفقيرة . وقرأت آرنو ، ونيكول ، وبسكال ،  
 وتعاطفت مع البور — رويال ، ولكن صدها تركيزهم على تجنب الهلاك  
 الأبدى ، ذلك أنها لم تستطع أن تقنع نفسها بالإيمان بالجحيم (٦٩) . وكانت  
 على العموم تجفل من التفكير الجاد ، فمثل هذه الأمور ليست للنساء ، ومن  
 شأنها أن تعكر جمال الحياة الوادعة . ومع ذلك كانت ذواقه فى قراءتها —  
 تقرأ فيرجل وناسيتوس والقديس أوغسطين باللاتينية ، ومونتيني بالفرنسية ،  
 وتعرف مسرحيات كورنبي وراسين معرفة وثيقة . أما فكاهتها فكانت  
 أعمق وأبهج من فكاهة مولير . فلنستمع إليها تتحدث عن صديق مدمون  
 للتأمل الشارد :

« انقلب برانكا قبل أيام فى مصرف وجد نفسه فيه مرتاحا جداً حتى  
 لقد سأل من سارحوا ليخرجوه منه أبهم حاجة إلى خدماته . وقد كبرت  
 نظارته ، ولولا أن حظه كان خيراً من حكمته لكسر رأسه أيضاً ، ولكن  
 هذا كله لم يقطع تأملاته قط . وقد أرسلت له كلمة هذا الصباح . . . أبته

فيها أنه انقلب وكاد عنقه يدق ، لأنني اعتقدت أنه للشخص الوحيد الذي لم يسمع بالحادث في باريس (٧٠) .

وهذه الرسائل في مجموعها تؤلف صورة من أكثر الصور كشفنا في الأدب ، لأن المركيزة تسجل فيها أخطاءها وفضائلها دون تحفظ . فهي الأم المحبة ، التي تجدد نفسها على سجيبتها سواء في صالونات العاصمة أو في حقول بريتي ، وهي تكتب لابنتها عن أتفه أحاديث الاستقراطية وقيلها وقالها ، ولكنها تقول أيضا « إن الليل ، والوقواق ، والهزار — كلها بدأت تصدح في ربيع الغابات » ، وتندر أن تفوه بكلمة سوء عن مئات الأشخاص الذين يرفون خلال صفحاتها الألفين ، وهي على الدوام مستعدة لمديد المعونة للمكرويين ، مجلة حديثها بالرقيق من التحية والمجاملة ، مذبذبة بين الحين والحين بالمرح القاسي ( كضحكها على شفق بعض المتمردين الساكنين في برتي ) ، ولكنها مرهفة الاحساس بالأم الفقراء ، وهي تغض عن فساد زمانها وطبقتها ، ولكنها بلا لوم في سيرتها الشخصية ، إنها روح تفيض بالنية الطيبة وحب الحياة ، فيها من التواضع ما يمنعها من نشر كتاب ، ولكنها تكتب أفضل فرنسية في عصر أفضل فرنسية كتبت على الإطلاق .

تري هل خطر ببالها أن رسائلها قد تنشر يوما ما ؟ كانت أحيانا تترسل في تحقيقات من البلاغة كأنها تشم مداد المطابع ، غير أن رسائلها حافلة بتفاصيل العمل ، وبالمصارحات العاطفية ، والمكاشفات المخرجة التي لا يمكن أن تكون قصدت إذاعتها على القراء . كانت تعلم أن ابنتها تطلع أصدقاءها على رسائلها ، ولكن مثل هذه المشاركة كانت كثيرة في تلك الأيام ، حين كادت المراسلة أن تكون وسيلة الاتصال الوحيدة بين المسافات الطويلة ، وقد ورثت وحفظت الرسائل حفيدتها بولين ، التي منعتها من أن تدخل ديرا كما فعلت شقيقتها بلاش ماري ، ولكنها لم تنشر إلا عام ١٧٢٦ ، بعد موت المركيزة بثلاثين عاما . وهي اليوم من أغلى هيون الأدب الفرنسي . وكانت باقية زهر غنية بزاد عبيرها انتشارا على الأيام .



وازداد تفكيرها في الدين كلما دنت نهايتها ، وقد اعترفت بخوفها من الموت والحساب . وبين ضباب بريتنى ومطر باريس أصابها الروماتزم ، ففقدت فرحتها بالحياة ، وأدركت أنها بشر فان .

« لقد ولجت الحياة دون رضاي ، ويجب أن أخرج منها ؛ هذه الفكرة تطغى على . . . وكيف أخرج . . . ومتى ؟ . . . اننى أودفن نفسي في هذه الأفكار ، وأجد الموت شديد الرهبة حتى لا بغض الحياة لأنها تفضى بي إلى الموت أكثر من بغضى لها لما يملؤها من أشواك . يستقولين اننى أريد أن أحيى إلى الابد . ليس الأمر كذلك مطلقا ، ولكن لو أخذ رأيي لآثرت أن أموت بين ذراعى مربيتى ، فقد كان هذا خليقا بأن يوفر على اضطرابات الروح ويكفل لى الجنة فى كل يقين ويسر (٧١) » .

وليس صحيحا أنها ابغضت الحياة لأنها تفضى إلى الموت ، إنما هى أبغضت الموت لأنها استمتعت بالحياة استمتاعا شديداً قرابة سبعين عاما . وإذا كانت أمنيتها أن تموت فى بيت ابنتها الحبيبة ، فإنها عبرت فرنسا خلال أربعمئة ميل فى رحلة عذاب إلى شاتو جرينيان . فلما أقبل الموت لقيته بشجاعة أدهشتها ، ووجدت العزاء فى تناول الاسرار المقدسة ، وعلت نفسها بالخلود . ولقد وهب لها الخلود حقاً .

## ٨ - لا روشفو كو : ١٦١٣ - ٨٠٠

شتان ما بين هذا الروح ، وروح أشهر الكلبيين المحدثين ، وأقصى من مزق القناع عن نقائصنا ، ذلك العليل المكتئب الذى شوه سمعة النساء وافترى على الحب ، والذى أحبطته ثلاث نساء حتى الموت .

كان البيل السادس المسمى فرانسوا دلا روشفو كو ، سليل أسلاف كثيرين من الأمراء والكونتات ، والابن البكر للرئيس الأكبر لإدارة الملابس والحلى لأمملكة والوصية مارى دمديتشى .

وكان اسمه الأمير مارسياك إلى أن ورث لقب الدوقية عند وفاة أبيه ( ١٦٥٠ ) . وقد تلقى التعليم في اللاتينية والرياضيات والموسيقى والرقص والمبارزة والأنساب والانيكيت . فلما ناهز الرابعة عشرة تزوج بتدبير أبيه من أندريه دفيفون ، الابنة الوجيهة والوريثة لبازبارفرنسا الكبير المتوفى . وحين بلغ الخامسة عشرة أمر على فوج من الفرسان ، وفي السادسة عشرة اشترى رتبة السكولونيل . وكان يختلف إلى صالون مدام درامبوييه الذي هذب عاداته وصقل أسلوبه . ومع كل مثالية الشباب وإيمانه للنساء الناضجات نراه يعشق الملكة ، ومدام دشفروز ، والآنسة دهورتفور . وحين تأمرت آن المساوية على ريشليو استخدمت فرانسوا ، ثم كشف أمره ، وأودع بالاستيل أسبوعاً ( ١٦٣٦ ) . فلما أفرج عنه سريعا نفى إلى ضيعة أسرته بغير توى . وراض نفسه حيناً على العيش مع زوجته ، ولأعب ولديه الصغيرين فرانسوا وشارل ، وتعلم أن للريف مباهج لا تستطيع فهمها غير المدينة .

في تلك الأيام لم يكن ممكناً فصم عرى الزواج الشرعى بين الطبقات العليا الفرنسية ، والسكن كان من الممكن تجاهلها . وبعد أن قضى الأمير عشر سنوات في زواج المرأة الواحدة الذى أضجره ، انطلق للمغامرة في الحب والحرب . وحين استهدفت عيناه مدام دلوينجيل ( ١٦٤٦ ) لم يعد دافعه إلى ذلك حب مثالى ، بل تصميم على الاستيلاء على قلعة منيعة مشهورة ، لأنه مما يرفع من قدره أن يغوى زوجة لدوق وأختا لسكونديه العظيم . أما هى فلعلها ارتضته لأسباب سياسية ، فقد يكون حليفاً نافعا في التمرد الاستقراطى الذى اعتزمت أن تلعب فيه دوراً نشيطاً . ولما أخبرته أنها حبلى منه ( ٧٢ ) ، منح كل تأييده للفروند . وفي ١٦٥٢ نبذته واتخذت الدوق زيمور عشيقاً ، وحاول لاروشفوكوا قناع نفسه بأن ذلك ما كان يصحبوا له ، وكما قال بعد ذلك « حين نحب إنساناً إلى درجة الملل . . . فإننا نرهب أشد الترحيب . . . بفعل من أفعال الخيانة يبرر تحملنا من ذلك الحب » ( ٧٣ ) . في ذلك العام ، وفيما كان يحارب في صفوف الفروند في ضاحية

سأنت أنطوان ، أصابه رش بندقية في عينيه وخلف به صمى جزئيا . فانسكفاً راجعا إلى فيرتوى .

وكان الآن في الأربعين ، يحس بواحد النقرس ، ويشعر للمرارة من كوارث أكثرها من صنعه . أما مثاليته فماتت في إثر مدام دلو لمجفيل ، وفي مؤامرات الفروند الخداعة والنهاية الحقيرة التي انتهت إليها . وقد أزعجى فراغه ودافع عن سيرته في « مذكرات » ( ١٦٦٢ ) دل فيها على عظيم تمكنه من الأسلوب الكلاسيكى . وفي ١٦٦١ سمح له بالعودة إلى البلاط ، ومنذ ذلك التاريخ قسم وقته بين زوجته في فيرتوى وأصحابه في صالونات باريس .

وكان أحب الصالونات إليه صالون مدام دسابلية . هناك كانت هي وضيوفها يلعبون أحيانا لعبة « العبارات » . يعلق أحدهم بعبارة على الطبيعة البشرية أو سلوك الإنسان ، فتتقاذف الجماعة العبارة فيما بينها تأييداً واعتراضاً . وكانت مدام دسابلية جارة وصديقة مخلصنة للبور — رويال — دبارى ، فاعتنقت رأيه في شر الإنسان الفطرى وخواء الحياة الدنيوية ، ولعل تشاؤم لاروشفوكو الناجم عن خيئته في الحب والحرب ، وعن الخيانة السياسية والألم البدنى ، وعن خدعه غيره وأنخداعه بالغير — نقول لعل هذا التشاؤم وجد مساندة قليلة من جانسانيه مضيفته . وكان يجد لذة قائمة في تهذيب عباراته وعبارات غيره وغربلتها على مهل ، وسمح لمدام دسابلية وغيرها من الأصدقاء بأن يقرءوا هذه الحكم ، وأن يعدلوا فيها أحيانا . وقد نسخها أحد هؤلاء ، وطبع ناشر لص هولندى ١٧٩ منها ، غفلا من اسم المؤلف ، حوالى سنة ١٦٦٣ ، وتبين فيهارواد الصالونات حكم لاروشفوكو ، ثم أصدر المؤلف نفسه طبعة أفضل اضاف إليها ٣١٧ مثلاً عام ١٦٦٥ تحت عنوان « عبارات وأمثال اخلاقية » . وأصبح هذا السكتيب الذى اختزل الناس اسمه بعد قليل إلى « الأمثال » ، من عيون الأدب للتو تقريبا . ولم يعجب القراء بأسلوبه الدقيق المحكم الأنيق فحسب ، بل إنهم استمتعوا بما حوى

من فضح لأثرة الغير ، ولم يفتنوا إلى أن القصصة إنما تروى عنهم ،  
إلا فيما ندر .

ووجهة نظر لاروشفوكو أوردها ثانياً أمثاله : « إن حب الذات هو  
حب الإنسان لنفسه ، ولأى شيء آخر لأجله . وحياة الإنسان كلها ليست  
إلا ممارسة متصلة لهذا الحب وتحريضاً قويا له ، وليس الغرور إلا شكلاً من  
الأشكال الكثيرة التي يتخذها حب الذات ، ولكن حتى هذا الشكل يدخل  
في كل فعل وفكر تقريباً وقد تنام شهواتنا أحياناً ، ولكن غرورنا  
لا يهدأ أبداً » ان الذي يرفض الثناء أول مرة يرفضه لأنه يريد سماعه  
ثانية (٧٤) . والتلف على استحسان الناس لنا هو الأصل لكل الأدب  
والبطولات الواعية . « وكل الناس يستوون كبرياء ، والفرق الوحيد هو  
أهم لا يتبعون كلهم نفس الطرق في إبدائها (٧٥) » . « ان الفضائل تضيع  
في للأصلحة الذاتية كما تضيع الانهار في البحر (٧٦) » . « ولو تأملنا أفكارنا  
الخفية لوجدنا في صدورنا بذرة كل الرذائل التي نستنكرها في غيرنا »  
ولا استطعنا أن نحكم من واقع فسادنا الشخصي على الفساد المتأصل في  
الإنسان (٧٧) . وما نحن إلا عبيد شهواتنا ، وإذا قهرت شهوة منها  
فقاهرها ليس العقل بل شهوة أخرى (٧٨) ، « والعقل يستغفله الوجدان  
دأماً » ، « والناس لا يشتهون شيئاً بلهفة إذا طلبوه انصياعاً لا وافر العقل  
فقط (٧٩) » ، « وابسط الناس إذا أمانته العاطفة المشبوبة سينتصر أكثر من  
أفصح الناس بدونها (٨٠) » .

وفن الحياة يسكن في إخفائنا حب ذواتنا بقدر يسكن في لنجنب إغصاب  
حب الغير لذواتهم . وعلينا أن نتظاهر بقدر من الإيثار « إن النفاق ضرب  
من الاحترام الذي تقدمه الرذيلة للفضيلة (٨١) » ، واحتقار الفيلسوف  
للزعم وللثراء أو عراقة النسب ليس إلا طريقته في الترويج لبضاعته .  
وما الصداقة « إلا تجارة لا يفتأ حب الذات بطلب الكسب من ورائها (٨٢) »  
وقد نقيس إخلاصها إذا لاحظنا أننا نجد في نكبات أصدقائنا شيئاً ليس كله

مسيئاً (٨٣) . ونحن نبادر إلى الصفح عن أساءوا إلينا بأسرع من صفحنا  
عن أسأنا إليهم ، أو عن تفضلوا علينا — فأثرونا — بخدماتهم (٨٤) .  
والمجتمع حرب بين الفرد والكل . « والحب الصادق أشبه الاشباح — شيء  
يتحدث عنه كل انسان ولكن نادرا ما رآه أحد (٨٥) » ، و « ما كنا  
لنقع في الحب قط لولا سماعنا الناس يتكلمون في الحب (٨٦) » . ومع ذلك  
فالحب إذا كان صادقا تجربة فيها من العمق ما يجعل النساء اللاتي عرثن الحب  
مرة ضحيقات القدرة على الصداقة ، لأنهن يجدنها باردة غثة بالقياس إلى  
الحب (٨٧) ومن هنا لم يكن للنساء وجود تقريبا إلا وهن في الحب « قد  
تلقى نساء لم يسبق لهن غرام قط ، ولكن من العسير جدا أن تجد نساء لم  
يقعن إلا في غرام واحد لا أكثر (٨٨) » . « وأكثر النساء المحصنات  
كالكنوز المخفأة ، التي لم تكن في مأمن إلا لأن أحدا لم يفتش  
عنها (٨٩) » .

وكان هذا السكبي العليل عليما بأن هذه الحكم البارة ليست وصفا  
منصفيا للبشر . لذلك راح يتجنب الجزم في الكثير منها بألفاظ مثل « تكاد »  
أو « تقريبا » إلى غير ذلك من التحفظات الفلسفية ، وقد اعترف أنه « أسهل  
أن يعرف المرء النوع الإنساني عموما من أن يعرف انسانا واحدا  
بالذات (٩٠) » ، وسلمت المقدمة بأن أمثاله لا تصدق على « المحظوظين القلائل ،  
الذين سرت السماء بأن تحفظهم . . . بنعمة خاصة (٩١) » . ولا بد أنه سلك  
نفسه في زمرة هؤلاء القلائل ، لأنه كتب : « انني أخلص لأصدقائي إخلاصا  
لا أتردد معه لحظة في التضحية بمصالحى في سبيل مصالحهم (٩٢) » . — ولو أنه  
كان بلا شك يفسر هذا بأنه راجع لأنه يجد في بذل مثل هذه التضحية لذة  
أكثر مما يجده في منعها . وقد يتحدث بين الحين والحين عن « عرفان الجميل ،  
فضيلة العقول الحكيمة السمحة (٩٣) » ، و « الحب ، النقي الذي لا تشوبه  
شهوة (إذا وجد إطلاقا) ، الذي يكمن في أعماق قلوبنا (٩٤) » . ومع أنه  
يمكن القول ، بقدر كبير من الصدق . . . ، ان الناس لا يفعلون شيئا دون  
١٦ — قصة الحضارة

مراعاة لمصلحتهم ، إلا أنه لا يستتبع هذا ان كل ما يفعلونه فاسد ، وأنه لم يبق في الدنيا شيء اسمه العدالة أو الأمانة . فالتاس قد يحسبون أنفسهم بوسائل شريفة ، ويختطون (لأنفسهم) مصالح كلها الخير والنبيل (٢٠) .

وقد ألانت الشيخوخة جاب لاروشفوكو ، حتى وهى تزیده شجننا على شجن . ففى ١٦٧٠ ماتت زوجته بعد ثلاثة وأربعين عاما من الوفاء الصابر ، وبعد أن أنجبت له ثمانية أطفال ، وقامت على تربيته طوال الأعوام الثمانية عشر الأخيرة . وفى ١٦٧٢ ماتت أمه ، وقد اعترف أن حياتها كانت معجزة طويلة من المحبة . وفى تلك السنة جرح اثنان من أبنائه فى غزوة هولندية ، ومات أحدهما من جروحه . كذلك سقط فى نفس الحرب الفاجرة ابنه غير الشرعى الذى ولدته له مدام دلونجفيل ، والذى لم يؤذله بأن يطالب به ابنا برغم أنه أحبه حبا عميقا . روت مدام دسفينيه « رأيت لاروشفوكو يبكى فى حنان جملني أعبد (١٩٦) » . ترى أكان حبه لأمه وأولاده حبا لذاته ؟ أجل ، إذا نظرنا إليهم على أنهم جزء من ذاته وامتدادا لها . وهذا هو التصالح بين الإيثار والآفة — فالإيثار توسيع للذات ، ولحبة الذات ، للأسرة ، أو الأصدقاء ، أو الجماعة . وفى وسع المجتمع أن يقنع بمثل هذه الأنانية السمجة الشاملة .

ومن أكثر ملاحظات لاروشفوكو سطحية قوله « ان فضل القليل من النساء يدوم أطول من جاهلن (٢٧) » . لقد كانت أمه وزوجته استثنائين ، ولم يكن من السكرم تجاهل آلاف النساء اللاتى ضيعن جاهلن الجسدى فى خدمة الرجل والأطفال . وفى ١٦٦٥ بذلت له امرأة ثلاثة معظم حياتها . ولا شك فى أن مدام دلافايت أرضت قلبها هى وهى تحاول أن تسرى عنه . فلقد كان يومها فى الثمانية والخمسين ، يشكو والنقرس ونصف العمى ، أماهى فسكات فى الثالثة والثلاثين ، محتفظة بجمالها ، ولكنها على تشكوهمى اللاريا . ولقد روعها ما فى امثاله من كلبية ، ولعل فسكرة سارة بإصلاح هذا الرجل الشقى والتسرية عنه خالطت رأيها فيه ، فدعته الى بيتها فى باريس ،

نجاه محمولا على محفة ، فمضت قدمه الموجهة ووسدتها ، وأتت بأصحابها ، ومنهم مدام دسفينيه المتدفقة العاطفة ليساعدنها في الترويح عنه . وعاد إليها ثانية ، وكثرت زياراته حتى لغت بها باريس . ولا علم لنا هل دخلت في هذه الزيارات الألفة الجنسية ، ولكنها على أية حال كانت جزءاً صغيراً في علاقة أصبحت تبادلاً بين الأرواح . قالت « لقد أعطاني الفهم ، ولكنها أصلحت قلبه (٩٨) » . ولعله ساعدها في روايتها « أميرة كليف » وان بعدت رقتها وحنانها عن قسوة « أمثاله » يعد السماء عن الأرض .

وبعد أن ماتت مدام دلا روشفوكو أصبحت هذه الصداقة التاريخية ضربة من الزواج الروحي ، وفي الأدب الفرنسي صور كثيرة لهذه المرأة القصيرة الضعيفة الجسد ، تجلس في هدوء إلى جوار الفيلسوف المعجوز الذي أقعده الألم عن الحركة . قالت مدام دسفينيه « لا شيء يمكن أن يقارن بسحر صداقتهما وثقتها (٩٩) » . وقال بعضهم ان المسيحية تبدأ حيث ينتهى لاروشفوكو (١٠٠) ، وقد تبينت صحة القول في هذه الحالة ، ولعل مدام دلافايت الصداقة الورع أقنعت به بأن الدين هو الكفيل بالإجابة عن مشكلات الفلسفة . ولما شعر بدنو أجله طلب إلى الأسقف بوسويه أن يناوله الأسرار المندسة الأخيرة (١٦٨٠) . وقد صمرت صديقته بعده ثلاثة عشر عاماً حاملة بالألم .

## ٩ — لارويير ١٦٤٥٠ — ٩٦

بعد موت لاروشفوكو بثمانية أعوام أكد جان دلا بروير تحليله الساخر للأدبيين من أهل باريس . وكان جان ابن موظف صغير في الحكومة . درس القانون ، واشترى وظيفة حكومية صغيرة ، وأصبح معلماً خاصاً لحفيد كوندية العظيم ، وخدم أسرة كوندية وصيفاً ، وتبعها إلى شانتى وفرساي . وقد ظل أعزب إلى نهاية حياته .

وقد عذبتة حدة الفوارق الطبقيّة في فرنسا لما فطر عليه من حساسية

وحياة، ولم يستطع الاستعانة بمظاهر الغرور الطيفية التي ربما كانت تيسر له طريقه بين النبلاء وفي البلاط، وذلك رغم انتمائه الى الطيفه الوسطى . وقد لاحظ معرض الوحوش الملكى بعين معادية نفاذه، وانتقم منها بوصفها فى كتاب صب فيه كل عصارتة الفكرية تقريبا، وقد سماه « الاخلاق لتيوفراست مترجمة عن الاغريقية، مع اخلاق أو طادات هذا العصر ». وأصبح الكتاب حديث باريس، لانه صور تحت أقنعة شفافه أشخاصا مشهورين فى المدينة أو البلاط، وجعل كلا منهم يحدد المتعة البالغة فى فضيح الباقيين . ونشرت « مفاتيح » للكتاب تزعم انها تطابق الصور مع اصولها، واحتج لا يروبير بأن أوجه الشبه طارئة، ولكن أحدا لم يصدق، وذاع صيته، ونفدت ثمانى طبعات قبل موت المؤلف فى ١٦٩٦، وقد اضاف الى كل طبعة « أخلاقا » جديدة تبينت فيها باريس مرآة العصر .

ونحن الذين فقدنا اليوم مفتاح متحف الصور هذا تبدولنا مادته هزيلة بعض الشيء، وأفكاره قديمة مبتذلة، وروحه يشوبها بعض الحسد، وهجاؤه سطحيًا جدًا، كهجائه لمينا لكاس الرجل الشارد الذهن (١٠١) . ولا يطلب لا يروبير أى تغيير فى دين فرنسا أو حكومتها . وقد رأى أن من الخير أن يكون هناك فقراء، والا لكان العثور على الخدم عسيرا، ولما وجد أحد يستخرج المعادن أو يفلح الأرض، والخوف من الفقر لاغنى عنه لانتاج الثروة (١٠٢) . وكان يسلك بوسويه فى عداد أصدقائه مناخرا بذلك، وقد أطاد فى القسم الأخير من كتابه ( « فى أحرار الفكر » ) الحجج التى أعرب عنها الواعظ العظيم بحكم أفضل ونثر أرفع، وردد البراهين التى ساقها ديكرت عن الله والخلود، واستشهد بشيء من الحذق، فى رده على اللأدرين فى زمانه، بنظام السماوات وجلالها، وعلامات الهدف المرسوم فى الكائنات الحية، والاحساس بتقرير المصير فى الارادة وباللامادية فى الذهن . وهاجم غرور النبلاء، وجشع رجال المال،



وخنوع الحاشية الذين صورهم ينظرون الى لويس لا الى المذبح في كنيسة  
فرساي ، ولكنه حرص على أن يقدم للملك باقات زهر يتقى بها  
غضبه (١٠٣) . وفي فقرة واحدة على الأقل ازاح الحذر جانبا وتسامى  
في جرأة ليصف درك الهيمنة الذي تردى فيه «لاحو فرنسا من جراء  
حروب الحكم وضرائبه . يقول : « انتشرت في أرجاء الريف حيوانات  
ضارية ، ذكور واناث ، سوداء ، ممتعة ، أحرقتها الشمس تماما ، والتصفت  
بالأرض التي تحفرها وتقلبها في اصرار لا يقر ، ولها ما يشبه الصوت  
المنطوق ، فاذا انتصبت على قوائمها بدت في سحنة البشر ، والواقع انها  
ناس من الناس (١٠٤) » .

وما زالت هذه الصفحة من أبلغ ما كتب في عصر فرنسا الكلاسيكي .

## ١٠ — مزيد من الأدباء

هل نحشد الآن بغير نظام ، بعد أن أصابنا الاعياء ، في ملحق هياب  
بعض الخالدين الذين بدأوا يموتون ؟

هناك جان شابلان ، الذي أعان على تنظيم الأكاديمية الفرنسية ،  
واعتمر في زمانه ( ١٥٩٥ — ١٦٧٤ ) أشعر شعراء فرنسا . وهناك جان  
باتيست روسو ، الذي كتب شعرا ينسى ، ولكنه كتب أيضا إيجرامات  
مقذعة جرت عليه النفي من فرنسا ( ١٧١٢ ) عقابا على تشهيره بالأشخاص .  
وقد كتب معظم النبلاء الذين اشتغلوا بالسياسة مذكرات ، فرأينا  
مذكرات دربنز ولاروشفوكو ، وسنرى في موضع لاحق مذكرات  
سان — سيمون . ويلى أولئك مرتبه تلك المجلدات الثلاثة التي سجلت  
فيها مدام دموتفيل بتواضع خلاب وقائع سنيها الاثنتين والعشرين التي  
قضتها في بلاط آن النمساوية . ونلاحظ أنها وافقت لاروشفوكو على رايه  
اذ كتبت « ان تجربتي القاسية في صداقة البشر الزائفة أكرهتنى على  
الايمان بأنه ليس في الدنيا شيء أندرج من الأمانة والاستقامة ، أو من

القلب الطيب القادر على عرفان الجميل (١٠٥) . « لقد كانت هي هذا الانسان النادر الوجود .

وقد حقق روجيه درابوتان ، كونت بوسى ، نجاحا فى دينا الفضائح بكتابه « تاريخ غراميات الغاليين » ( ١٦٦٥ ) الذى وصف غراميات معاصريه مستغفية وراء قدامى الغاليين . وغضب الملك لكونه سخر فيها من مدام هنرييتا ، فزج به فى الباستيل ، ثم افرج عنه بعد مئة شريطة أن يمتكف فى ضيعته ، وهناك ألف « مذكراته » النابضة بالحياة ، والغيظ يبريه إلى نهاية حياته . وأقل من هذا الكتاب جدارة بالتصديق كتاب « الأناصيص » الذى رسم فيه تالمان دى ريو صوراً موجزة خبيثة لشخصيات شهيرة فى الأدب أو الغرام . وقد جاهد كلود فلورى ، بكتابه الامين « التاريخ الكنسى » ( ١٦٩١ ) ، وسباستيان تيلمون بكتابه « تاريخ الأباطرة » ( ١٦٩٠ وما بعدها ) ، وكتابه « مذكرات ينتفع بها فى التاريخ الكنسى للقرون الستة الأولى » ( ١٦٩٣ ) ذى الستة عشر مجلدا — هذان جاهدان فى معاناة ، ودون وعى منهما ، ليمهدا الطريق وينقياه لكتاب جييون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » ( ١٧٧٦ وما بعدها ) .

ثم هناك أخيرا شارل دماركتيل شريف سانت — افريمون الذى كان ألطف تلك « العقول القوية » التى صدمت الكاثوليك والهييجونوت ، واليسوعيين والجانسين على السواء ، بالتشكك فى التعاليم الأساسية لإيمانهم المشترك وكانت حياته العسكرية الحافلة بالمغامرات تقوده إلى عصا الماريشالية حين غضب عليه الملك لأنه كان صديقا لفوكيه وناقدا لمازاران . فلما نعى إليه أن قد تقرر القبض عليه فر إلى هولندية ، ثم إلى إنجلترا ( ١٦٦٢ ) . وقد جعلته عاداته المهذبة وذاؤه الشكاك أثيرا فى صالون هورتنزي مانشيني بلندن ، وفى بلاط تشارلز الثانى . وكان كالماريشال دو كينسكور ، فى واحد من أكثر حواراته مرحا ( ١٠٦ ) ، يحب الحرب أولا ، ثم النساء ، ثم الفلسفة . وإذ رشف كل للباهج التى فى مونتيني ، ودرس أبيقور مع جاسندى ، فقد

خلص مع الاغريق للمغترى عليه إلى أن لذة الحس طيبة ، ولكن لذة الإسكر  
أطيب ، وأنه لا داعى يدعونا لشغل أنفسنا بالآلهة أكثر مما تشغل أنفسها  
بنا . وقد بداله الأكل الطيب والكتابة الجيدة مزيجاً محمولا . وفي ١٦٦٦  
زار هولنده ثانية ، والتقى بسبينوزا وتأثر تأثراً عميقاً بالحياة المسيحية التي  
كان يحياها اليهودى القائل بوحدة الوجود (١٠٧) . وقد أتاح له معاش أجرته  
عليه الحكومة الإنجليزية ، بالإضافة إلى ما استنقذه من فضلات ثروته ،  
أن يكتب سلسلة طويلة من الكتب الصغيرة ، كلها بأسلوب خفيف رشيق  
شارك في تكوين فولتير . وقد أعان كتابه « تأملات في مختلف أجناس  
الشعب الرومانى » مونتسكييه ، وشاركت رسائله إلى تينون دلائلهم بجزء  
من ذلك العبير الذى يتضوع خلال الرسائل الفرنسية . ولما بلغ الثامنة  
والخمسين ، ودون وعى منه بأنه سيعمر اثنتين وثلاثين سنة أخرى ، وصف  
نفسه بأنه مقلقل بصورة لا شفاء له منها . « انى لولا فلسفة مسيوديسكارت  
التي تقول أنا أفكر فإذن أنا موجود لما صدقت انى موجود ، وهذا كل  
ما أفدت من دراسة ذلك الرجل الشهير (١٠٨) » وقد كاد ينافس فونتنيل  
فى طول عمره ، إذ لم يمض إلا عام ١٧٠٣ بعد ان بلغ التسعين ،  
وقد نال تشرiffاً ندر ان حظى به فرانسى ، وذلك هو دفنه فى دير  
وستمنستر .

كتب فردريك الأكبر إلى فولتير : « بعد قرون سيترجمون الكتاب  
المجيدى فى عصر لويس الرابع عشر كما نترجم نحن كتاب عصر بركلميس  
وأوغسطس » . وقبل أن يموت الملك بسنتين طويلة شبه الكثيرون من  
الفرنسيين فن العصر وأدبه بخير ما أنتج القدماء فى الفنون والآداب . وفى  
١٦٨٧ قرأ شارل بيرو ( أخو كلود بيرو الذى صمم من قبل واجهة اللوفر  
الشرقية ) على الأكاديمية الفرنسية قصيدة سماها « قرن لويس العظيم » رفع  
فيها العهد فرق أى حقبة فى تاريخ اليونان أو الرومان . ولكن بوالو  
الناقد المعجوزا بى للدفاع عن القدامى رغم ان بيرو سلكه فى زمرة المعاصرين

الذين فضلهم على نظرائهم القدامى ، فقال الأكاديمية ان من العار الاستماع إلى هذا اللغو . وحاول راسين ان يحمّد النار بزعمه أن بيرو كان (١١٠) يمزح ، ولكن بيرو أحس أن لديه موضوعا مجزيا . فعاد إلى المعركة في ١٦٨٨ بكتابه « نظائر القدامى والمحدثين » وهو حوار طويل حتى يؤيد تفوق المحدثين في العمارة والتصوير والخطابة والشعر . وذلك باستثناء الاياداة ، التي هي في رأيه أروع من الاياداة أو الاوديسة أو أى ملحمة أخرى . وقد ناصره فونتنييل بذكاء وبراعة ، أما لا بروير ولا فونتنيين وغينيلون فوقفوا في صف بوالو .

لقد كان شجاراً صحيحاً ، عين نهاية نظرية « الانحطاط » المسيحية الوسيطة ، ونهاية تواضع النهضة والحركة الإنسانية أمام الشعر والفلسفة والفنون القديمة . وكان هناك اتفاق عام على أن العلم قد تقدم متجاوزاً أى مرحلة أدركها اليونان أو الرومان ، وحتى بوالو اعترف بهذا ، وسلم بلاط لويس الرابع عشر في غير تردد بأن فن الحياة لم يطور قط من قبل بمثل هذا الجمال الذي طور به في مارلي وفرساي . ولن نزعم أننا فاضلون في هذه المشكلة ، فلنتركها الآن حتى نعرض كل جوانب هذا العصر في أوروبا بأسرها . ولا حاجة بنا إلى الإيمان بأن كورني كان متفوقاً على سوفوكليس ، أو راسين على يوربيديس ، أو بوسويه على ديموستينيس ، أو بوالو على هوراس ، وما ينبغي أن نسوى بين اللوفر والبارثينون ، أو بين جيراردون وكوازفوكس وبين فيدياس وبراكستيليس . ولكن من اللطيف أن نعرف أن هذه المفاضلات تتبل المناقشة ، وان تلك النماذج القديمة لا تمتنع على المنافسة .

لقد وصف فولتير عصر لويس الرابع عشر بأنه « أكثر العصور التي شهدتها العالم استنارة (١١١) » دون ان يتوقع أن عصره هو يسمى « عصر التنوير » . ولكن ينبغي أن نخفف من غلو هذا الاطراء . فالعصر من الناحية الرسمية كان عصر ظلامية وتعصب بلغا أوجههما في إلغاء مرسوم نانت الرحيم ، و « التنوير » كان وقفاً على قلة قليلة لم يرض عنها البلاط وطبها سرفها الابيقوري أحياناً ، والتعليم كان يهيمن عليه أكليروس ملتزم بعقيدة العصر

الوسيط ، وأما حرية الطباعة والنشر فلم يسكد أحد يحلم بها ، وحرية الكلام كانت مغامرة سرية وسط رقابة شاملة . لقد كان في عهد ريشليو من المبادرة والجرأة ومن مولد العبقرية قسطاً كبيراً مما كان في عهد الملك العظيم . إن العصر لم يكن له ضريب في الرقابة الملكية للآداب والفن ، وفي خضوعهما للبليغ للملك . وقد بلغ الفن والآداب كلاهما العظمة والجلال كما يشهد بذلك صف أعمدة اللوفر ومسرحية اندروماك ، ولكنهما انحدرتا أحياناً إلى المبالغة في الفخامة والابهة كما نرى في قصر فرساي أوفى بلاغة كورني في آخر أنتاجه . وكان يشوب المأساة والفنون الكبرى في هذا العهد بعض التكلف والافتعال ، فقد أفرطوا في الاتكاء على النماذج اليونانية أو الرمانية أو نماذج النهضة . واتخذوا موضوعاتهم من عصر قديم دخيل لا من قاريخ فرنسا ودينها وطابعها ، وعبروا عن التعليم الكلاسيكي الذي حظيت به طبقة خاصة لا عن حياة الشعب وروحه . ومن ثم نجد مولير ولا فونتين العاميين يفيضان اليوم حياة وسط هذا الحشد المزوق ، لأنهما نسيا اليونان والرومان وتذكرا فرنسا . صحيح أن العصر الكلاسيكي نقي اللغة ، وصقل الآداب ، وهذب الحديث ، وعلم العاطفة المشبوبة أن تفكر ، ولكنه إلى ذلك فرض على الشعر الفرنسي ( والإنجليزي ) برودة امتدت قرابة قرن بعد هذا العهد العظيم .

ومع ذلك كان عهداً عظيماً . فلم يشهد التاريخ من قبل حاكماً مثلاً هذا السخاء على العلوم والآداب والفنون . لقد اضطلع لويس الرابع عشر الجانسينيين والهييجونوت ، ولكن في عهده كتب بسكال ، ووعظ بوسويه ، وعلم فينيلون . ولقد جند الفن ليعخدم به مآربه ومجده ، ولكن هذا الفن منحه فرنسا بفضل تشجيعه روائع في العمارة والنحت والتصوير . ولقد حمى مولير من جيش من الخصوم ، وآزر راسين من مأساة إلى مأساة . ولم تكتب فرنسا من قبل مسرحية أفضل ، ولا رسائل أفضل ، ولا نثراً أفضل ، مما كتبت في عهده . وهذا عادات الملك الملهذة ، وضبطه

لنفسه . وصبره ، واحترامه للنساء — أعانت كلها على انتشار الاداب المحببة والمجاملات اللطيفة في البلاط ، وعنه إلى باريس وفرنسا وأوربا . ولقد أساء استعمال بعض النساء ، ولكن تحت حكمه بلغت النساء في الادب والحياة مقاما اضفى على فرنسا ثقافته ثنائيه الجنس يفوق جالها أى ثقافته أخرى في العالم . وبعد كل التحفظات ، وبعد الاعراب عن أسفنا لان هذا الجمال الكثير لوثته هذه القسوة السكثيرة ، يحق لنا أن نضم صوتنا إلى أصوات الفرنسيين في الأشادة بمصر لويس الرابع عشر بوصفه عصرأ يقف على قدم المساواة مع اليونان في أيام بركليس ، والرومان في أيام أوغسطس ، وإيطاليا في أيام النهضة ، وإنجلترا في أيام اليزابيث وجيمس الاول . . . يقف مع هؤلاء جميعا قمة شامخة بين الشوامخ في مسار الإنسانية المتعثر .

## الفصل السادس

### مأساة في الأراضي المنخفضة

\* ١٦٤٩ - ١٧١٥

شهد القرن الممتد من ١٥٥٥ إلى ١٦٤٨ الدفاع البطولي الذي قامت به الأراضي المنخفضة ضد إمبراطورية أسبانيا العالمية ، أما الفترة من ١٦٤٨ إلى ١٧١٥ فقد شهدت دفاع الجمهورية الهولندية الرائع ضد بحرية إنجلترا وجيوش فرنسا التي لم يسبق لها مثيل . وفي كلتا الحالتين صمدت هذه الدولة الصغيرة بشجاعة ونجاح من حقهما أن يتبوءا مكاناً مرموقاً في التاريخ . وقد واصلت وسط هذه الأعباء والهجمات تطورها للتجارة والعلوم والفنون ، وكانت مدنها ملاذاً للفكر المضطهد ، وتحدث نظمها الجمهورية الملكيات القوية المحدقة بها تحدياً ملهماً .

### ١ - الأراضي المنخفضة الأسبانية

ظلت الأراضي المنخفضة الجنوبية ، أو الأسبانية ، حتى ١٧١٣ خاضعة للحكم الأسباني . وكانت شعوبها المختلفة سلاياً يدين معظمها بالكاثوليكية وقد آثرت أن تخضع لأسبانيا النائية التي حل بها الضعف ، إعن أن تخضع للبروتستانت الذين في شمالها ، أو لجارتها فرنسا التي هددت بابتلاعها في أي لحظة . وقد أعطى صلح البرانس ( ١٦٥٩ ) معظم أرتوا لفرنسا ، وأعطاهما صلح إكس لا شابل ( ١٦٦٨ ) دويه وتورنيه ، واصلح نيميغن ( ١٦٧٨ ) فالنسين وموبوج وكبرى وسسات أو مير واير . ولم تكن الجمهورية

---

( \* ) أرجأنا تاريخ الأراضي المنخفضة السياسي والحربي بعد ١٦٨٨ إلى فصل

تال ( الفصل ٢٤ ) .

الهولندية أقل قسوة من الملكية الفرنسية . وبمقتضى معاهدة وستفاليا ( ١٦٤٨ ) لم تكتف أسبانيا ، في حرصها على إطلاق يد جيوشها لتفرغ للحرب المتصلة مع فرنسا ، لم تكتف بأن تنزل الأقاليم المتحدة عن المناطق التي استولت عليها في فلاندر ، وللمبورج ، وبرابات ، ولكنها وافقت كذلك على قفل نهر الشلت في وجه التجارة الأجنبية . فأصاب هذا الإذلال الخائق أنتورب وكل اقتصاد الأراضي المنخفضة الأسبانية بالشال . « إن السياسة لا قلب لها » كما يقولون .

وفي داخل هذه الأسوار المعادية اعتزت هذه البلاد التي نعرفها اليوم باسم بلجيكا بثقافتها المتوارثة ، ورحبت باليسوعيين ، وتبعت قيادة لوفان العسكرية . ولما قصف الفرنسيون بروكسل بمدافعهم ( ١٦٩٥ ) تحول قسم كبير من المدينة أطلالا ، ودمر كل المعمار البديع الذي ازدان به الميدان الكبير ، اللهم إلا قاعة للحرفيين والأوتيل دفييل البديع ، وقد أعيد بناء « الميزون دورا » ( الذي كان يقرأ فيه الخطاب الملكي على مجلس الطبقات ) بطراز قوطي كثير الزخرف ( ١٦٩٦ ) ، وهو والأوتيل دفييل من أجمل العماثر في أوروبا اليوم . وقد أفاض النحاتون من فنهم على تجميل واجهات الكنائس والمباني المدنية ، والمنابر ، ومقاصير الاعتراف ، والمقابر التي بداخل الكنائس . وواصلت بروكسل صنع النسيج المرسوم البديع ( ١ ) .

واضمحل التصوير الفلمنكي اضمحلالا حادا بعد روبنز وفانديك ، وكأن حياة هذين الفنانين قد استنفدت العبقرية التصويرية لقرن كامل . واجتذب نهوض الفن في فرنسا وازدياد ثرائها الكثير من الرسامين الفلمنك أمثال فيليب دشامبين . ولكن فنانا اعظم منه ، وهو دافيد تنييه الابن ، مكث في بلده . وكان أبوه قد تولى تعليمه ، فأصبح « مملعا » في طائفة القديس لوقا الحرفية حين بلغ الثالثة والعشرين ، وبعد أربع سنوات ( ١٦٢٧ ) ضمن نجاحه بالزواج من آن بنت جان بروجل « الخملي » ،



والقاصر الموضوعة تحت وصاية روبرت ذاتة . وفي ١٦٥١ دعاه الارشيدوق ليوبولد ولهم من أنتورب الى بروكسل ليكون مصور البلاط وأمين المتحف الملكي ، وترينا احدى لوحات تنييه الأشيدوق والمصور بين صور هذا المتحف (٢) . وقد صور في براءة مترددة موضوعات قديمة كالابن الضال (٣) وتجربة القديس انطونيوس (٤) . ولكنه كما صر به الهولنديين أثر أن يلتقط داخل اطرار صغيرة حياة الفلاحين ، تلاها بطاهم الى درك الأنعام كما فعل بيتر بروجل ، بل مشاركا ايهم في رياضاتهم وأعيادهم . وأظهرت لوحته داخل كاتاربه « المامه بتفاصيل موضوعه (٥) ، ولكنه كان يستطيع أيضا أن يرسم المناظر الطبيعية الريفية التي تغير هيئتها أسماء لا تكف عن التغير . وقد أحب الضوء كما أحب رمبرات الظل ، والتقطه على فرشاته برقة حساسة لم تفقها رقة .

## ٢ - الجمهورية الهولندية

كانت الأقاليم الهولندية السبعة قد توحدت الآن في جمهورية عزيزة ظافرة أثار غناها ونوسعها عجب جيرانها وحسد هم . فهنا أمة شذت على العرف ، إذ لم يكن لها ملك ، وكانت كل مدينة يحكمها في استقلال تقريبا مجلس من أعيانها ، وكل مجلس بلدى يوفد مندوبين لمجلس اقليمى ، وكل مجلس اقليمى يوفد ممثلين للمجلس التشريعى الذى يهيمن على ما بين الأقاليم من علاقات وعلى شئونها الخارجية . وكانت الى ذلك الحد حكومة مثالية لأقطاب التجارة الذين كانت ثرواتهم تتضخم بنمو التجارة الهولندية . ولكن قوة ارسقراطية واحدة وقفت أمام أولجركيه التجار هذه : ذرية ولهم الأول (والصامت) أمير أورنج وناسو ، الذى قاد البلاد فى أحلك ايام كفاحها ضد أسبانيا ، وكان المجلس التشريعى قد كافأه بلقب رئيس الدولة وبقيادة جيوشها ، واستطاع أن يورث ذريته ذلك اللقب وتلك القيادة ، وكانت الهيمنة على رجال الجيش الآن قوة لا تفتأ تهدد بتحويل الجمهورية الاولجركية الى ملكية.

ارستقراطية . وفي يوليو ١٦٥٠ حاول وليم الثالث أمير أورنج ، بوصفه رئيسا للدولة وقائدا عاما ، أن يبسط سلطانه المطلق على جميع الأقاليم المتحدة بانقلاب . فقاومه عدة زعماء اقليميين ، واودع وليم وجند ستة منهم في السجون ، ومنهم يعقوب دى ويت عمدة دوردرشت . ولكن الجدرى هزم وليم في انتصاره ، فمات في ٦ نوفمبر ١٦٥٠ غير متجاوز الراية والعشرين : وبعد أسبوع ولدت أرملة ماري ستيوارت ( ابنة حفيدة آخر ملكة للاسكتلنديين ) الطفل وليم أورنج الثالث ، الذي قدر له أن يحقق فوق ما حلم به أبوه ، اذ أصبح ملكا على إنجلترا .

اما الزراعة وصيادو الاسماك الأدنى من هذه الطبقات الحاكمة المتناقسة ، هؤلاء الذين كانوا يطعمون الشعب ، فلم يشاركوا الا في فضلات ثرائها التي لم يعبأ بالتها مها التجار ورجال الصناعة وملاك الأرض . واذا صدقنا الرسامين الهولنديين تبين لنا أن الحرب والاستغلال قد طعنا الفلاحين بفقر كاد يقربهم من حياة البهائم ، فقر خففت منه الأعياد وخرده اشرب . وكان الحرفيون في حوائيتهم ، والعمال في مصانع امستردام وهارلم وليدن ، أعلى أجورا من نظرائهم في إنجلترا (٦) ، ولكنهم قاموا باضراب عنيف في ١٦٧٢ . واثري المهاجرون الهيجوانوت الوافدون من فرنسا الصناعة الهولندية بمدخراتهم ومهاراتهم . فلم تأت سنة ١٧٠٠ حتى حلت الأقاليم المتحدة محل فرنسا بوصفها الامة الصناعية القائدة في العالم .

اما اعظم الثروات فجاءت بها التجارة مع أقطار ما وراء البحار وتطويرها . ففي ١٦٥٢ استوطن الهولنديون أول مستعمرة لهم في رأس الرجاء الصالح وأسسوا مدينة السكاب . وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية تدفع ارباحا لمساهميها بلغت نسبتها في المتوسط ١٨ ٪ طوال ١٩٨ عاما (٧) . وكان الوطنيون في المستعمرات الهولندية يبيعون او يشتغلون عبيدا ، أما المستثمرون في أرض الوطن فلم يسمعوا بهذا الا قليلا ، وأخذوا ارباح أسهمهم بهدوء هولندي . وظلت التجارة

الخارجية الهولندية حتى ١٧٥٠ تفوق تجارة أى أمة أخرى (٨) ، ومن بين عشرين ألف سفينة كانت تنقل تجارة أوربا في ١٦٦٥ ، كانت خمسة عشر ألف هولندية (٩) . وأجمع الناس على أن تجار هولندا وماليها أكفأ من انجبه ذلك العصر . وكان بنك أمستردام قد استنبط عمليا كل تقنيات المالية العصرية ، وقدرت ودائعه بما يعادل الآن مائة مليون دولار (١٠) ، وكان في الامكان أن تسوى فيه حسابات تصل الى الملايين في ساعة واحدة ، وبلغت الثقة بقدره الهولنديين المالية وامكان الاعتماد عليهم مبلغا يسر للجمهورية الهولندية أن تقترض المال بفائدة أقل من أى حكومة أخرى ، وقد تهبط الفائدة أحيانا الى ٤ ٪ (١١) . ولعل أمستردام كانت أكثر مدن أوربا في هذا العصر جمالا وتحضرا . وقد رأينا ثناء ديكارت عليها ، وكذلك تحدث عنها سبينوزا (١٢) . ويمثل هذه الحماسة تحدث بيبس عن لاهاي « مدينة غاية في النظافة من جميع الوجوه ، بيوتها أنظف ما يستطاع في كل أماكنها ومحتوياتها (١٣) » .

ولولا طبيعة البشر لكنت هذه الأقاليم الرخية جنة في الأرض ذلك أن نراءها أغرى انجلترا وفرنسا بالهجوم عليها ، وقد أفضى الصراع على السلطة في الداخل الى مأساة جان دي ويت ، ومزقت المنافسة بين العقائد الدينية شعبا لطيفا في غير هذا ، وبعثت الخصومات العنيفة . ومنع الكلفنيون الغالبون ممارسة الشعائر الكاثوليكية حيثما استطاعوا منعها . وفي ١٦٨٢ ، وضع مجمع دورت ( الدوردرشت ) اعترافا بالكلفنية القديمة . ربما انتقاما من الغاء مرسوم نانت وألزم كل راع بالتوقيع عليه والاطرد ، وعين بيير جوريو وهو هيجونوتي فرنسي سابق — ايرأس بحكمه تفتيش كلفنيه ، واستدعى المهراطيين ، وحاكسهم ، وحرّمهم ، واهاب به « الذراع الدنيوية » ( السلطة الزمنية ) أن تزج بهم في السجون . ولكن هرطقة أرمينيوس نمت رغم ذلك ، واجتأرا الشجعان من الرجال على الاعتقاد بأن الله لم يقدر على السكثرة من بنى البشر الهلاك في النار .

الأبدية ، ووجدت المذاهب المنشقة — مينويين ، وكلين ( من آوا سبينوزا ) ولو سيائيين ، وتقويين ، وحتى التوحيديين — هؤلاء جميعا وجدوا أن في إمكانهم العيش في هولندا بين ثغرات القانون وغفواته . وكان السوسينيون قد التمسوا في الأقاليم المتحدة ملاذا من الاضطهاد في هولندا ، ولكن عبادة التوحيديين حُرمت بقانون هولندا في ١٦٥٣ . ونشر دانيال زفيكر بأمر دام في ١٦٥٨ رساله تشككت في ألوهية المسيح ، وأخضعت الكتاب المقدس لـ « عقل البشرية العام » ، ومع ذلك استطاع أن يموت في هدوء وسلام كما يموت الجزالات . على أن رجلا يدعى كيرباج حكم عليه في ١٦٦٨ بالسجن عشر سنوات لأنه أفصح عن أفكار كذبه ، ومات في سجنه . وقد سجن أوريان بيفرلاند لإلماعه الى أن خطيئته آدم وحواء الأصلية كانت الاتصال الجنسي ولم تمت للتفاح بسبب .

وازداد التسامح الديني قرب ختام القرن السابع عشر . ذلك أن الهولنديين الذين كانوا يتعاملون مع دول كثيرة ذات ثقافات مختلفة ، ويفتحون موانئهم وسوقهم المالية لتجار يدينون بديانات كثيرة أولاد يدينون بأي دين ، هؤلاء الهولنديون وجدوا من الأنفع لهم أن يمارسوا ضربا من التسامح كان ، رغم ما شابه من نقص ، أرحب بكثير منه في أي بلد مسيحي . ومع أن الكلفتيين كانوا الغالبين سياسيا ، إلا أن الكاثوليك بلغوا من الكثرة مبلغا جعل قمعهم أمرا غير ممكن عمليا . أضف الى ذلك أن السيطرة الاجتماعية والسياسية التي كانت تتمتع بها الطبقات التجارية والصناعية جعلت الإكليروس — كما قال اسروايم تمبل — أقل نفوذا بكثير من الإكليروس في الدول الأخرى . وطالب المهاجرون من أقطار أخرى ، الذين أسهموا بقسط في الاقتصاد أو الثقافة ، بقدر محدود من الحرية الدينية وظفروا به . وحين استولى كرومويل على السلطة في إنجلترا التمس أنصار الملكية فيها السلامة في هولندا ، ولما رد تشارلز الثاني الى العرش ، التجأ الجمهوريون الانجليز الى الجمهورية الهولندية ، ولما اضطهد لويس الرابع عشر الهيجوات فر بعضهم الى الأقاليم

المتحدة ، ولما خشى لوك وكولنز وبيل الاضطهاد في إنجلترا أوفرنسا ، وجدوا الملاذ في هولنده ؛ ولما حرم مجمع أمستردام البرتغالي ( اليهودي ) سبينوزا ، رحب به العلماء الهولنديون وقدموا له العون ، ورتب له جان دي ويت معاشا . وأصبحت هولنده الصغيرة « مدرسة أوربا (١٥) » في التجارة والمال والعلم والفلسفة .

ولولا ما أتيج لهذه الحضارة من حرية دينية ، ومن علم وأدب وفن ، لأصبحت حضارة مادية الى حد محزن . وسنلتقي في فصل لاحق بهويجنس وغيره عن العلماء الهولنديين . وكان هناك شعراء ومسرحيون ومؤرخون هولنديون ، ولكن لغتهم حصدت من شهرتهم . وقد حفلت المدن الهولندية بالكتب والناشرين . وبينما لم يكن في إنجلترا سوى مركزين اثنين للنشر هما لندن واكسفورد ، وفي فرنسا باريس وليون ، كان في الاقاليم المتحدة مراكز في أمستردام وروتردام وليدن وأوترخت ولاهاي ، تطبع الكتب باللاتينية واليونانية والالمانية والانجليزية والفرنسية والعبرية كما تطبعها بالهولندية . وكانت أمستردام وحدها تملك أربعمئة دار تطبع الكتب وتشرها وتبيعها (١٦) .

ونافس الولع بالفن الغرام بالمال والمساومة على الخلاص الأبدى . وخلع ساكنو المدن الهولنديون ، الذين عروا كنائسهم البروتستانتية من الزخرف ، خلعوا على نسائهم وبيوتهم الزينه التي انتزعوها من بيوت الرب . فاسترضوا زوجاتهم بالخمر والحريير والجواهر ، ونشروا على موائدهم صحاف الذهب والفضه ، وزينوا جدرانهم بالنسج المرسوم ، ورفوفهم أوصواوينهم بالخزف أو الزجاج المحفور . وفي ديفات كان الخزافون الهولنديون بعد عام ١٦٥٠ ، الذين استوحوا الخزف الصيني والياباني ، يصنعون فخارا مزججا . أكثره أزرق على قاعدة بيضاء ، أضفى الجمال المشرق على بيوت كانت من قبل عارية عري التزمت الصارم . وقل أنهم وجدت أسرة هولندية لم تملك على الأقل واحدة من تلك الصور

الصغيرة التي جعلت حلم المسكن الهادئ والنظيف ، وبهجة الأشجار والأزهار والجداول ، قريبي المنال على جدران البيوت .

### ٣ - ازدهار صور الحياة اليومية

كان العصر البطولي للتصوير الهولندي قد ولى . فالزبان الحددا أكثر نفرا ولكنهم أقل مالا ، لذلك طلبوا صوراً صغيرة تتبجح لهم أن يشهدوا حياتهم اليومية في خلاصة مقطرة مهيبة ، منفولة بواقعية تبعث لذة التعرف ، أو ملموسة بمحاطفة رقيقة ولكنها مالوفة ، أو مغرية للنفس باستشراف مشهد محرر من مشاهد الطبيعة . وقد لبى المصورون الهولنديون هذا الطلب في رهافة خط وضوء ولون حشدت الصنعة الشديدة التدقيق في حين صغير . وهؤلاء الفنانون معروفون في جميع أرجاء أوربا وأمريكا ، لأن التنافس اليائس فيما بينهم حملهم على أن يطلقوا سيلاً متدفقاً سريعاً من الصور الصغيرة بضمن رخيص ، وهي صور لا تخلو اليوم منها جدران متحف . ونحن اذ نترك الشهادة على وفرة هؤلاء الرسامين لها مش سريع<sup>(٥)</sup> ، نراه لزاماً أن ننظر نظرة أكثر تريثاً إلى جان ستين ، المرح رغم حفظه العائر ، وإلى أعظم مصوري الحياة اليومية جان فرمير ، وإلى أعظم مصوري الطبيعة الهولنديين ، يعقوب فان رويسدال .

\* نيتولا هيرشيم : النلعة في الغاية ( درسدن ) . فرديناغ بول : يعقوب أمام فرعون ( درسدن ) ، جيرارد دو : هجوز في النافذة ( فيينا ) . بارنت فايريتوس : يعقوب وبينيامين ( شيكاغو ) . بارتليموس فان در هيلست : عمده هولندي ، ( نيويورك ) . بيتر دي هوخ : داخل بيت هولندي ( لندن ) . فيليب دي كوينك : منظر طبيعي ( فرانكفورت ) . نيتولا مايس : هجوز تغزل ( أمستردام ) . جابريل ميتسو : سوق الخضار ( لندن ) . فرانس فان ميريس الأول : صورة ذاتية مع زوجته ( لاهاي ) . وايم فان ميريس : التعرف على برسمورا ( درسدن ) . إيف فان در نير : منظر مقلد ( براين ) . جيرار ترهورش : هشاك الوسيطي ( لندن ) . أدريان فان درفيلد : المزرعة ( براين ) . وايم فان درفيلد الثاني . زويدري ( براين ) . جان فينكس الثاني : منظر صيد ( لندن ) . أدريان فان درفيلد : طرد هاجر ( درسدن ) . فيليب فان فرمان : وقفة جماعة سيد ( دولفسش ) .

أما ستين فكان ابن صانع جمعة في ليدن ، واشتغل في لاهاي ، وديلفت ، وهارلم ، وأصبح آخر المطاف صاحب حانة في ليدن ، وخلال هذه الفترات استطاع أن يجعل من نفسه أفضل مصور الأشخاص في الفن الهولندي باستثناء رمبرانت . وحين بلغ الثالثة والعشرين ( ١٦٤٩ ) تزوج مارجريت ابنة المصور جان فان جووين ، ولم تملك من المهر غير وجهها وقوامها ، ولسكنهما أفداه بعض الوقت ثم وحين ملهمين . وكان ينقد أجرا حقيرا على صوره حتى أن صيدليا حيز ( ١٦٧٠ ) على كل الصور التي استطاع أن يجدها في بيت ستين وباعها بالمزاد وفاء لدين قدره عشرة جولدبنات . وصوره الأولى تسجل لذات السكراء وعقوباته . وصورته « الحياة المنحلة » ( ١٧ ) ، وهي مثال ممتاز من صوره ، فيها امرأة نعسانة وأخرى نائمة من الشراب ، وطفل ينهز الفرصة فيسرق من صوان ، وكلب يأكل من المائدة ، وراهبة تنطلق بعد دخولها الحانة في عظة عن خطيئة شرب الروم ، وكل شيء في الصورة مكون ومرسوم بنظام الفن وانسجامه رغم أنه يصور الفوضى . وموضوع أجمل من هذا يبعث الحياة في صورة أخرى له أسيئت تسميتها بـ « معرض الوحوش » ( ١٨ ) ، يرى فيها فتاة صغيرة تطعم حملا باللبن ، ودجاج الحديقة ينسب هنا وهناك ، وطاووس يدلي ذيله من شجرة ذابله ، والحمام يحط في أعلاها ، ويمامة تحلق قادمة من الطريق . هذا كله لحن رعوى يجعل جميع معضلات الفلسفة تبدو تافهة لا معنى لها . انه الحياة ، وكل جزء له مبرره السكافي الذي يتجاهل المطلقات . وبعد أن تجاوز ستين فترة الحانة رسم مشاهد مشرقة للحضارة الهولندية : باطن بيوت مبهجة ، ودروس موسيقى ، وحفلات موسيقى ، ومهرجانات ، وأسر سعيدة ، والفنان نفسه ، يدخل في « الصحبة المرحية » ( ١٩ ) ، أو يعزف على العود ( ٢٠ ) . فلما فتت في عضده الأجور البخسة التي نقدها على عمله ، طاد الى بيع الجمعة ، وراح يشرب لينسى ، ثم مات في الثالثة والخمسين خلفا أربعمئة صورة باثرة .

ونظرة إلى صورة واحدة رسمها جان فرميرا وممها « رأس فتاة » (٢١) تسكشف عن عالم وفن يكادان يناقضان عالم ستين وفنه . وهذه اللؤلؤة التي يفوق ثمنها اللالي بيعت بالمزاد عام ١٨٨٢ بجولدين ونصف ، ويقدر ناقد قدير في أيامنا هذه أنها « واحدة من اثنتي عشرة صورة هي أروع صور العالم » (٢٢) . وواضح أن الفتاة من بيت طيب وأسرة كريمة ، عيناها خاليتان من الخوف ، لا يغشاهما حتى دهش الشباب الطبيعي ، فهي سعيدة في هدوء ، متيقظة لموسيقى الحياة ؛ وقد قدمها الفنان لنا بصنعة دقيقة في اللون والخط والضوء تجعل من الفرشاة أداة مدهشة للفهم والتعاطف .

وقد ولد فرمير في ديلفت عام ١٦٣٢ ؛ وحاش هناك على قدر علمنا طوال حياته ومات فيها ( ١٦٧٥ ) بالغاً الثالثة والأربعين ، وكاد يكون معاصراً لسبينوزا تماماً ( ١٦٣٢ — ٧٧ ) . تزوج في العشرين ، وأنجب ثمانية أطفال ، وكان يتقاضى ثمننا طيباً على صورته ، ولكنه عكف عليها في عناية مستنفدة للوقت ، وأنفق المال الكثير على شراء الصور ، حتى إنه مات مديناً ، واضطرت أرملته إلى التماس المعونة من محكمة التفاضل . غير أن الأربع والثلاثين صورة التي بقيت من صورته توحى بمحور من رفاة الطبقة الوسطى . وتظهره إحداها (٧٣) في رسمه لابساً طاقية رقيقة خفيفة ، « وجركبة » متعددة الألوان ، وجوارب طويلة متجمدة ولكنها حريية ، وقد استغنى ردفاه من النعمة . ولا ريب في أنه سكن حياً راقياً في ديلفت ، ربما في مشارفها حيث استطاع أن يلقى « نظرة على ديلفت » (٢١) وفي هذه الصورة الشهيرة نحس بحبه الجرم لموطنه . ويبدو أنه راض نفسه على البقاء في بيته بقناعة أكثر مما نلاحظه في مصوري زماننا . فخب البيت يتجلى في أكثر التصوير الهولندي ، ولكن البيت في فن فرمير يصبح معبداً صغيراً ، والزوجة معترزة بالخدمات التي تؤديها . وفي لوحته « للشيخ مع مريم ومرثا » (٢٥) تشارك مرثا مريم في الجلوس على المنصة . ولم تعد نساؤه تلك الحزم الثقيلة من اللحم التي نراها أحياناً في الفن الهولندي ، ففيهن شيء



من التهذيب والحساسية . بل لقد نجدهن — كما ترى في السيدة الجليلة في صورة « السيدة والخادمة » (٢٦) — خاليات اللباس ، رقيقات القسبات ، مصنفات الشعر في عناية ، أو غنيات بالحرير وآلات الموسيقى ، كما في صورة « السيدة الجليلة إلى العذراوية » (٢٧) (آلة موسيقية) . إن فرمير يصنع من الحياة العائلية ملحمة ، أو قصيدة غنائية ذات لحظات طائفة بسيطة طبيعية ، لا مشاهد جماعية ذات نشاط مختلط متعدد ، بل — في أفضل ما رسم من لوحات — امرأة واحدة فقط ، تقرأ رسالة في هدوء (٢٨) ، أو تكب على خياطتها (٢٩) أو تتحلى بقلادة ، أو تنام على خياطتها (٣٠) ، أو مجرد صبية وابتسامتها (٣١) . لقد سجل فرمير بفن كامل شكرانه لامرأة طيبة وبيت سعيد . ولكنه أوشك أن يكون نسياً منسياً في القرن الثامن عشر ، ونسبت روائعه الصغيرة إلى دي هوخ ، أو تير بورخ ، أو رمبرانت ، ولم يبعث من مثواه إلا في ١٨٥٨ . واليوم لا يعلمو على اسمه غير اسم رمبرانت وهالس في التصوير الهولندي .

بقي شيء واحد تفتقده في هؤلاء المصورين للحياة اليومية — هو حياة الطبيعة التي أحاطت بالمدن المتطفلة عليها . فإيطاليا ، وبوسان في إيطاليا ، كانا قد التقطا شيئاً من الهواء النقي والحقول الطليقة ، وستكتشفهما المجلدة في القرن التالي ، أما المصورون الهولنديون فقد تركوا الآن برهة بيوتهم وباطنهم التنظيف أو المرح ، ووضعوا حواملهم ليقتنصوا سحر الغدران المترققة ، وطواحين الهواء الساكنة الوادعة ، والمزارع المزهرة ، والأشجار التي تعجبنا تعجلنا المحموم ، والمراكب الغريبة تنهادي في الشغور المزدحمة ، والسحب التي تلون السماء بشتى الأشكال . والعالم كله يعرف لوحات « طريق ميدل هارنس » التي رسمها ماينديرت هوبسما — وهي منظر يتلاشى في فضاء لا نهاية له ، ولكن أجمل منها بكثير لوحته « طاحونة المساء ذات السقف الأحمر الكبير » (١٢) . وقد وجد ألبرت كوبب الإلهام في الأبقار السمينة تغوص المستنقعات الوافرة الخضرة (٢٣) ، والخليل تقف ظامئة عند خان ، وفلوع

المراكب تختفي فوق البحر (٣٤) . ونعجب سليمان فان رويسدال من ارتعاش المياه التي تمكس وتقلب صورة الزوارق والأشجار (القناة والمعدية) (٣٥) ، وعلم ابن أخيه أن يتفوق عليه .

أما ابن أخيه هذا ، واسمه يعقوب فان رويسدال ، فقد أترعرع في هارلم ، وترك لنا « منظر الهارلم » (٣٦) ، لا يقل وقعا في نفس الناظر عن لوحة فرمير « ديلفت » ، ويفضلها نقلا لتعقد المدينة الكبيرة بما فيه من اتساع وزخمة . ثم انتقل إلى أمستردام وأصبح عضوا في الاخوان المينونيين ، ولعل تصوفهم أعان فقره على إشعاره بالجانب المأساوي للطبيعة التي أحب أن يفنى فيها . وعرف أن تلك الحقول ، والغابات ، والسموات التي تعد بالسلام ، تستطيع كذلك أن تدمر ، وأن للطبيعة نزوات من الغضب قد تقلع فيها الرياح المجنونة حتى أعتى الأشجار وأصلبها وتمزقها من جذورها ، وأن الشقوق المهلكة قد تتكون في الأرض الطيبة ، وأن البرق قد ينفث ناره القاتلة على كل شكل من أشكال الحياة في لامبالاة طابثة . فصورته « مسقط الماء على الجرف » (٣٧) ليست أنشودة رعوية أنما هي ثورة البحر الغاضبة على صخور أقسم أن يخطئها ويفرقها أو يربها ، ولوحة « العاصفة » (٣٨) هي البحر يلطم عدوه اليابس في غضب ، ولوحة « الشاطئ » (٣٩) « لا تصور شاطئاً للهو بل ساحلا كدراته أمواج عالية تحت سماء مكفهرة ، ولوحة « الشتاء » (٤٠) « لا تعرض مسرح الترحلق ، بل كوخا حقيرا يرتجف تحت غيوم منذرة ، وحفره الرائع « أشجار البلوط » يجرد هامن وقارها ليرى أغصانها شعناء أوطارية ، وسيدقاتها وقد أنحنها الزمن القاسي بالجروح وشوه شكلها . ولوحة « جبانة اليهود » (٤١) هي ذاتها صورة للموت — أسوار متهدمة ، وشجرة نموت ، ومياه فيضان تجري فوق القبور . وليس مرد هذا كله أن رويسدال كان دائما مكتئبا ، ففي لوحة « حقل القمح » (٤٢) نقل باحساس عميق هدوء طريق ريفي ، وركة المحاصيل الوفيرة ، وفرحة الغضاء المتراعى . ويبدو أن الهولنديين أحسوا أن أرضهم ومناخهم قد افترت عليهما صور رويسدال ، فلم ينقلوه عليها إلا أجرا نجسا ،

وتركوا صاحبها يموت في ملجأ للفقراء . واليوم يضعه بعضهم في مكان لا يفضل فيه غير بوسان بين مصوري الطبيعة في جميع العصور (٤٣) .

ثروة لا أحد لها في حجرة صغيرة — رمبرانت وهالس ، فرمير ورويسدال ، سبينوزا وهويجنس ، ترومب ودرويتز ، جان دي ويت ووليم الثالث ، كلهم في زمن واحد داخل حدود ضيقة ، يكسحون غير آمنين خلف الكتبان ، يصوتون فنون السلم وسط نذر الحرب . تلك هي هولندية في القرن السابع عشر . و « ليست العبرة بكبر الحجم » .

#### ٤ — جان دي ويت : ٦٢٥ - ٧٢

بعد أن ظفرت الأقاليم المتحدة باستقلالها عكفت عقب معاهدة وستفاليا على طلب المال واللهو والحرب . كان أهلها أقل أمم الأرض اكتفاء بأنفسهم ، فمحاصيل أرضها لا تقيم أكثر من ثمن سكانها ، وحياة البلاد تعتمد على التجارة الخارجية واستغلال المستعمرات ، وهذان يعتمدان على بحرية قادرة على حماية السفن والمستوطنات الهولندية . وكان تفوق أسبانيا البحرية قد ولى بهزيمة الأرمادا الأسبانية ، ونشرت البحرية الإنجليزية التي ازدهاها النصر قلوبها فوق أرجاء مترامية من المحيط . ومالبت التوسع التجاري الإنجليزي أن اصطدم بالسفن الهولندية والمستوطنات الهولندية في الهند وجزر الهند الشرقية ، وأفريقيا ، وحتى في « استردام الجديدة » التي ستصبح نيويورك . وأحس بعض الإنجليز ، الذين لم تهدأ فيهم بعد حمية هوكنز ودريك ، أن هؤلاء الهولنديين الجبابرة ينبغي أن يحل محلهم بريطانيون جبابرة ، وأن هذا ميسور بنصر أو نصرين بحريين . وقد ذكر إيرل كلارندون في تقرير له « أن التجار ألفوا الحديث عن الفائدة الكبرى التي يجنونها من حرب سافرة مع الهولنديين ، وعن سهولة قهرهم ، وعن حجم للتجارة التي يمكن أن ينقلها الإنجليز بعد ذلك » (٤٤) وراقت صكرومويل الفكرة .

ففي ١٦٥١ أقر البرلمان الإنجليزي قانونا للملاحة يحظر على السفن الأجنبية أن تجلب لأنجلترا أى بضاعة إلا ما ينتجه بلدها . وكان الهولنديون يشحنون إلى إنجلترا حاصلات مستعمراتهم ، فتوقفت الآن هذه التجارة الراجحة . وأرسلوا بعثة إلى لندن للحصول على بعض التعديل في القانون ، فلم يكتف الأنجليز برفض الطلب ، بل طالبوا بأن تخفض المراكب الهولندية أعلامها إذا التقت بالمراكب الإنجليزية في « المياه الإنجليزية » ( أى جميع المياه بين إنجلترا وفرنسا والأراضي المنخفضة ) اعترافاً بسيادة الأنجليز على تلك البحار . وعاد المبعوثون الهولنديون بخفي حنين إلى لاهاي . وفي فبراير ١٦٥٢ استولى الأنجليز على سبعين سفينة تجارية هولندية وجدوها في « المياه الإنجليزية » . وفي ١٩ مايو التقى أسطول أنجليزى بقيادة روبرت بليك بأسطول هولندى بقيادة مارتن ترومب ، ورفض ترومب خفض علمه ، فهاجمه بليك ، وانسحب ترومب . وهكذا بدأت « الحرب الهولندية الأولى » .

وأوشكت انفصالية الأقاليم ، المفروض أنها متحدة ، أن تجر عليها الدمار . ذلك أن الزطامة الحربية الموحدة التى أتاحها لها من قبل أمراء أورنج كانت قد انقطعت ، وأصبح المجلس التشريعى للولايات جمعية للمناقشة والجدل بدلا من أن يصبح دولة . أما الأنجليز فسكانوا يملكون حكومة قوية ممركة يرأسها رجل شديد البأس هو كرومويل ، وكان لهم بحرية أفضل ، وقد أوتوا جميع الميزات التى حبثهم بها الجغرافيا والرياح الغربية السائدة . فدمروا أساطيل الصيد الهولندية ، واستولوا على المراكب التجارية الهولندية ، وهزموا أمير البحر الهولندى درويتر تجاه ساحل كنت . وانتصر ترومب على بليك تجاه دنجينييس ( ٣٠ نوفمبر ١٦٥٢ ) ، ولكنه مات في المعركة في يوليو التالى . وكانت نتيجة سنة واحدة من الحرب إثبات تفوق إنجلترا بالبرهان الدامغ . وكاد حصار الإنجليز للساحل الهولندى يشل الحياة الاقتصادية في الأقاليم المتحدة . وأشرف الألوف سكانها على الهلاك جوعا وهددوا بالتمرد .

في هذه المرحلة الحاسمة التمسعة اضطلع جان دي ويت بزعامة البلاد ، وكان ينتمى إلى أسرة بعيدة العهد بالتفوق في التجارة والسياسة الهولنديتين . وقد انتخب أبوه يعقوب دي ويت عمدة على دوردشت ست مرات . أما جان فقد تلقى كل التعليم الميسور ، وجاب أرجاء فرنسا مع أخيه الأكبر كورنياليس ، وانتقى بكرومويل في إنجلترا ، ثم استقر في لاهاي محامياً ( ١٦٤٧ ) . وبعد ثلاث سنوات كان أبوه واحداً من الزعماء الجمهوريين الذين أودعهم السجن ولهم الثاني أمير أوريج ، رئيس الدولة ، رعية في توطيد سلطته السياسية والحربية على جميع الأقاليم . فلما مات ولهم الثاني ( ١٦٥٠ ) رفض المجلس التشريعي قبول ابنه الذي ولد عقب وفاته خلفاً له ، ربما متأثراً في ذلك بإقامة إنجلترا حكومة جمهورية فيها ( ١٦٤٩ ) بصورة بدا أن التوفيق حالها ، وألغى منصب رئيس الدولة . وأصبحت المسرحية الداخلية للأقاليم المتحدة صراعاً بين الروح التجارية الجمهورية المسالمة التي يمثلها دي ويت ، والروح الأرستقراطية العسكرية التي أزمع أن يحياها بعد قليل الشاب المتحمس ولهم الثالث .

وفي ٢١ ديسمبر ١٦٥٠ ، انتخب جان دي ويت — وهو لا يزال في الخامسة والعشرين — كبيراً لولاية دوردرشت ، وممثلاً لها في المجلس التشريعي للأقاليم المتحدة . وفي فبراير ١٦٥٣ عينه المجلس حاكماً أعلى للجمهورية ، وناط به مهمة عسيرة هي مفاوضة إنجلترا المنتصرة على الصلح . وكان كرومويل قاسياً لا يرحم ، فطالب بأن يعترف الهولنديون بالسيادة الانجليزية ويحيوا العلم الانجليزي في القنال الانجليزي ، وبأن يسلموا بحق القباطنة الانجليز في تفتيش السفن الهولندية في البحر ، وبأن يؤدوا رسوماً نظير امتياز الصيد في المياه الانجليزية ، وبأن يدفعوا تعويضاً عن قتل الهولنديين الانجليز في أمبوينا عام ١٦٢٣ ، وبأن ينحوا بصفة دائمة عن الوظائف أو السلطة جميع أفراد بيت أوريج — الذي قطع على نفسه عهداً بأن يرد أسيرة ستيوارت إلى عرش إنجلترا لما بينه وبينها من مصاهرة . وحذف

دى ويت هذا البند الأخير من المعاهدة كما قدمت للمجلس التشريعى وكما تصدق عليها منه ( ٢٢ أبريل ١٦٥٤ ) ، ثم أقنع المجلس التشريعى لاقليم واحد — هو اقليم هولندة — بقبول المعاهدة بما فيها هذا البند . ولم يغتفر له وللم الثالث فعلته هذه قط .

ثم وطد دى ويت مركزه بالزواج من وينديلا بيكر الغنية ، وأصبح عن طريقها صهرا لأمرأء التجارة فى أمستردام ، وبتأييدهم شغل أهم المناصب فى هولندة هو وأبوه ، وأخوه ، وبنو عمومته ، وأصدقائه ، وسرطان ما قبض على زمام الحكم كله فى الاقليم . وقبلت أقاليم أخرى زعامته على مضض ، لأن هولندة التى أغنتها موانئها كانت تدفع سبعة وخمسين فى المائة من نفقات الاتحاد ، وتقدم معظم الاسطول الهولندى ، ولم يكن محبوبا من جماهير الشعب . ولكن حكمه كان مستنيرا وكفوؤا . فقد حدد من النفقات الباهظة ، وخفض الفائدة على الدين الفيدرالى ، وأجرى فحفا شاملا للأسطول ، وبنى سفنا أفضل ، ودرب عاملين جددا فى البحرية . واذ كان يعكس مشاعر التجار ، فإنه كافح فى سبيل السلام . ولكنه استعد للحرب . وفى ١٦٥٨ ، ثم فى ١٦٦٣ ، أعيد انتخابه حاكما اعلى للأقاليم المتحدة . وقد وقع من نفوس المراقبين باخلاصه لمهام الحكم ، وببساطة مسلكه وتواضعه ، وببقاء حياته العائلية . وبسرت له ثروة زوجته العيش فى منزل نفخ يستطيع أن يستقبل فيه المبعوثين الأجانب فى جومهييب ، ولكن ذلك المنزل كان مركزا للثقافة الهولندية أكثر منه مركزا للمظهر المترف ، فقد امتزج فيه الشعر بالسياسة ، ونوقش العلم والفلسفة ربما بحرية لاطيقتها ناخبودى ويت السكفنيون . وحتى سبينوزا ، ذلك المهرطق المرهوب ، وجد صديقا وفييا وحاميا له فى الحاكم الأهلى .

لقد كانت مأساته دائما أنه أحب السلام أكثر من الحرب ، بينما كان جيران الجمهورية الغنية يكتلون قواما للقضاء عليها . وفى ١٦٦٥ رد شعارو

الثانى الى عرش انجلترا ، فأوصى جان دى ويت مشدداً بأن يرضى عن ابن أخته وليم أورنج الثالث ، وبعد قليل طالب بالغاء « قانون الإبعاد » الذى أقصى بمقتضاه وليم عن المناصب ، ووافق دى ويت وهكذا مهد الملك الاستيوارتى لسقوط أسرة ستيوارت على غير قصد منه . وفى اكتوبر ١٦٦٤ ، استولت حملة انجليزية على مستعمرة نيو أمستردام الهولندية ، وأطلقت عليها اسماً آخر هو نيو يورك تكريماً لدوق يورك ( جيمس الثانى مستقبلاً ) وكان يومها قائد البحرية الانجليزية . واحتج المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة ، ولم تعبأ إنجلترا بالاحتجاج ، وفى مارس ١٦٦٥ بدأت الحرب الهولندية الثانية .

وقد برر الموقف ما سبق أن اتخذته دى ويت من استعدادات . ذلك أن ضعف القيادة قد انتقل من المجلس التشريعى إلى حكومة تشارلز الثانى الغافلة العاجزة ، وبينما كان الملك المرح يرافق خليلته ، ظفردى ويت بالثناء حتى من أعدائه على الهمة والإخلاص اللذين بذلها لـ كل نواحي التنظيم الحربى وتفصيله . فقد أبحر غير مرة مع الاسطول ، وعرض نفسه لـ كل مخاطر المعركة ، وألهم الملاحين بشجاعته وغيرته . ولم تسكن البحرية الهولندية إلى ذلك الحين كفواً للبحرية الانجليزية فى السفن أو الرجال أو النظام ، فأوقعت البحرية الانجليزية بقيادة دوق يورك هزيمة حاسمة بالبحرية الهولندية فى أول لقاء كبير فى الحرب ( لوفستوفت ، ١٣ يونيو ١٦٦٥ ) . على أن المواطنين الهولنديين الصابرين أعادوا بناء أسطولهم وولوا عليه رجلاً من أفدر وأجرأ أمراء البحر الذين عرفهم التاريخ . وفى يونيو ١٦٦٧ قاد هذا الرجل ، وهو ميشيل أدريانسون درويتر ، ستا وستين سفينة إلى نهر التيمز ، واستولى على قلعه شيرنيس ( على نحو أربعين ميلاً شرقى لندن ) ، وحطم الحواجز التى تعترض الدخول فى نهر ميدواى ( الذى يصب فى التيمز عند شيرنيس ) وأخذ ، أو أحرق ، أو أغرق ست عشرة سفينة حربية كانت راسية هناك دون تأهب لمثل هذا الائر الوقع ( ١٢ يوليو ١٦٦٧ ) . وإذ

لم يكن بتشارلز الثاني ولع بالحرب ، فقد أمر دبلوماسييه أن يعرضوا على الهولنديين صلحا مقبولا . وفي ٢١ يوليو ١٦٦٧ وقعت الدولتان معاهدة بريدا ، وبمقتضاها نزل الهولنديون لانجلترا عن نيويورك التي خالوها غيرها ، ووافقوا على أن يحيو العالم الانجليزى فى المياه الانجليزية ، ونزلت انجلترا للهولنديين عن مستعمرة سورينام (جيانا الهولندية فى أمريكا الجنوبية) وعدلت قانون الملاحة لصالح التجارة الهولندية . وكانت المعاهدة نصرا معتدلا لدى وبت وبلغت به قمة نجاحه .

غير أنه ارتكب الآن سلسلة من الأخطاء القاتلة ، فقد زاد من تنفير مؤيدى وليم الثالث بأن أجاز فى المجلس الإقليمى هولندا ( ٥ أغسطس ١٦٦٧ ) « مرسوما دائما » يمنع أى حاكم لى إقليم من تولى قيادة الجيش أو البحرية العليا للاتحاد . فاستقال على إثر ذلك أتباع الأمير الشاب من الجيش وتركوه خلوا من القوادحnskين . ولسوء الحظ وقع هذا الحدث ، الناجم عن المنافسة بين أسرتين ، بينما كانت فرنسا تغزو الأراضي المنخفضة الأسبانية ، فهددت بذلك المصالح الحيوية الأقاليم المتحدة . فلو أن فرنسا هيمنت على الأقاليم الجنوبية لأسرعت بفتح الشلت للتجارة الأجنبية من جديد ، فإذا انتعشت بذلك أنتورب تحدثت السيادة التجارية لأمستردام ، وأصبح اقتصاد الأقاليم الشمالية كله فى خطر . ثم كم من الزمن سيقف لويس الرابع عشر عند الحدود الهولندية لا يتجاوزها ؟ لو أن رأيه استقر على أن يلتهم الأقاليم المتحدة ، ويستولى على مصاب الراين ، لما بقى للبلد فى الواقع وجود ، ولقضى على البروتستنتية الهولندية قضاء مبرما .

وعرض دى وبت على الملك المعتدى سلسلة من الحلول الوسط ، ولكن رفضها . فاتفق مع أنجلترا ( ٢٣ يناير ١٦٦٨ ) ، ثم مع السويد ، على حاف ثلاثى للدفاع المشترك ضد التوسع الفرنسى . ووافق لويس فى لباقة على إنهاء « حرب الأيلولة » ( الوراثة الأسبانية ) شريطة أن يستبقى « طاقا من المدن



والحصون التي استولى عليها في فلاندر وإينو . وارتضت هذه الشروط  
إنجلترا والسويد ، ثم الأقاليم المتحدة ، في معاهدة إكس — لا — شابل  
( ٢ مايو ١٦٦٨ ) . وبدأ أن دبلوماسية دي ويت جنبت البلاد الخطر ، وفي  
يوليو انتخب للمرة الرابعة ليشغل منصب الحاكم الأعلى للجمهورية فترة  
خمس سنوات أخرى .

ولسكنه أخطأ استقراء سياسات ملكي فرنسا وإنجلترا . ذلك أن لويس  
لم يغتفر للهولنديين قط تدخلهم في غزوه للأراضي المنخفضة الأسبانية ،  
فأقسم أنه « إن ضايقة هولنده كما ضايقت الأسبان فسيرسل رجاله بالمجارف  
والمعاول ليقذفوا بها في البحر » ( ٤٥ ) ، ربما بفتح الجسور البحرية عليها .  
كانت تغيظه الجمهورية ، وكان يطمع في الراين ، فمقد النية على تدمير تلك ،  
والسيطرة على هذا . وزادت الصراع شدة حرب التعريفات الجمركية التي  
نشبت بين الخصمين ، فقد فرض كولبير رسوما مانعة على البضائع الهولندية  
التي تدخل فرنسا ، ورد الهولنديون عليها بمثلا . ولكن الذخيرة الحربية  
استثنت استثناء بارعا من هذه القيود ، ذلك أن لوفوا ، وزير الحربية  
الفرنسي ، أقنع رجال الصناعة الهولنديين بأن يبيعوه مقادير هائلة من المتاد  
الحربي ( ٤٦ ) ، وفي الوقت نفسه امتنع رجال الأعمال الهولنديون عن الموافقة  
على الضرائب التي أراد دي ويت فرضها لتزويد الجيش بالأمداد والمؤن .  
وأثبت السلك الدبلوماسي الفرنسي حذقه ، أو ثراؤه ، بمنزله إنجلترا والسويد  
عن تحالفهما مع الأقاليم المتحدة . فوافق تشارلز الثاني في معاهدة دوفر  
السرية ( ١ يونيو ١٦٧٠ ) على التخلي عن الحلف الثلاثي والانضمام إلى لويس  
في حربه مع الهولنديين . أما السويد فقد انسحبت من الحلف في ١٦٧٢  
لحاجتها للمعونة الفرنسية ضد الدنمرك وألمانيا ، ووعدت أسبانيا ،  
والإمبراطورية ، وبراندنبورج ، الجمهورية بالمساعدة ، ولكن ما كان تحت  
تصرفها من قوات كان أضال أو أبعد من أن يكون له كبير وزن أمام

القوات المجندة الضخمة التي أطلقت الآن على الأقاليم المتحدة براً وبحراً . وعاد دي ويت يعرض التنازلات والحلول الوسط ، فرفضها لويس

وفي ٢٣ مارس ١٦٧٢ بدأت إنجلترا الهجوم على الجمهورية الهولندية ، وفي ٦ أبريل أعلنت فرنسا عليها الحرب . وسرطان مازحف نحو ١٣٠.٠٠٠ مقاتل على الدولة الصغيرة يقودهم تورين ، وكونديه ، ولكسمبور ، وفوبان ، ولويس نفسه . يقول فولتير « لم يشهد الناس من قبل جيشاً ضخماً كهذا الجيش ( ٧ ) » ، واخترقت القوة الفرنسية الرئيسية ، باستراتيجية بارعة وغير متوقعة ، الأراضي الألمانية — مهدئة نائرة القرى بـ « الهدايا » — لتهاجم النقاط الأضعف تحصيناً . وفي ١٢ يونيو ، وتحت نيران الهولنديين وبصر الملك ، عبر الفرنسيون الراين ، وهم يصبحون عرض الأقدام الستين التي لم يسمح لهم عمقها أن يخوضوها ، وأصبح هذا حدثاً محبباً تتناوله الصور والأيقونات الملكية . وزحفت الجيوش الملكية شمالاً إلى قلب الأقاليم المتحدة ، فاستولت بسهولة على المدينة تلو المدينة . واستسلمت أوترخت دون مقاومة ، وأذعن أقليماً أوفريسل وجلدرلاند ، ولم يبق بعد قليل غير أمستردام ولاهاي . ولم تجد كثيراً تلك الهزيمة التي أوقعها درووتر في ٦ يونيو بالأسطولين الإنجليزي والفرنسي مجتمعين في خليج ساوثوولد . وطلب دي ويت الصلح ، فطالب لويس بتمويض ضخم ، وبسيطرة الفرنسيين على جميع الطرق الهولندية البرية والبحرية ، وبرد الكاثوليك إلى جميع أرجاء الجمهورية . ورفض الهولنديون هذه الشروط لأنها لا تفضل العبودية ، فاجأوا إلى دفاعهم الأخير : وفتحوا الجسور ، وأدخلوا البحر عدوهم القديم صديقاً منقذاً ، وما لبثت المياه أن تدفقت على اليابس ، وتقهقر الفرنسيون طاجزين أمام هذا الفيضان الذي أخذهم على غرة .

ومع هذا فقد خربت البلاد ، فكانت جيوش أسقف مونستر وناخب كولونيا ، المتحالفين مع لويس ، تزحف دون طاق على إقليم أوفريسل ،

والسفن الفرنسية والإنجليزية تغير على التجارة الهولندية رغم ألف درويتر ، وأشرفت الحياة الاقتصادية للدولة المحاصرة على الانهيار . أما دي ويت فقد كافح خلال هذه الشهور القاسية كما لم يكافح أى رجل قبله فى تاريخ هولنده — فجمع الأموال ، وجيز الأسطول وزوده ، ووقف إلى جوار درويتر فى معركة خليج ساوثوولد ، وحاول بالبعثة تلو البعثة أن يفاوض على صلح ينقذ وطنه . وفى يونيو ١٦٧٢ عرض على لويس أن ينزل له عن ماسترشت واجزاء من برابانت الهولندية ، وأن يدفع كل نفقات الحرب . ولكن لويس ازدرى هذا العرض أيضاً ، ولما سمع مواطنوه بأمر العرض ندوا به رجلاً يبيت استسلام الخيانة للويس ( ٨ ) . وأتى عليه الشعب الآن كل تبعة ما أصابهم من نكبات . واتهموه بالنقه الساذجه المستهتزة فى وعود تشارلز الثانى ولويس الرابع عشر ، ورموه بتعيين أقاربه فى أكثر من عشر وظائف مجزية ، وفوق هذا كله لم يستطيعوا أن يغتفروا له حرمان بيت اورنج من امتيازاته الحربية والسياسية التى حفظت على الأقاليم الهولندية حريتها طوال قرن من الزمان . ثم لاموه على عجز قواده البورجوازيين وجبنهم . ورماء القساوسة الكلفنيوين بأنه ملحد مقنع ، وتابع لديكارت وصديق لسبينوزا ( ٩ ) . وحتى طبقات التجار التى كانت من قبل سنده الأكبر انقلبت عليه الآن واتهمته بأنه منظم الهزيمة .

وشاركه أخوه كورنيليس فى تلقى بغض الجماهير وشتائمها ، وهو الذى قام به من قبل مكافآت المنصب وأعباء الحرب ومخاطرها . وفى ٢١ يونيو ١٦٧٢ بدلت محاولة فاشلة لاغتيال جان ، وبعد يومين تلتها محاولة أخرى لقتل كورنيليس . وفى ٢٤ يوليو قبض موظفو لاهاي على كورنيليس بتهمة التآمر على أمير اورنج وفى ٤ أغسطس استقال جان من منصبه كما أعلى . وفى ١٩ أغسطس عذب كورنيليس وحكم عليه بالنفى . وشق جان طريقه خلال المدينة الممادية الى سجن الجيفانجيبورن ليرى أخاه رغم أنه حذر بأنه يعرض حياته للخطر . ومالبث جمع من

الغوغاء أن احتشد خارج السجن يحرضه رئيس شرطة وصانغ وحلاق .  
وكان هناك حارس مدني كلف برد الغوغاء ولكنه شاركهم حقدهم على  
الأخوين دي ويت ، فلم يبد أي مقاومة حين حطمو أبواب السجن  
واندفعوا الى داخله . وقبضوا على جان وكورنيليس ، وجروهما الى الليدان ،  
وضربوهما حتى الموت ، وعلقوا جثتيهما على عمود نور ورأساهما من مكان  
( ٢٠ أغسطس ١٦٧٢ ) . ومات الجمهورية الهولندية بموتهما ، وعاد بيت  
أورنج الى السلطة من جديد .

### ه - ولیم أورنج الثالث

نشأت ماري ستيوارت ولدها على لون مكتئب من ضبط النفس  
يترقب في صمت فرصته حتى يأتي التجلد بالنصر ، وذلك بعد أن حطم  
روحها إعدام أبيها تشارلز الأول ( ١٦٤٩ ) ، وموت زوجها الشاب ولیم  
أورنج الثاني ( ١٦٥٠ ) ، وإلغاء منصب رئاسة الدولة ، وإقصاء بيت  
أورنج عن الوظائف . هذا الصبي الهزيل الجسد ، الذي أحرق به في نوم  
الأعداء المكلفون بحراسته ، والذي ورث رغم ذلك عن ولیم أورنج الأول  
شعاره « سأقاوم » - نقول أنه شب فتى مليلا يخفي وراء وجهه الجامد نارا  
مستعرة من العزيمة والثأر . واذ كان صارما ، مؤدبا ، مجاملا في برود ، فقد  
زهده في اللهو والمرح ، ومارس الرياضات الخلوية علاجا لصداه المتكرر  
ولتعرضه لنوبات الانغماء . لقد كان إناء ضعيفا لتلك الروح التي تستولى  
على عرش إنجلترا وتؤدب ملك فرنسا .

وذهبت أمه الى إنجلترا في ١٦٦٠ ابتهاجا بتتويج أخيها ، وماتت هناك  
بالجدري في ليلة عيد الميلاد . وفي ١٦٦٦ أعلنت حكومة انليم هولده  
الأمير ذا الستة عشر عاما قاصرا تحت وصاية الدولة ، واستبدل جان دي  
ويت بأوصيائه ومعلميه المحبوبين اشخاصا أكثر استجابة لسياسة المجلس

الاقليمي (٥٠). وكان كره وليم لدى ويت يزداد على الايام . وفي قمة سلطان جان ، أدلت الأمير من رقابة أوصيائه الجدد وركب جيواده من لاهاي الى بيرجن أوب - زوم (١٦٦٨) ، ثم استقل زورقا الى زيلند ، وكانت أكثر الأقاليم ولاء لاجداده . وحياء سكان طاصته مدلبورج ، ظاهرات كبيرة تقبض حبا واخلصا ، فتولى دون تردد أو مقاومة رئاسة المجلس الاقليمي لزيلندة . فلما طاه الى لاهاي أعلن انه بلغ الآن رشده في عيد ميلاده الثامن عشر (٤ نوفمبر ١٦٦٨) ، وأنه منذ الآن سيستغني عن الأوصياء الذين عينهم له مجلس هولندة . ولكن المجلس رفض سحبهم ، تطرد هم ، ولسكنهم بقوا . وترقب وليم فرصته . وقد وافته حين اكتسحت الجيوش الفرنسية والألمانية الأقاليم الهولندية ، واستسلمت الجيوش الهولندية بلدا بعد بلد ، وبدأ أن لاهاي ذاتها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، وعين المجلس التشريعي وليم قائدا عاما للاتحاد (٢٥ فبراير ١٦٧٢) ، مدعنا لمطالب العسكريين ، ومؤملا أن تعود الى الأمة وحدتها ومعنويتها برد بيت أورانج الى مكان القيادة . وفي ٢ يوليو انتخب مجلس زيلندة وليم حاكما لاقليمهم ، ضاربا بالمرسوم الدائم عرض الحائط ، وفي ٤ يوليو هذا المجلس هولندة وحذوه ، وفي ٨ يوليو عين قائدا أعلى لقوات الاتحاد المسلحة في البر والبحر . وقد ظهر معدنه حين عرض ملك فرنسا الصلح نظير تعويض بلغ ستة عشر مليون فلورين ، والتزول عن مساحات كبيرة لفرنسا ، وموستر ، وكولونيا ، وقدم عرض سري بالاعتراف بوليم ملكا على الباقي . واتجه اليه مجلس هولندة يطلب النصيحة فأجاب ، « خير لنا أن نقطع إربا من أن نقبل هذه الشروط (٥١) . » وحين حضر دوق بكنجهام الثاني من إنجلترا ليبحث وليم على الصانع وقال له « ألا ترى أن وطنك قد ضاع ؟ » أجاب « ان وطني في خطر عظيم ، ولكن هناك سبيل مؤكد لمنعه من الضياع ، وهو الموت في آخر خندق (٥٢) » . ومع ذلك ففي حكمة تستغرب من قتي في الثانية والعشرين ، انهار بالمفاوضات الصابرة المجاملة مع الانجليز ، ولعله رأى آثما أن في التعاون

بين الانجليز والهولنديين الأمل الوحيد لكبح اعتداءات فرنسا . واتخذ من التداير ما يكفل توثيق الروابط بين الأقاليم المتحدة ، والامبراطورية ، وبرايد نبورج . وكانت الخطوط العريضة للتحالف الأعظم تتشكل في ذهنه . ومضى الى المقر الرئيسى للجيش ، لذلك كان غائبا عن لاهاي حين قتل الأخوان دى ويت . والظاهر أنه لم يكن ضالعا في تدبير هذه الفعلة ، التي ربما لم يدبرها أحد ، ولكنه لم يخف ارتياحه حين سمع بنيتها ، وحمى الرجال الذين قادوا الغوغاء ورتب لهم معاشا (٥٣) . ثم حاول الآن أن يكون قائدا كندوا ، فلم يوفق قط في محاولته ، غير أن المقاتلين المحنكين الذين انضموا تحت لوائه في حماسة أعادوا تنظيم الجيش والبحرية ، وبدأت الانتصارات ترجح الهزائم ، وتفوق درويتر وكوريليس ترومب ( بن مارتين ) على الأسطولين الانجليزى والفرنسى في شونفيلت وكيكدوين ( ١٦٧٣ ) ، وصد الغزاة الألمان عند جرونجن ، واستولى عليهم على . غاردن ، وظهرت أقاليم جلدزلاند وأوترخت ، واوريسل ، من العدو . وراح الفرنسيون يتقهقرون في كل مكان تقريبا ، وأُنقذت الأقاليم المتحدة ، مؤقتا على الأقل ، فهلت لوليم منقذاتها .

ثم أضاف الى هذه الانتصارات انتصارات دبلوماسية . ففي ١٩ فبراير ١٦٧٤ أقنع انجلترا بأن تبرم معه صلحا منفردا إذ وافق على أن يدفع لها تعويضات حربية قدرها مليونتا فلورين ، وفي ٢٢ أبريل و ١١ مايو وقع معاهدتين مع مونستر وكولونيا ، ثم أكد التحالف القائم بين الأقاليم المتحدة ، وأسبانيا ، وبرايد نبورج ، والدنمرك ، والامبراطورية ، ضد فرنسا التي أصبحت الآن معزولة . وكانت الضربة الأخيرة ظفروه بيد مارى ، كبرى بنات جيمس دوق يورك وشقيق ملك انجلترا . وتقاربت الآن الدولتان البروتستانتيتان الكبيرتان ، وراحت الشبكة تحسبم خيوطها حول فرنسا ، ولم يكن أمرا هيئا أن يكون لمارى حق في وراثة العرش الانجليزى لايتقدم عليه غير حق أبيها فيه . وندرفى التاريخ أن دبر حاكم صغير السن كوليم مثل هذه الخطط البعيدة النظر ، ولا حقق لها نجاحا كهذا النجاح .

على أن الفرنسيين جددوا هجومهم خلال ذلك ، فاستولوا على إيبروغنت ، وزحفوا نحو الحدود الهولندية . وهزم أسطول فرنسي درويتر نجاة شاطئ صقلية ( ٢٢ أبريل ١٦٧٦ ) ، وبعد أسبوع مات درويتر متأثراً بجراحه . وعرض لويس الصلح على الأقاليم المتحدة بشروط مغرية : أن يرد كل الأراضي الهولندية التي استولى عليها الفرنسيون ، شريطة أن توافق الأقاليم المتحدة على احتفاظه بفرانش - كونتيه والاورين . واحتج الامبراطور ، وبراندينبورج ، والدنمرك على هذا الصلح ، وأيدهم وليم ، ولكن المجلس التشريعي الذي غلبت عليه المصالح التجارية تغلب على رأيه ، وتخلي عن حلفائه ، ووقع مع فرنسا صلح نيميغن المنفصل ( ١٠ أغسطس ١٦٦٧ ) . أما وليم فقد نذر إلى الصلح على أنه بمجرد هدنة ، وكافح طوال السنوات العشر التالية ليعيد بناء الحلف . وكبح انتجار الهولنديون طلعه العسكري ، محتجين بأن الأقاليم المنهكة في حاجة لأن تستريح من النضال ، وأن الرخاء في طريقه إليها . على أن حدثين وقعا عام ١٦٨٥ فاستغلها وليم ذلك أن لويس ألغى مرسوم نامت ، فاحتشد الهيجونوت المضطهدون في الأقاليم المتحدة ، وتزعموا دعوة شيطنة لتوحيد الدول البروتستانتية ضد فرنسا . وفي إنجلترا كشف جيمس الثاني ، بعد أن تولى عرشها ، عن أهله في رد الأمة إلى الكاثوليكية ، فدبر البروتستانت الإنجليز عزله ، وبذلك يحل حق ماري زوجة وليم في العرش . وكان وليم قد عشق اليزابيث فيليبي ، صديقة ماري (٥٤) الحبيبة ، ولكن ماري غفرت له ، ووافقت على طاعة زوجها بوصفه ملكاً أن هي أصبحت ملكة على إنجلترا . وفي ١٦٨٦ أفلح وليم في تنظيم حلف مع الامبراطورية ، وبراندينبورج ، وأسبانيا ، والسويد ، للدفاع المشترك . وفي ٣٠ يونيو ١٦٨٨ دعا الزعماء البروتستانت الإنجليز وليم وماري إلى دخول إنجلترا بقوات مسلحة ومساعدتهم على خلع ملكهم الكاثوليكي . وتردد وليم ، لأن لويس الرابع عشر كان تحت يده جيش هرمم ينتظر قرار الملك ليهاجم الأراضي المنخفضة أو الامبراطورية . وأرسل لويس الأمر للجيش بأن يزحف على ألمانيا ، فأطلق بذلك يد وليم . وفي ١ نوفمبر ١٦٨٨ أبحر بأربعة عشر ألف رجل ليكسب عرش إنجلترا .

فرس

المجلد الأول

من المجموعتين لد الثامن

الكتاب الأول

فرنسا في أوج عظمتها ١٦٤٣ - ١٧١٧

صفحة

الفصل الأول

٧

المهم من تشرق : ١٦٤٣ - ٨٤

٢١ - ٧

١ - مازاران والفروند .

٣١ - ٢١

٢ - الملك .

٣٤ - ٣١

٣ - هولاء فوكيه .

٣٤ - ٣٥

٤ - كيربير يمد بناء فرنسا .

٥٢ - ٤٥

٥ - الآداب والأخلاق .

٥٧ - ٥٢

٦ - بلاط الملك .

٦٨ - ٥٧

٧ - نساء الملك .

٧٤ - ٦٨

٨ - الملك يفضى إلى الحرب .

الفصل الثاني

٧٥

وثيقة الإيمان ١٦٤٣ - ١٧١٥

٨١ - ٧٥

١ - الملك والكنيسة .

٨٦ - ٨١

٢ - البور - روبال ١٢٠٤ - ١٦٢٦



٩٠—٨٦	٣ — الجانسيون واليهوعيين
٩٠	٤ — بسكال .
٩٥—٩٠	( أ ) بسكال الإنسان .
٩٧—٩٥	( ب ) الرسائل الاقليمية .
١٠٧ ٩٧	( ج ) في الدفاع عن الإيمان .
١١٠—١٠٧	٥ — البور — رويال . ١٦٥٦ — ١٧١٥
١١٩—١١١	٦ — للاك واليهجوت .
١٢٨—١١٩	٧ — موسويه .
١٣٥ — ١٢٨	٨ — فنيلون

### الفصل الثالث

١٣٦	للاك والفنون : ١٦٤٣ - ١٧١٥
١٤٠ — ١٣٦	١ — تنظيم الفنون .
١٤٦—١٤٠	٢ — العمارة
١٤٩ - ١٤٦	٣ — الزخرفة .
١٥٥ ١٤٩	٤ — التصوير .
١٦١—١٥٥	٥ — النحت .

### الفصل الرابع

١٦٢	موليير : ١٦٢٣ - ٧٣
١٦٤ ٢٦٢	١ — المسرح الفرنسي .
١٦٧ ١٦٤	٢ — تلذته
١٧٧—١٦٨	٣ — موليير وسيدات المجتمع
١٨٣ ١٧٧	٤ — غرام طرطوف
١٨٦ ١٨٣	٥ — الملحد العاشق .

- ٦ — مولير في أوجه . ١٩٤ ١٨٦  
٧ — ستار . ١٩٨ - ١٩٤

### الفصل الخامس

- أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي : ١٩٩  
١٦٤٣ — ١٧١٥  
١ — جو الكلاسيكية . ١٩٩ - ٢٠٢  
٢ — تذييل لـ كورني . ٢٠٢ — ٢٠٤  
٣ — راسين . ٢٠٤ — ٢٢١  
٤ — لافونتين . ٢٢١ — ٢٢٤  
٥ — بوالو . ٢٢٤ - ٢٢٨  
٦ — الاحتجاج الرومانسي . ٢٢٩ — ٢٣١  
٧ — مدام دسفيانييه . ٢٣٢ — ٢٣٧  
٨ — لا روشفوكو . ٢٣٧ - ٢٤٣  
٩ — لا برويير . ٢٤٣ - ٢٤٥  
١٠ — مزيد من الأدباء . ٢٤٥ — ٢٥٠

### الفصل السادس

- مأساة في الأراضي المنخفضة : ١٦٤٩ - ١٧١٥ ٢٥١  
١ — الأراضي المنخفضة الأسبانية . ٢٥١ — ٢٥٣  
٢ — الجمهورية الهولندية . ٢٥٣ - ٢٥٨  
٣ — ازدهار صور الحياة اليومية . ٢٥٨ — ٢٦٣  
٤ — جان دي ويت . ٢٦٣ — ٢٧٢  
• — وليم أوردنج الثالث . ٢٧٢ - ٢٧٦

# CHAPTER I

1. Motteville, Mme. de, *Memoirs*, I, 79.
2. Retz, Cardinal de, *Memoirs*, 103.
3. Motteville, I, 81.
4. Retz, 103.
5. Motteville, III, 232.
6. *History Today*, July 1959, p. 461.
7. Bishop, M., *Life and Adventures of La Rochefoucauld*, 149.
8. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 36.
9. Retz, 281.
10. Sainte-Beuve, *Portraits of the Seventeenth Century*, I, 335.
11. Retz, 55, 73.
12. Voltaire, *Louis XIV*, 67.
13. Michelet, *Histoire de France*, IV, 388; Acton, *Lectures on Modern History*, 235.
14. Motteville, III, 237.
15. Palmer, *Molière*, 15.
16. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 361.
17. Sainte-Beuve, I, 422.
18. *Ibid.*, 417.
19. *History Today*, March 1954, p. 149.
20. Voltaire, 256.
21. *Ibid.*, 69.
22. Rea, Lillian, *Countess of La Fayette*, 170.
23. Ferval, *Louise de La Vallière*, 55.
24. Saint-Simon, II, 369.
25. Sainte-Beuve, I, 413.
26. Saint-Simon, II, 361.
27. Sainte-Beuve, I, 423.
28. Louis XIV, *Mémoires*, 35.
29. In Sainte-Beuve, I, 417.
30. Boulenger, *Seventeenth Century*, 178.
31. Motteville, III, 248.
32. Lewis, W. H., *Splendid Century*, 30.
33. Voltaire, 257.
34. Barine, *La Grande Mademoiselle*, 117.
35. Louis XIV, 76.
36. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 63-65; Michelet, IV, 424-27.
37. Guizot, *History of Civilization*, I, 160.
38. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 533.
39. Louis XIV, 96.
40. King, J. E., *Science and Rationalism in the Government of Louis XIV*, 87.
41. Saint-Simon, II, 34.
42. Louis XIV, 68.
43. King, 95.
44. Saint-Simon, II, 106, 370.
45. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 153.
46. Louis XIV, 70.
47. France, Anatole, *Nicolas Fouquet*, 258.
48. Voltaire, 262.
49. Martin, H., I, 23, quoting de Choisi.
50. Louis XIV, 74.
51. Martin, I, 22.
52. Sée, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 93.
53. Martin, I, 34.
54. *Ibid.*, 33f.; Michelet, IV, 410.
55. Boulenger, 356.
56. Mousnier, R., *Histoire générale des civilisations*, IV, 148.
57. Voltaire, 324; Martin, I, 79.
58. Michelet, IV, 428.
59. Mousnier, IV, 148.
60. Voltaire, 273; Martin, I, 86.
61. Boulenger, 357; Lewis, *Splendid Century*, 81.
62. *History Today*, March 1954, p. 155.
63. Mousnier, IV, 252.
64. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 154.
65. Mousnier, IV, 250; *Cambridge Modern History*, V, 11.
66. Boulenger, 355.
67. Levasseur, *Histoire des classes ouvrières et de l'industrie en France avant 1789*, I, 394.
68. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 366.
69. In Acton, *Lectures*, 326.
70. Martin, I, 489-90, 496.
71. Voltaire, 323.
72. Martin, I, 558.
73. Barine, 13.
74. Saint-Simon, I, 383; Voltaire, 288.
75. *Encyclopaedia Britannica*, XIII, 778c; Brereton, *Jean Racine*, 245-52.
76. Molière, *Théâtre: École des femmes*, I, i.
77. Sainte-Beuve, I, 250; Day, Lillian, *Ninon*, 34.
78. Sévigné, Mme. de, *Letters*, I, 98, April 1, 1671.
79. Day, *Ninon*, 141.
80. Parton, *Life of Voltaire*, I, 33.
81. Saint-Simon, I, 344.
82. Sévigné, I, 105, April 8, 1671; Day, *Ninon*, 242.
83. *Ibid.*, 80.
84. Saint-Simon, I, 344.
85. Day, 246.
86. *Ibid.*, 185.
87. Saint-Simon, I, 345.
88. Day, 160.
89. Sainte-Beuve, II, 199.

90. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 109.
91. Michelet, V, 118.
92. Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 74.
93. Boulenger, 349.
94. Bourgeois, 77; Guizot, *History of France*, IV, 587.
95. La Bruyère, *Characters*, chap. "Of the Gifts of Fortune."
96. Voltaire, 278.
97. Saint-Simon, II, 11.
98. Fulop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 415.
99. Martin, I, 171.
100. *Ibid.*, 171.
101. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, III, 942.
102. Day, *Ninon*, 163.
103. Cartwright, *Madame; A Life of Henrietta, Duchess of Orléans*, 89.
104. Racine, *Oeuvres: Andromaque*, Dedication.
105. Michelet, IV, 405.
106. *Ibid.*, V, 158.
107. Cartwright, 371; Voltaire, 284; Martin, I, 312.
108. Ferval, *La Vallière*, 67.
109. *Ibid.*, 302.
110. Voltaire, 282.
111. Michelet, IV, 437.
112. Saint-Simon, I, 391.
113. Boulenger, 192.
114. Cruttwell, *Mme. de Maintenon*, 79.
115. *Ibid.*, 46.
116. *Ibid.*, 53.
117. Michelet, V, 69; Martin, I, 535.
118. Saint-Amand, *Court of Louis XIV*, 46.
119. Cruttwell, 89; Martin, I, 530.
120. Boulenger, 195; Michelet, IV, 490; Cruttwell, 118-19.
121. Saint-Simon, II, 381.
122. *Ibid.*, III, 15.
123. Acton, 136; Ogg, *Europe in the 17th Century*, 231.
124. Louis XIV, 121-25.
125. Martin, I, 417.
126. Voltaire, 260; Martin, I, 400; *Enc. Brit.*, XII, 682c; Acton, 243.
127. *Camb. Mod. History*, V, 77.
128. Lewis, *Splendid Century*, 139.
8. Ranke, *History of the Popes*, II, 420.
9. Fulop-Miller, 105.
10. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 74f.
11. *Ibid.*, 83; Beard, Charles, *Port Royal*, II, 30.
12. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 89.
13. Beard, Charles, I, 30.
14. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 90.
15. *Ibid.*, II, 407n.
16. Beard, C., I, 52.
17. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 94.
18. Pascal, *Provincial Letters*, Introd., 97, and 421n.
19. Voltaire, 419; Beard, C., I, 260.
20. Pascal, *Letters*, Introd., 109.
21. Mesnard, *Pascal*, 12.
22. Mornet, Daniel, *Short History of French Literature*, 75.
23. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 379; Mesnard, 40.
24. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 748.
25. Pascal, *Pensées*, Havet ed. Introd., p. civ.
26. Mesnard, 57.
27. *Ibid.*, 109.
28. Pascal, *Pensées*, Introd., p. cxxiii.
29. Pascal, *Provincial Letters*, 197.
30. *Ibid.*, 417.
31. *Ibid.*, 465; *Pensées*, II, 118.
32. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 235.
33. Mesnard, 92.
34. Voltaire, 424.
35. In Pascal, *Provincial Letters*, 127n.
36. Fulop-Miller, 195.
37. Voltaire, 424, 358.
38. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 118.
39. Voltaire, 359.
40. Sainte-Beuve, III, 173f.; Beard, C., I, 84.
41. Pascal, *Pensées*, Introd., xxviii; Mesnard, 137-38.
42. Cf. Rabelais, Book III, Ch. xiii.
43. *Pensées*, Introd., p. xxv; text, 17bis.
44. *Ibid.*, text, i, 1.
45. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, 174.
46. *Pensées*, Everyman's Library, No. 82.
47. *Pensées*, Havet ed., Book III, No. 18.
48. Everyman ed., No. 4.
49. Havet ed., XVI, pt 1bis.
50. *Ibid.*, XX, p. 19.
51. *Ibid.*, I, p. 1.
52. Everyman ed., No. 349.
53. *Ibid.*, No. 418.
54. Havet ed., VIII, p. 1.
55. *Ibid.*, II, p. 8.
56. *Ibid.*, VI, p. 51; Everyman ed., No. 451.
57. Havet, IV, p. 1.
58. *Ibid.*, II, pp. 6, 1bis, 3.
59. Everyman, No. 402.

## CHAPTER II

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 393; Guérard, 186-90.
2. Mesnard, *Pascal*, 99.
3. Campbell, *The Jesuits*, 259; Fulop-Miller, 195.
4. Voltaire, 430.
5. Saint-Simon, II, 84.
6. *Ibid.*, III, 37.
7. Louis XIV, 119.

60. *Ibid.*, No. 397; Havet, I, p. 3.
61. Havet, I, p. 6; Everyman, No. 347.
62. Everyman, No. 277.
63. Havet, XXIV, p. 52.
64. *Ibid.*, X, p. 1; Everyman, No. 233.
65. Everyman, No. 233.
66. Havet, II, p. 8.
67. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 508.
68. Havet, IV, 7.
69. *Ibid.*, XIV, 2.
70. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 124.
71. Owen, 800.
72. *Ibid.*, 775.
73. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 320.
74. Beard, C., II, 75.
75. *Provincial Letters*, 59.
76. *Pensées*, Havet, Introd., cxii.
77. Beard, C., II, 352.
78. Disraeli, Isaac, *Curiosities of Literature*, I, 97.
79. Saint-Simon, II, 12.
80. Boulenger, 284.
81. Michelet, V, 298.
82. In Martin, H., I, 231.
83. Lewis, *Splendid Century*, 108.
84. Sanders, *Bossuet*, 53.
85. *Camb. Mod. History*, V, 22.
86. Martin, I, 529.
87. *Ibid.*
88. *Ibid.*, 532.
89. Michelet, IV, 520.
90. Guizot, *History of France*, V, 23.
91. *Camb. Mod. History*, V, 23.
92. *Ibid.*
93. Boulenger, 263.
94. Martin, I, 552.
95. Ogg, *Seventeenth Century*, 305.
96. Martin, II, 33.
97. *Ibid.*, 43.
98. Buckle, H. T., *History of Civilization*, Ib, 492n., quoting Benoist, Élie, *Histoire de l'Édit de Nantes* (1695), V, 887f.
99. Michelet, IV, 507.
100. Voltaire, 409.
101. Martin, II, 44.
102. Robertson, J. M., II, 142.
103. Saint-Simon, III, 14.
104. Beard, Miriam, 373.
105. Bacon, "Of Unity in Religion," in *Essays*.
106. Sanders, *Bossuet*, 46.
107. Bossuet, *Oraisons funèbres et sermons*, 69.
108. *Ibid.*, 108.
109. Eccles. xvii, 14.
110. Romans xiii, 1.
111. Isaiah xiv, 1.
112. Sanders, 213.
113. Bossuet, in Ogg, 102.
114. Sanders, 260.
115. Buckle, Ib, 569.
116. Faguet, *Literary History of France*, 446.
117. Michelet, IV, 517.
118. Martin, II, 268.
119. Sanders, 280; Michelet, IV, 412.
120. Fénelon, *Télémaque*, end of Book IX.
121. *Ibid.*, Book XIII.
122. Faguet, *Literary History*, 446.
123. Hazard, *The European Mind: The Critical Years*, 208.
124. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 191.
125. Bayle, *Philosophical Commentary on . . . "Let Them Come in,"* in Robinson, H., *Bayle the Sceptic*, 73.
126. Bayle, *Dictionnaire historique et critique*, s.v. "Xénophanes."
127. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 302.
128. Mornet, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 24.
129. Meyer, R. W., *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 35.

### CHAPTER III

1. Pradel, *L'Art au siècle de Louis XIV*, 101.
2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 376.
3. *Ibid.*, 325.
4. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 583.
5. Pradel, 96.
6. *Ibid.*, 99.
7. Boulenger, 365.
8. Fergusson, *History of the Modern Styles of Architecture*, 236-8.
9. Saint-Simon, I, 186.
10. Martin, II, 212; Blomfield, *Three Hundred Years of French Architecture*, 86.
11. Victoria and Albert Museum, London.
12. Dillon, *Glass*, 210.
13. Guizot, *History of France*, IV, 566.
14. Stranahan, *History of French Painting*, 50.
15. Louvre.
16. Dimier, Louis, *Histoire de la peinture française* (Paris, 1927), II, 45.
17. Versailles.
18. Benoist, *Coysevox*, 115; the bust is in the Louvre.
19. Louvre.
20. Louvre.
21. Louvre.
22. Louvre.
23. Louvre.

### CHAPTER IV

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 258.
2. Palmer, *Monete*, 46.

3. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, IV, 42.
4. Molière, *Le Misanthrope*, II, v, 711f.
5. Lucretius, *De rerum natura*, IV, 1155f.
6. Martin, I, 190, Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 95-97.
7. Palmer, 59.
8. Voltaire, *Life of Molière*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 628.
9. Palmer, 147.
10. *Les Précieuses ridicules*, scene iv, in Molière, *Plays*, Everyman's Library ed.
11. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 271.
12. Palmer, 145.
13. *Les Précieuses ridicules* (Everyman ed.), scene ix.
14. *L'École des maris* (Everyman), I, i.
15. *L'Impromptu de Versailles* (Everyman), I, i.
16. *L'École des femmes*, I, i.
17. *L'École des femmes* (Everyman) I, i.
18. *Critique de l'École des Femmes*, vi.
19. *Ibid.*
20. Michelet, IV, 419.
21. Molière, *Théâtre*, II, 40.
22. Palmer, 335.
23. *Tartuffe* (Everyman), I, vi.
24. *Ibid.*, III, ii.
25. III, vii.
26. IV, v.
27. *Le Festin de pierre* (Everyman), I, i.
28. *Ibid.*, III, i.
29. IV, ii.
30. Palmer, 380f.
31. As in the Everyman's Library edition.
32. *Le Festin de pierre* (Everyman), III, i.
33. Garrison, *History of Medicine*, 196.
34. *L'Amour médecin* (Everyman), II, v.
35. Palmer, 410.
36. *Le Misanthrope* (Everyman), II, i.
37. *Le Misanthrope*, I, i.
38. *Ibid.*, Classiques Larousse ed., 97-98.
39. In Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 126-27.
40. *L'Avare*, II, vi.
41. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), II, iv.
42. Guizot, *History of France*, IV, 560.
43. Michelet, IV, 421.
44. *Le Malade imaginaire* (Everyman), III, iii.
45. Edwards, *Idols of the French Stage*, I, 40.
46. *Ibid.*, 45.
47. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), I, i.
48. *Critique de l'École des femmes* (Everyman), vi.
49. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 140.
50. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 204.

## CHAPTER V

1. Martin, I, 142; Boulenger, 360; *Camb. Mod. History*, V, 152; Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 93.
2. Guizot, *History of Civilization*, II, 231; Hauser, *Social History of Art*, I, 470.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au xviii<sup>e</sup> siècle*, III, 404.
4. Van Laun, *History of French Literature*, II, 184.
5. *Enc. Brit.*, VI, 441b.
6. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 293; Brereton, *Racine*, 29.
7. Racine, Louis, *Mémoires sur la vie . . . de Jean Racine*, in Racine, Jean, *Oeuvres*, I, 42.
8. Brereton, 29.
9. Guizot, *History of France*, IV, 539.
10. Racine, *Andromaque*, I, iii.
11. Brereton, 154; Martin, I, 170.
12. Suetonius, *De vita Caesarum: Divus Titus*, vii, 2.
13. Racine, *Bérénice*, I, v.
14. Desnoiresterres, VI, 96.
15. Guizot, *France*, IV, 541.
16. Smith, Adam, *Theory of Moral Sentiments*, I, 255.
17. Racine, *Oeuvres*, I, 765.
18. Brereton, *Racine*, 145-52.
19. *Ibid.*, 19.
20. 2 Kings xi; 2 Chronicles xii.
21. Racine, *Athalie*, IV, iii.
22. Parton, *Voltaire*, I, 591; Mme. du Defand, in Strachey, *Books and Characters*, 99; Guizot, *France*, IV, 546; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 147; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 314.
23. Guizot, *France*, IV, 548.
24. Racine, Louis, *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, p. iii.
25. Saint-Simon, I, 155; Guizot, *France*, IV, 548-49; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 153; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 303.
26. Guizot, IV, 548.
27. *Ibid.*
28. Racine, L., *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, 113.
29. Babbitt, Irving, *The Spanish Character*, 98.
30. Brereton, 143.
31. Sévigné, Mme. de, *Letters*, II, 210 (Mar. 16, 1672).
32. Desnoiresterres, VI, 102, 281.
33. Hume, "Of Civil Liberty," in *Essays*, 52.

34. La Fontaine, *Choix de contes*, 151.
35. *Fables*, Preface.
36. Rea, *Life of . . . Countess of La Fayette*, 230.
37. Guizot, IV, 552.
38. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 148.
39. Guizot, IV, 553.
40. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, V. 24.
41. *Ibid.*
42. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 238.
43. Boileau, *Satire 1*, in *Poètes français*, VII, 21.
44. *Satire ix.*
45. *Poètes français*, VII, 182-85; *Enc. Brit.*, III, 790d.
46. Day, *Ninon*, 211.
47. Boileau, *L'Art poétique*, I, ll. 75-76.
48. *Ibid.*, II, 171-74.
49. IV, 59-60.
50. IV, 125-26.
51. III, 45-46.
52. III, 391-94.
53. In Fischer, *Descartes and His School*, 511.
54. Guizot, *France*, IV, 551.
55. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 261.
56. Lewis, *Splendid Century*, 268.
57. Guizot, IV, 519.
58. La Fayette, Mme. de, *La Princesse de Clèves*, 104.
59. Rea, *Countess of La Fayette*, 284.
60. Bishop, *La Rochefoucauld*, 266.
61. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 27.
62. Sévigné, *Letters*, I, 170 (June 10, 1671).
63. Letter of Jan. 20, 1672.
64. In Boissier, 145.
65. *Ibid.*, 145-47.
66. *Letters*. Introd., xxxviii.
67. Letter of July 5, 1761.
68. Apr. 8, 1761.
69. Boissier, 201; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 232.
70. Apr. 10, 1671.
71. Guizot, IV, 516.
72. Bishop, *La Rochefoucauld*, 128.
73. *Moral Maxims and Reflections*, 84.
74. *Ibid.*, 150.
75. 84.
76. 122.
77. 178.
78. 11.
79. 471.
80. 9.
81. 219.
82. 82, 465.
83. In Bishop, 68.
84. *Moral Maxims*, 15.
85. *Ibid.*, 77.
86. 138.
87. 140.
88. 74.
89. 367.
90. 436.
91. Preface to the first edition.
92. In Bishop, 144.
93. *Moral Maxims*, 688.
94. *Ibid.*, 70.
95. *Ibid.*, 658-59.
96. In Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, I, 380.
97. *Moral Maxims*, 476.
98. Rea, *Countess of La Fayette*, 265.
99. Sainte-Beuve, *loc. cit.*
100. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 395.
101. La Bruyère, *Characters*, p. 173, Ch. xii, 7.
102. *Ibid.*, p. 492, Ch. xii, 7.
103. E.g., Ch. xi, 35, and Ch. xvii, 28, in La Bruyère, pp. 267, 469.
104. Guizot, *France*, IV, 528.
105. Motteville, *Memoirs*, I, 150.
106. French text in Fellows and Torrey, *The Age of the Enlightenment*, 35-39.
107. Hazard, *The Critical Years*, 127.
108. Saint-Évremond, Letter to de Créqui, in King, J., *Science and Rationalism*, 26.
109. Frederick II to Voltaire, Sept. 19, 1774, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*.
110. Lewis, *Splendid Century*, 282.
111. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 1.

## CHAPTER VI

1. A good example in Metropolitan Museum of Art, New York.
2. Vienna.
3. Dresden.
4. Madrid.
5. Louvre.
6. Wolf, *History of Science . . . in the XVIth and XVIIth Centuries*, 626.
7. Beard, *Miriam*, 305.
8. Day, Clive, *History of Commerce*, 194; Marx, *Capital*, I, 826.
9. *Camb. Mod. History*, V, 12.
10. Adam Smith, in Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 71.
11. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 44.
12. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xx.
13. Pepys, *Diary*, May 14, 1660.
14. Hazard, *Critical Years*, 93.
15. Graetz, H., *History of the Jews*, V. 10.
16. Hazard, 88.
17. Vienna.
18. The Hague.
19. New York.
20. Baron Thyssen Collection.
21. The Hague.
22. Mather, F. J., *Western European Paint-*

- ing of the Renaissance*, 549.
23. Czernin Collection, Vienna.
  24. The Hague.
  25. Edinburgh.
  26. Frick Gallery, New York.
  27. London.
  28. Dresden.
  29. Louvre.
  30. New York.
  31. Washington.
  32. Chicago.
  33. Budapest.
  34. Frick Gallery.
  35. Brussels.
  36. Berlin.
  37. London.
  38. Louvre.
  39. The Hague.
  40. Amsterdam.
  41. Dresden.
  42. New York.
  43. Mather, 590.
  44. In Beard, Miriam, 288.
  45. In Browne, Sir Thomas, *Religio Medici*, 19.
  46. Voltaire, *Agè of Louis XIV*, 94; Martin, *Louis XIV*, I, 333.
  47. Voltaire, 93.
  48. Bowen, Marjorie, *William Prince of Orange*, 196.
  49. Martin, I, 347.
  50. Bowen, 92.
  51. *Camb. Mod. History*, V, 158.
  52. Burnet, Bishop, *History of His Own Times*, 117.
  53. *Camb. Mod. History*, V, 160; Acton, *Lectures*, 228.
  54. Kronenberger, *Marlborough's Duchess*, 30.